الجزء الثاني عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن علي
ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن
الأثير الجزري الملقب بعز
الدين رحمه
الله

(وبهامشه تاريخ أبي نصر العتبي رحمه الله تعالى)

فهرسة الجزء الثانى عشر من تاريخ الكامل

صحيفة

٢ سنة اربع وثمانين وخمسمائة
٢ ذكر حصر صلاح الدين كوكب
٢ ذكر رحيل صلاح الدين الى بلاد الفرنج
٣ ذكر فتح جبلة
٤ ذكر فتح لاذقية
٤ ذكر حال اسطول صقلية
٤ ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون
٥ ذكر فتح حصن بكاس والشغر
٥ ذكر فتح سرمينية
٦ ذكر فتح برزية
٧ ذكر فتح درب ساك
٨ ذكر فتح بغراس
٨ ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية
٩ ذكر فتح الكرك وما يجاوره
٩ ذكر فتح قلعة صفد
٩ ذكر فتح كوكب
١٠ ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر
١٠ ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل
١١ ذكر عدة حوادث
١١ (سنة خمس وثمانين وخمسمائة)
١١ ذكر فتح شقيف اروم
١٢ ذكر وقعة البزك مع الفرنج
١٢ ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة
١٣ ذكر وقعة ثالثة
١٤ ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها
١٥ ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب
١٦ ذكر الوقعة الكبرى على عكا

صحيفة

١٧ ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا
١٨ ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصرى فى البحر
١٨ ذكر عدة حوادث
١٨ (سنة ست وثمانين وخمسمائة)
١٨ ذكر وقعة الفرنج والبزك وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج
١٩ ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول
٢٠ ذكر وصول ملك الالمان الى الشام وموته
٢٢ ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا
٢٣ ذكر خروج الفرنج من خنادقهم
٢٤ ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت
٢٤ ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها
٢٥ ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين
٢٥ ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطانشاه بخراسان
٢٥ ذكر عدة حوادث
٢٥ (سنة سبع وثمانين وخمسمائة)
٢٥ ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة
٢٦ ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره الى خلاط وموته
٢٧ ذكر وصول الفرنج من الغرب فى البحر

صفحة

الى عكا

٢٨ ذكر ملك الفرنج عكا

٢٩ ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها

٣١ ذكر رحيل الفرنج الى نطرون

٣١ ذكر مسير صلاح الدين الى القدس

٣٢ ذكر عود الفرنج الى الرملة

٣٢ ذكر قتل قزل ارسلان

٣٢ ذكر عدة حوادث

٣٣ (سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)

٣٣ ذكر عمارة الفرنج عسقلان

٣٣ ذكر قتل المركيس وملك الكندهري

٣٤ ذكر نهب بني عامر البصرة

٣٤ ذكر ما كان من ملك انكلتار

٣٤ ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين وقفل

٣٥ ذكر سير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة

٣٥ ذكر عود الفرنج الى عكا

٣٥ ذكر ملك صلاح الدين يافا

٣٦ ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق

٣٧ ذكر وفاة قلج ارسلان

٣٨ ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند

٣٩ ذكر عدة حوادث

٤٠ (سنة تسع وثمانين وخمسمائة)

٤٠ ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

٤١ ذكر حال أهله واولاده بعده

٤١ ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه

٤٢ ذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته

٤٣ ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

صفحة

٤٣ ذكر عدة حوادث

٤٤ (سنة تسعين وخمسمائة)

٤٤ ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي

٤٤ ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزمشاه الري ووفاة أخيه سلطانشاه

٤٥ ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها

٤٦ ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

٤٦ ذكر عدة حوادث

٤٦ (سنة احدى وتسعين وخمسمائة)

٤٦ ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم

٤٧ ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس

٤٨ ذكر فعله الملثم بافريقية

٤٩ ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان

٤٩ ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الري وهمذان وغيرها

٤٩ ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

٥٠ ذكر عدة حوادث

٥٠ (سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

٥٠ ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند

٥١ ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل

٥٢ ذكر عدة حوادث

٥٢ (سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)

٥٢ ذكر ارسال الامير أبي الهيجاء الى همذان وما فعله

٥٢ ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها

صحيفة

٥٤ ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده
٥٤ ذكر عدة حوادث
٥٥ (سنة اربع وتسعين وخمسمائة)
٥٥ ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد
٥٥ ذكر ملك نور الدين قسيمين
٥٦ ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة
٥٦ ذكر انهزام الخطا من الغورية
٥٧ ذكر ملك خوارزمشاه مدينة بخارا
٥٨ ذكر عدة حوادث
٥٨ (سنة خمس وتسعين وخمسمائة)
٥٨ ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر
٦٠ ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها
٦١ ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد
٦١ ذكر عصيان اهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد
٦٢ ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين
٦٣ ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان
٦٤ ذكر مسير خوارزمشاه الى الرى
٦٤ ذكر عدة حوادث
٦٥ (سنة ست وتسعين وخمسمائة)
٦٥ ذكر ملك العادل الديار المصرية
٦٥ ذكر وفاة خوارزمشاه
٦٦ ذكر عدة حوادث
٦٧ (سنة سبع وتسعين وخمسمائة)
٦٧ ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب

صحيفة

منبج وغيرها من الشام وحصره هو واخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها
٦٨ ذكر ملك غياث الدين واخيه ما كان نلوا رزمشاه بخراسان
٧٠ ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما
٧٠ ذكر ملك شهاب الدين نهرواله
٧١ ذكر ملك ركن الدين ماطيسة من اخيه وارزن الروم
٧١ ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك اخيه محمود
٧١ ذكر عدة حوادث
٧٢ (سنة ثمان وتسعين وخمسمائة)
٧٢ ذكر ملك خوارزمشاه ما كان اخذه الغورية من بلاده
٧٣ ذكر حصر خوارزمشاه هراة وعوده عنها
٧٤ ذكر عدة حوادث
٧٤ (سنة تسع وتسعين وخمسمائة)
٧٤ ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها
٧٥ ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته
٧٥ ذكر اخذ الظاهر قلعة نجم من اخيه الافضل
٧٦ ذكر ملك الكرج مدينة دوين
٧٦ ذكر عدة حوادث
٧٧ (سنة سبعمائة)
٧٧ ذكر حصار خوارزمشاه هراة ثانية
٧٧ ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا

صحيفة

٧٩ ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان
٧٩ ذكر ملك القسطنطينية من الروم
٨٠ ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية
٨١ ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم
٨١ ذكر قتل كوكجة بيلاد الجبل وولاية ايتغمش
٨١ ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده
٨٢ ذكر قتل الباطنية بواسط
٨٢ ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت
٨٢ ذكر عدة حوادث
٨٣ (سنة احدى وستمائة)
٨٣ ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه
٨٤ ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها
٨٤ ذكر الفتن ببغداد
٨٥ ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام
٨٥ ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة
٨٥ ذكر عدة حوادث
٨٦ (سنة اثنتين وستمائة)
٨٦ ذكر الفتنة ببهراة
٨٦ ذكر قتال شهاب الدين الغورى بفى كوكر
٨٧ ذكر الظفر بالتيراهية
٨٨ ذكر قتل شهاب الدين الغورى
٨٩ ذكر ما فعله الدز
٨٩ ذكر بعض سيرة شهاب الدين

صحيفة

٩٠ ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته
٩١ ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه
٩٢ ذكر ملك الدز غزنة
٩٢ ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه
٩٤ ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان
٩٦ ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا
٩٦ ذكر عود أصحاب باميان الى غزنة
٩٨ ذكر عود الدز الى غزنة
٩٩ ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان
٩٩ ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية
٩٩ ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم
١٠٠ ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب
١٠٠ ذكر نهب الكرج ارمينية
١٠١ ذكر عدة حوادث
١٠٢ (سنة ثلاث وستمائة)
١٠٢ ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن اخيه
١٠٢ ذكر ملك خوارزمشاه الطالقان
١٠٣ ذكر حال غياث الدين مع الدز وايبك
١٠٥ ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده
١٠٥ ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية
١٠٦ ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك باميان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده

صحيفة

١٠٧ ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج
١٠٧ ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان
١٠٧ ذكر عدة حوادث
١٠٨ (سنة اربع وستمائة)
١٠٨ ذكر ملك خوارزمشاه ماوراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها
١٠٩ ذكر قتل ابن خميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه
١١٠ ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان
١١١ ذكر قتل غياث الدين محمود
١١١ ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا
١١٢ ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين
١١٢ ذكر الوقعة التي أفنت الخطا
١١٣ ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط
١١٤ ذكر غارات الفرنج بالشام
١١٤ ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من اهلها
١١٥ ذكر ملك ابي بكر بن البهلوان هراغة
١١٥ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة
١١٦ ذكر عدة حوادث
١١٦ (سنة خمس وستمائة)
١١٦ ذكر ملك الكرج ازجيش وعودهم عنها
١١٦ ذكر قتل سنجرشاه وملك ابنه محمود
١١٨ ذكر عدة حوادث
١١٨ (سنة ست وستمائة)
١١٨ ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلانشاه ومظفر الدين

صحيفة

١٢٠ ذكر عدة حوادث
١٢٠ (سنة سبع وستمائة)
١٢٠ ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه
١٢١ ذكر وفاة نور الدين ارسلانشاه وشيء من سيرته
١٢٢ ذكر ولاية ابنه الملك القاهر
١٢٢ ذكر عدة حوادث
١٢٣ (سنة ثمان وستمائة)
١٢٣ ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش
١٢٣ ذكر نهب الحاج بمنى
١٢٣ ذكر عدة حوادث
١٢٤ (سنة تسع وستمائة)
١٢٤ ذكر قدوم ابن منكلي بغداد
١٢٤ ذكر عدة حوادث
١٢٤ (سنة عشر وستمائة)
١٢٤ ذكر قتل ايتغمش
١٢٤ ذكر عدة حوادث
١٢٥ (سنة احدى عشرة وستمائة)
١٢٥ ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند
١٢٥ ذكر عدة حوادث
١٢٦ (سنة اثنتي عشرة وستمائة)
١٢٦ ذكر قتل منكلي وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك
١٢٧ ذكر وفاة ابن الخليفة
١٢٧ ذكر ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها
١٢٨ ذكر استيلاء الدز على لهاور وقتله
١٢٩ ذكر عدة حوادث

صحيفة

١٢٩ (سنة ثلاث عشرة وستمائة)
١٢٩ ذكر وفاة الملك الظاهر
١٢٩ ذكر عدة حوادث
١٣٠ (سنة اربع عشرة وستمائة)
١٣٠ ذكر ملك خوارزمشاه بلد الجبل
١٣١ ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده
١٣٢ ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين
١٣٢ ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها
١٣٣ ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها
١٣٤ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج
١٣٦ ذكر عدة حوادث
١٣٧ (سنة خمس عشرة وستمائة)
١٣٧ ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى ان استقرت الامور
١٣٨ ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزن
١٣٩ ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف
١٣٩ ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري
١٤٠ ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه
١٤٠ ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين
١٤١ ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشي وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار
١٤٢ ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين

صحيفة

١٤٣ ذكر عود قلاع الهكارية والزوزن الى بدر الدين
١٤٣ ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس
١٤٥ ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده
١٤٥ ذكر عدة حوادث
١٤٦ (سنة ست عشرة وستمائة)
١٤٦ ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه
١٤٦ ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه
١٤٧ ذكر اجلاء بقي معروف عن البطائح وقتلهم
١٤٧ ذكر عدة حوادث
١٤٧ (سنة سبع عشرة وستمائة)
١٤٧ ذكر خروج التتر الى بلاد الاسلام
١٤٩ ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه
١٥٢ ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته
١٥٣ ذكر صفة خوارزمشاه وشيء من سيرته
١٥٣ ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران
١٥٤ ذكر وصول التتر الى الري وهمذان
١٥٤ ذكر وصول التتر الى اذربيجان
١٥٦ ذكر ملك التتر مراغة
١٥٧ ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها
١٥٨ ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم أردويل وغيرها
١٥٨ ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج
١٥٩ ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه
١٥٩ ذكر ما فعلوه باللان والقبجاق

صحيفة

١٦٠ ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس
١٦٠ ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم
١٦١ ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند
١٦١ ذكر ملك التتر خراسان
١٦٣ ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها
١٦٣ ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور
١٦٤ ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازى
١٦٥ ذكر عدة حوادث
١٦٥ (سنة ثمان عشرة وستمائة)
١٦٥ ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج
١٦٦ ذكر عدة حوادث
١٦٧ (سنة تسع عشرة وستمائة)
١٦٧ ذكر خروج طائفة من قفجاق الى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم
١٦٩ ذكر نهب الكرج بيلقان
١٦٩ ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش
١٧٠ ذكر عدة حوادث
١٧٠ (سنة عشرين وستمائة)
١٧٠ ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى
١٧٠ ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية
١٧١ ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله
١٧١ حادثة غريبة لم يوجد مثلها
١٧٢ ذكر عدة حوادث
١٧٢ (سنة احدى وعشرين وستمائة)
١٧٢ ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما

صحيفة

١٧٣ ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس
١٧٣ ذكر عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه
١٧٤ ذكر حصار صاحب اربل الموصل
١٧٤ ذكر عدة حوادث
١٧٤ (سنة اثنتين وعشرين وستمائة)
١٧٥ ذكر حصر الكرج مدينة كنجة
١٧٥ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق
١٧٦ ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك
١٧٦ ذكر خلع شروانشاه وظفر المسلمين بالكرج
١٧٧ ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا
١٧٧ ذكر ملك جلال الدين أذربيجان
١٧٩ ذكر انهزام الكرج من جلال الدين
١٧٩ ذكر عود جلال الدين الى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة اوزبك
١٨٠ ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله
١٨١ ذكر خلافة الظاهر بامر الله
١٨٣ ذكر ملك بدر الدين قلعة العمادية وهرور
١٨٤ ذكر عدة حوادث
١٨٥ (سنة ثلاث وعشرين وستمائة)
١٨٥ ذكر ملك جلال الدين تفليس
١٨٧ ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها
١٨٧ ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها
١٨٨ ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين
١٨٨ ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله
١٨٩ ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

صحيفة

١٨٩ ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد
١٩٠ ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس
١٩٠ ذكر حصر جلال الدين خلاط
١٩١ ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوانية
١٩١ ذكر الصلح بين المعظم والاشرف
١٩٢ ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن
١٩٣ ذكر عدة حوادث
١٩٣ (سنة أربع وعشرين وستمائة)
١٩٣ ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها
١٩٤ ذكر نهب جلال الدين بلد الاسماعيلية
١٩٤ ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر
١٩٤ ذكر دخول العساكر الاشرفية الى أذربيجان وملك بعضها
١٩٥ ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده
١٩٥ ذكر عدة حوادث
١٩٦ (سنة خمس وعشرين وستمائة)
١٩٦ ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه
١٩٦ ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر
١٩٧ ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا
١٩٧ ذكر ملك كيقباذ ارزنكان
١٩٨ ذكر خروج الملك الكامل
١٩٨ ذكر نهب جلال الدين بلاد ميفارقين
١٩٩ ذكر عدة حوادث

صحيفة

١٩٩ (سنة ست وعشرين وستمائة)
١٩٩ ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج
١٩٩ ذكر ملك الملك الاشرف مدينة دمشق
٢٠٠ ذكر القبض على الحاجب علي وقتله
٢٠١ ذكر ملك الكامل مدينة حماة
٢٠١ ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها
٢٠٢ ذكر عدة حوادث
٢٠٢ (سنة سبع وعشرين وستمائة)
٢٠٢ ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف
٢٠٣ ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم
٢٠٣ ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين
٢٠٣ ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن
٢٠٤ ذكر ملك صونج قشيالو اقلعة رويندز
٢٠٤ (سنة ثمان وعشرين وستمائة)
٢٠٤ ذكر خروج التتر الى أذربيجان وما كان منهم
٢٠٥ ذكر ملك التتر مراغة
٢٠٥ ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه
٢٠٦ ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد
٢٠٧ ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا
٢٠٧ ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر
٢٠٨ ذكر عدة حوادث

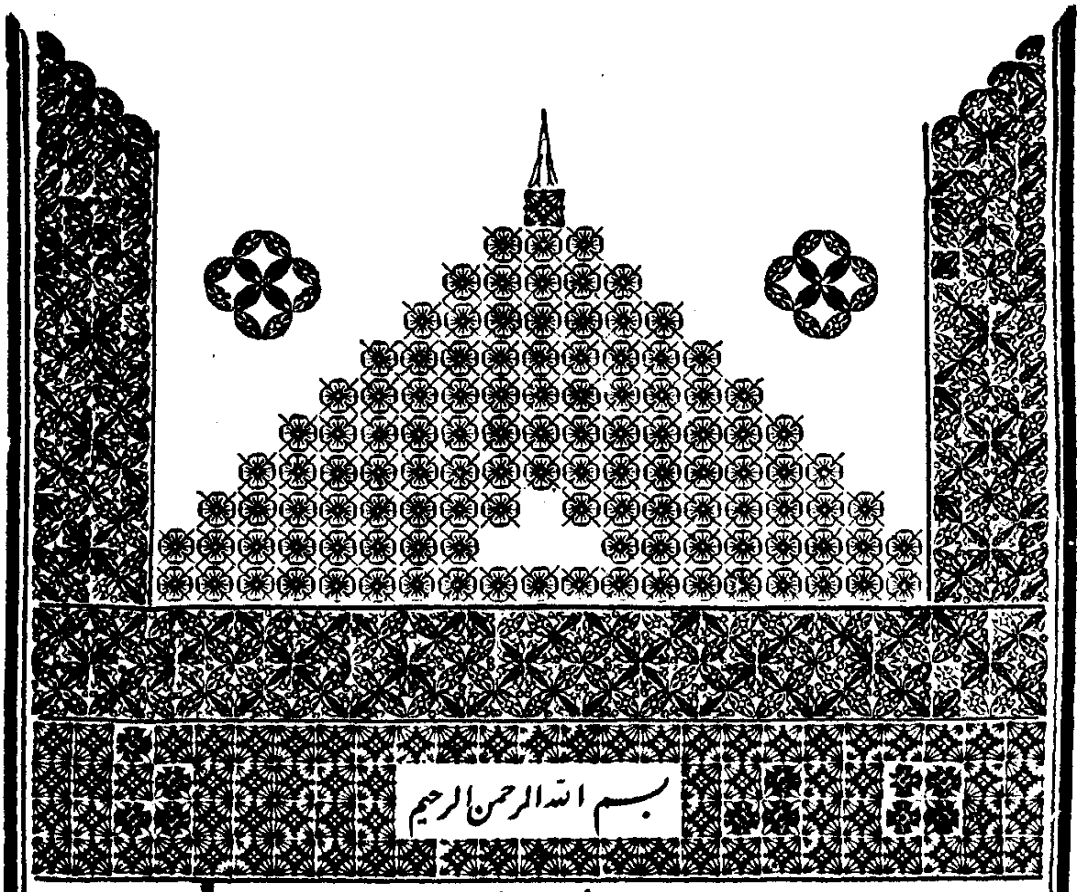

بسم الله الرحمن الرحيم

(ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين كوكب)

في هذه السنة في المحرم انحسر الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن يخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب لحصرها ونازلها ظنا منه ان ملكها سهلا وان أخذها عجلا وهو في قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ما عداها هذه الحصون وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج الى حفظه ولئلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطئ ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها فايماز النجمي مستديما لحصاره وكان رحيله عنها في ربيع الاول وأتاه رسل الملك قلج ارسلان وقزل ارسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر وسار من كوكب الى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى البلاد جميعها باجتماع العساكر بها وأقام بها الى ان سار الى الساحل بالبلاد الشامية

(ذكر رحيل صلاح الدين الى بلاد الفرنج)

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل ودعله وستشيره وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الاول الى حمص فنزل على بحيرة قدس غربي حمص وجاءته العساكر فأول من أتاه من اصحاب الاطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة

وغيرها

(ذكر الوزير أبي العباس الفضل بن أحمد وما انتهت اليه حاله الى أن مضى لسبيله) قد كان الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد خاصة فائق الملقب بعميد الدولة ومن كفاة بابه وثقات اصحابه وكان على البريد بهمذان أيام سالاريه السلطان ركن الدولة بنيسابور فمضى الى ناصر الدين سبكتكين خبر

وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الاكراد من الجانب الشرقي وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل الى بلاد الفرنج فأغار على صافيثا والعريمة وحمص وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها واين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا يحد له واقام تحت حصن الاكراد الى آخر ربيع الآخر

(ذكر فتح جبلة)

لما اقام صلاح الدين تحت حصن الاكراد أتاه قاضي جبلة وهو منصور بن ثيل يستدعيه اليه ليسلمها اليه وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يتحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق باليمند فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الاولى فنزل بانطرطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداوية باحد البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل اليه من في احد البرجين بامان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذي حفظ هذا الحصن فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد أخلاها اهلها ورحلوا عنها وساروا الى المرقب وهي من حصونهم التي لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار والطريق تحته فيكون الحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه الا الواحد بعد الواحد فاتفق ان صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة الى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثامن عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها واحتموا بقلعتها فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائنهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة وتركهم عنده بانطاكية فأخذ القاضي رهائن الفرنج وجاء رؤساء أهل الجبل الى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من امنع الجبال واشقها ملكا وفيه حصن يعرف بكسر ابل بين جبلة ومدينة حماة فملكه المسلمون وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الاسلام الى العسكر وكان الناس يلقون شدة في سلوكه وقرر صلاح الدين احوال جبلة

قوته وأماناته فكتب الى الرضى يستوهبه لوزارة السلطان وكفاية أعماله وتدبير أمواله ورجاله فأوجب اجابته الى ملتمسه وخوطب بالبدار الى نيسابور على مقتضى مثاله فاعتمده السلطان للوزارة واستكفاه مهمات الامارة بعد ان كان يرى مقام الشيخ الجليل شمس الكفاة أبي القاسم أحمد بن الحسن كتابة وحسابة واصالة واصابة وهداية ودراية وحماية وجباية اذ لم يكن على طراءة شبابه بين لداته أغنى منه غناء وامضى مضاء واذكى ذكاء وأدهى دهاء غير أن الامير سبكتكين جنى عليه في أبيه عند اعتماده لوزارة بست وتدبير اعمالها واموالها جناية سبق السيف فيها العذل اصغاء منه الى عداته فيما شققوه فيه من رقيعة والفقوه عليه من سعاية ووقيعة فاستوحش منه استيحاشا من بادرة فعله والمسيء نفور والقلوب عن ذوي الاساءة صور وكره السلطان الاستبداد على ابيه في انتصابه حسب ارتضائه

وجعل فيها الحافظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها

(ذكر فتح لاذقية)

لما فرغ السلطان من أمر بعلبك سار عنها الى لاذقية فوصل اليها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج ورتبوا اليهما ونقبوا الاسوارستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل اليهم قاضي جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مبنية بالرخام على اختلاف أنواعه فخرب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بنيتها التي لا تقوم على كل واحد منهما الاحوال اليسيرة المقدار وسلمها الى ابن أخيه تقي الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى اذا رآها اليوم من رآها يتذكر فيها فلا يظن أن هذه تلك وكان عظيم البهجة في تحصين القلاع والقرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة

(ذكر حال اسطول صلاحية)

لما نازل صلاح الدين لاذقية وصل اسطول صلاحية الذي تقدم ذكره فوقف بازاء مينا لاذقية فلما علمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم اهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منهم من أهلها غيظا وحنقا حيث سلموها سريعا فسمع بذلك اهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ان مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه انك سلطان وحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت اذا ولوا فاتركهم يكونون هم اليكك وبذلك تفتح لهم البلاد والممالك وورد عليهم بالاخبار بالاجفال من البحر والاطاقة للثبات فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابهم صلاح الدين بغير ذلك من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم بها أذاقهم أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

(ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون)

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق خندق في بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الآن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل المتصل بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى وجه الظاهر ساحب سطب فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات ايضا فرمى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة وأما من في الحصن من الفرنج فانهم كانوا يرمون بالسهام والحراب والزجاجيل والزيارقية أكثر من الحصن وهم يكثرون من التجلد والاستهانة فزحف المسلمون اليهم ثاني جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل الذي اتصل القرنج احكامها

فتحصنوا

واستكفائه وفق المنبور من وقائه طاعة له في اختياره واتباعا لفعلك رأيه تحت مداره وقضى الله بان يكون ما يليه حتى يعترف خراسان بانه عذيقه المرجب وجذيله المحكك يتتبع ما يفسده الغير بالاستصلاح ويستدرك ما أحرضته يد الاجتياح ويداوي كل داء بدوائه ويرد غائر الماء الى لحائه فأجرى أبو العباس الامور مجاريها على جملة لم يعرف فيها غير الجباية والاستدرار وقصد التوفير دون الاستعمار حتى جبي مالا عظيما سنين عدة اذ كانت خراسان بعد مكسوعة بأغبارها لم ينتزف منها دوا على اللبن ولم ينتزع منها كواسي السمن فلما احتلبها انتزافا واستنفد ما في ضرعها اسرافا ومن قبل ما قد حال بينها وبين خصب المراتع وبرد الموارد والمشاوع وضعت خراسان لها على ظهورها من فضول دسم وسمت بها وراءه عظامها من نقي مقتسم حتى صارت من فرط الهزال والنحف كالاهلة المحنية بل

فتسللوا منها بين الحصون حتى التصقوا بالسور الاول فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقلعة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة ابي قبيس فحصنه وجعله من أحصن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن بلاطنوس كان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفا ورعبا وملكوا ايضا حصن العيدو وحصن الجاهرتين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا ان الطريق اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسر ائيل شاق شديد لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لان بعضها بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنج

(ذكر فتح حصن بكاس والشغر)

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه امر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمي بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره الى القلعة شئ الا القليل الذي لا يؤذي فبقي المسلمون عليه اياما لا يرون فيه طمعا والفرنج غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم في هذا الحديث اذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة ايام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق انه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان سبب استمهالهم انهم أرسلوا الى البيمند صاحب انطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه انهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فان فعل والا سلموها واعتذروا بذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه

(ذكر فتح صرمنية)

لما كان صلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب فحصر صرمنية وضيق على اهله واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما نزلوا منها أخذ منهم القلعة هدم الحصن وعفى أثره وعالى بنيانه وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين بضع الف نفر فاطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق ان فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة الى صرمنية مع كثرتها

الاخلة المريبة وتداعى بالخراب معظم الضياع ووقعت الفتن بين القصور والانقطاع وشرد في البلاد اكثر الاكرة والزراع فعندها خذ الجار بذنب الجار وألزم القار مؤنة القار حتى عمت البلوى ولعمت الشكوى وشملت خراسان نوائب البوس وذهبت حرائب النفوس وصدمتهم سنة القحط بعقبها فصار الغني محسورا والمتوسط مقهورا والفقير مقبورا وكان أمر الله قدرا مقدورا وبقيت في رقاب خراسان بقايا كل متعذر ومتكسر وتاو ومتحسر وأذيت عن آخر دفرة منها لم يف بعضها فضلا عما جمعته أقلام الاستيفاء منها فاظهر السلطان ضجرا من تخير الاموال وتراجع الارتفاعات فطالب الوزير منها بما انقطعه وأتواه وضيعه وعلى رجع القول على سبيل الدلة بين البراءة والاحالة فهما عضه العتب بنقافه أظهر الاستعفاء وجنح الى نفسه البلاء وأسلم النفس اختيارا وآثر الحبس قرارا

كان في ست جمع مع انها في أيدي اشجع الناس واشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهي جميعها من أعمال انطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى في مكانه

(ذكر فتح برزية)

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهي تقابل حصن افامية وتناصفها في اعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان اهلها أضر شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانه لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادي المطيف بجبلها قدر ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا ابطلها ورأيت انا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شيء اليها امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق وهي التي أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة اهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثاني فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فانهم لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فاذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم احد الاقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثاني وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا شديدا وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم وبيده جناق يردهم وصاح في القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا ايضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال فحملهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون

وتوسط الملاعين السلطان وبينه على أن يجبر بعض المنكسر من خالص ماله مما استفضله طول وزارته من مرافق أعماله فأبى أن ينزل عن درهم الا بعزله وحبسه أو نفيه من قلاعه صنيع المتبرم بالعمل المتنغص بالامل المستسلم للبلية المتمسك بالمنية واختار عند ذلك السلطان الدهقان أبا اسحق محمد بن الحسين وهو اذ ذاك رئيس بغداد للصحابة الديوان واستنظاف البقايا على العمال والسكان وانهضه اليها سنة احدى وأربعمائة فانحدر الى دهراة وجبى من الاموال ما درت أخلافه ولاثت على الدر أعطافه ولم يلبث الا يسيرا حتى حمل حملا كثيرا والوزير أبو العباس بعد في صدر الوزارة والشيخ الجليل أبو القاسم يسعى بينه وبين السلطان على سبيل السفارة يروم اتضاحه اياه كي يشد به مكانه ويستدل على عرض الاستقامة شأنه وهو يأبى سوى اللجاج في القاء القول عن حدة المزاج حكما من الله

معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين الى سطح القلعة وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلعة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا والقوا بايديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وامست خالية لادياربها وألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت * ومن أعجب ما يحكى من السلامة انى رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فالقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبجعه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت بنظر ما الخبر فسقط على وجهه من عقرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الارض فوق الرجل فضربه المحدر فارتفع عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من جانبه الآخر لم يشله منه اذى ولا ضرر وقام بعد وحتى لحق باصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست ام الجبان وأما صاحب برزية فانه أسره وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فارسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعامله كثيرا من الاحوال التى تؤثر فاطلق هؤلاء لاجلها

* (ذكر فتح درب ساك) *

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من انطاكية فاقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه الى قلعة درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الدواوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيأ يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فامر بالزحف عليها ومهما جمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم المقاتلون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه اما بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم فلما علموا بعجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فامنهم على شرط أن لا يخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث ولا دابة ولا شئ معها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب

تعالى لم يسع احدا رده وقضاء سابقا أعيا العالمين صده وما زالت هذه حاله لزوما لا صدر على ما به من ضعة القدر الى أن ركب بنفسه الى قلعة غزنة مستترا وحاز بهمته الى الاعتقال عما تولاه ومتسما بجملة ما حواه واقتناه فلم يسمع بمثله رجلا يشترى الحبس اختيارا ويستقبل صرف الزمان بدارا وغاظ السلطان ما أتاه فاستبذله الخط بغرامة ما جناه على أمواله وربعاياه فبذل خطه بمائة ألف دينار ثم لم يزل يستدر الى أن عرض حال الفائه وعدم الطاقه ثم استخلصه السلطان بحياة راسه على ظاهر افلاسه وعلى اغلاق ذمته ان وجد له على الطلب مالا مقرا وجحدا ومدفونا ومستودعا وبقى على جملة يثنابه أولاده معفى عن الارهاق والتعنيف مصونا عن التحامل والتكليف الى أن ظهر على ما ذكر له مال عند بعض التجار ببلخ فاخذوه وأمر بوضع الدهق عليه لاستصفائه واستخراج ما وقاه بنفسه وذمائه وما

(ذكر فتح بغراس)

ثم سار عن درب ساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد ان اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى الميزل مقابل انطاكية فاذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل أكثر عسكره بين كل مقابل انطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخروج من أهلها ان غفلوا القريب منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا ان صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الامر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الامان فاجيب الى ذلك فاذن له فى الحضور بالحضير وطلب الامان لمن فى الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة درب ساك فاجابهم الى ما طلبوا فاعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فان ابن ليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته واتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأتى بهم السواد الذى بحلب وهو الى الآن بايديهم

(ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية)

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك وأشفق منه فارسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة ويبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فاجابه الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الاول وآخرها آخر ايار وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له لان القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار وابن اخيه ابن مودود وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حلب الى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين أبو الفضائل قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى قوله فى أحواله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فاشير عليه بتخريق العساكر فقال ان العمر قصير والاجل غير أموت وقد بقى

بقى من رمق جاهد وفاته
واتفقت السلطان غزوة
حالت بينه وبين مشاهدة
حاله واستبراء ما يصدق
أو يكذب من مقاله والدهر
يستقريه على الدوم وينال
منه يوما بيوم حتى اتاه أجله
وساق به ما كان يستعجله
وذلك فى سنة اربع واربعمائة
ولما عاد السلطان وراءه
ساءه ما سمع فيه وهيهات
اين من المساءة روح
مطموسه ونفس بين
أطباق الثرى رمسوسه
كذلك من آثر المخلوق
على الخالق ولم يعتبر
بالماضين فى الزمن السابق
وقد أدرك له فى صدر
وزارته ولد يعرف بأبى
القاسم محمد بن الفضل فبرع
على سعة الشباب فى
وجوه الفضائل والآداب
حتى استطار ذكره
واستطال قدره واستفاض
تظمه ونثره فمن شعره فى
أبيه قوله من قصيدة

لقد أربى أبو العباس جودا
على جود الربيع لمعتفيه
ففى أحدى يديه عمات قوم
وفى الاخرى الحياة لمرتجيه
لقد خضعت لك الدنيا وذلت
فهل مرقى سواه فترتقيه

يد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فانها فى وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

(ذكر فتح الكرك وما يجاوره)

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى دربساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذى يحصرها فى المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هنالك جرانه وأمنت قلوب من فى ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا ممن يتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

(ذكر فتح قلعة صفد)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال لا عد من الفرنج من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى فى المدة التى كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه فلما رأى أهلها جد صلاح الدين فى قتالهم خافوا أن يقيم الى أن يفنى ما بقى معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فنائها عندهم من القوت فيأخذهم فارسلوا يطلبون الامان فامنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا وسط البلاد الاسلامية

(ذكر فتح كوكب)

لما كان صلاح الدين يحاصر صفدا اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو انها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج واجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى ان رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدا فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغر به بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذى أقدمه الى هنالك فاقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم الى قاياز النجمى وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب فى طائفة من العسكر الى الموضع الذى قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم فى الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاستبتار فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فاحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية والاستبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن بنا انا

وأقبل نحولك الاقبال حتى
غدا بصرا وأنت النور فيه
فنورز ألف نيروز سعيدا
ربيع الجد فى عيش رفيه
وله أحجية
وزنجية قادت الى القوم بضة
لينكحها من كان يعشقها قدما
* فقام اليها واحد بعد واحد
ولم نرد ما فعلهم لا ولا اثما
وأدركته حرفة الادب
فاختطفته يد المنية أنضر
ما كان عودا * وأثبته عودا
وأبهره سؤددا * وأحمده
قياما وقعودا * وحكى لى بعض
أصحابه انه أصبح ذات يوم
يروى بيتين تلقنهما فى النوم
وهى
أرى الدنيا وزخرفها كحاس
تدور على اناس بعد اناس
فلا تبقى على أحد كما لا
يدوم بقاؤها فى كف حاس
فتطير له منهما ولما قضى
نحبه زاد أبو الحسن المؤملى
الكاتب فيه أبياتا وهى
أبعد محمد بن الفضل أرجو
أمانا لى من الدهر العماس
أساس الفضل كان به فأودى
وأبقى الفضل منهدم الاساس
فتى فى نثره والنظم أربى
على ابن ثوابة وأبى نواس

سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهم لم يقتلهم وأمر بهم فحبسوا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الاحجار اليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من اعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل الى من بالاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما واسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدا يلة الى اقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة

(ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر)

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال علي يال علي وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم ان رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية ويخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم ويملكون البلد فلم يلتفت أحد منهم اليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين فأخذوا وكتب بذلك الى صلاح الدين فأهمه أمرهم وأزعجه فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر فقال القاضي الفاضل ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح وترك الميل الى عدوك ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن اصحابك ورعيتك وخسرت الاموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسري عنه وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين واكبر من بها وستأتي مناقبه عند وفاته ماتراه

(ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل)

في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيرهم الى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان فلم يصل قزل اليهم وأقبل طغرل اليهم فالتقوا ثامن ربيع الاول بداي مريج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره وأخذ ما معه من خزانة

وراى في النوم معجزة جرير
يقصر دونها وأبو فراس
سأحفظ عهده مادمت حيا
وحفظ العهد من كرم التحامس
ورثاه بعض اهل العصر
ياعين جودي بدمع ساجم
على الفتى الحر أبي القاسم
قد كاد أن يهدمني فقده
لولا التسلي بأبي القاسم
وقدست الله مكان الماضيين
بأبي الحسن علي بن الفضل
المعروف بالطجاج بفضل
ساطع نوره * وعلم جامع
سوره * وحلم ثابت طوره
*وجود موكل بانشار آمال
الاحرار صوره * فتى
السن في حصافة الكهول*
جبان الرأي في شجاعة
الليوث * أدهم البأس
في غرة السجاحه * قدم
الحياء في ذلق الفصاحه *
وندب لاعمال الجوزجان
فدرت على ابساس ولايته *
ونقل الى أعمال نسا فضاقت
عن فضفاض كفايته *
يصون الاعمال صيانة عرضه
عما يصديه * ويحيي
الآمال احياء شرف
أبيه ويميت بدع الرسوم
اماتته ذكر أياديه * كما قيل
تسمو الرجال بآباء وآونة

وسلاح ودواب وغير ذلك وعاد العسكر الى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام فى عسكر صلاح الدين يريد الغزاة فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى فقال كاتبكم وقد وصل الخبر بانهزامهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لاشك ان أصحابى واهلى أعرف بالحرب من الوزير وأطوع فى العسكر منه ومع هذا فما أرسل احدا منهم فى سرية للحرب الا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الامراء اهلا أن يطاع وفى مقابله سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الامر كذلك ووصل الخبر اليه بانهزامهم فقال لاصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله

اتركونا من جائحات الجريمه * طلعة طلعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا * فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا * ن جميعا بأبهات عظيمه
بخيول وعدة وعديد * وسيوف مجربات قديمه
ووزير وطاق طنب ونفش * وخيول معدة للهزيمه
هم رأوا غرة العدو قد أقبل * ولواء النحل عقد العزيمه
وأتونا ولا بخفى حنين * بوجوه سود قباح ذميمه
لو رأى صاحب الزمان ولوعا * ين أفعالهم وقبح الجريمه
قابل الكل بالنكال وناهيك بها سبة عليهم مقيمه

كان ينبغى أن تتقدم هذه الحادثة وانما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لتعلق كل واحدة منها بالاخرى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شيخنا ابو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكريتى كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفى عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربى والى جانب التربة رباط المشهور بالرملة وفيها توفى علاء الدين تتامش وحمل نابوته الى مشهد الحسن عليه السلام وفيها توفى خادم الخليفة وكان اكبر أمير ببغداد ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

(ذكر فتح شقيف ارنوم)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار صلاح الدين الى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو ارناط صاحب صيدا وكان هذا ارناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف باحسانك واخاف أن يعرف المركيس ما بينى وبينك فينال أولادى واهلى منه أذى فانهم عنده

تسموا الرجال بأبناء وتزدان
كم من اب قد علا بابن ذرى شرف
كما علا برسول الله عدنان

(ذكر وزارة الشيخ الجليل أبى القاسم احمد ابن الحسن الميمندى)

قد كان الشيخ الجليل أبو القاسم يلى ديوان الرسائل للسلطان أيام سالاريته بخراسان وهو الكريم نسبا * العظيم حسبا * العريق مجدا وحريه * الوثيق رايا ورويه * ينادى عليه أقطار الارض بفصاحة القلم * وسجاحة الشيم ونفاسة الهمم * واحتقار الدينار والدرهم * ودرجه وفاؤه للسلطان على تصاريف الاحوال به الى أن ولاه عرض عساكره * فى اقطاع ممالكه وزاده اعمال بست والرخج وماواالاهما بأموالها وارتفاعاتها علاوة على ماوالاه * فقام بجميع ماتولاه * فيام من وفقه الله وحداعليه جوده بنى الآمال من اطراف البلاد فوسعهم جداه * وغمرهم نداه * وكتبت لهم امانا من الفقر يداه * فأما مروأته فما يؤمن بالمعجزة الصادقة الصادعة منها الا

من شاهدها عيانا * واستفتى عدول احساسه عليها سبرا وامتحانا * وكان الوزير ابو العباس لا يصدر الا عن رايه ولا يحتشم غيره في تصاريف عزماته وانحائه * لفخامة شأنه ومكانته * المعمورة من سلطانه ووساطته * بينهما في معظم ما يزجيه ويرجيه * ويحييه ويفنيه * ويذره ويأتيه * ويقده ويفريه * ولما وهت عليه قوة أمره * وانكسرت سورة فخره * واتفق للسلطان ان يرحل نحو ناراين في الغزوة التي تقدم ذكرها استخلف الشيخ الجليل ابا القاسم على مهمات بابه * وامداد صاحب الديوان فيما يليه ويجيبه بصواب رايه * وبعثه على مواصلة الحمول وغنائه فهو متسم غير متسم بها الى ان اتفق للسلطان * استدعاء صاحب الديوان * في عمال خراسان لرفع الحسابات * وتقرير المعاملات * فنهض الى السلطان كل رئيس ومرؤس وشريف ومشروف ومستعمل ومعزول * وسمين ومهزول * قد اتخذوا الطعم

فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر انا وهم عندك ونسلم الحصن اليك ونكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ما سأل فاستقر الامر بينهما أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين ببرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب انطاكية فامر تقي الدين ابن أخيه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد المشرق ويكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وانهم قد اجتمعوا في خلق لا تحصى فانهم قد خرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا واشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع ارناط صاحب الشقيف وكان ارناط في مدة الهدنة يشتري الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن واذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدي فضيحته ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده ارناط وقد بقي من الاجل ثلاثة ايام فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده واهله وان المركيس لم يمكنهم من المجيء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالة الى من بالشقيف ليسلموه فاحضروه عنده فسارّه بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين ارناط الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال

(ذكر وقعة البزك مع الفرنج)

لما كان صلاح الدين ببرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم تركاف مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لما قصدهم فلقيهم البزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين ايضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم

(ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة)

لما وصل صلاح الدين الى البزك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة

الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب في بعض الايام في عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة انه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراءظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد عدوا ان وراءهم كمينا فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فاتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن انامو هم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله ورضي عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم في عسكره فحملوا على الفرنج فألقوهم الى الجسر وقد أخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مائة داوع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم عاد الى العسكر والمخيم

(ذكر وقعة ثالثة)

لما عاد صلاح الدين الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين فكتب الى من بعكا من العسكر واعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمناء في موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيأ من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكامنهم نحوهم مسرعين واليهم قاصدين فأتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادي ظنا منهم انه يخرج بهم الى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا انهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبور لك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فاقبلوا عليه بشروب فعوفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا الا كان له فيه الاثر العظيم

والغمض سرا ما * ووضعوا الارواح على الراح توكلا واستسلاما * ووافق وصولهم ركضة عزمها السلطان الى الهند فسبب عليهم لاذناب اهل عسكره بمبارآه ووكلهم باستخراجه في يومين لاهتمام الركض وضيق رقعة الوقت فعصبوا عصب السلم * وسلخوا سلخ الغنم * واقبلوا على جمرة الضرم * ونكسوا على الهام والقمم * حتى اعتصروها منهم عن تضاعيف اللحم والدم * وعندها صب السلطان على الشيخ الجليل خلعة الوزارة * وفوض اليه مهمات الامارة * وأمره بمحاسبات العمال * ومطالبتهم * بما صار في ذممهم * من الاموال محكما في الحل والعقد مخيرا بين الاخذ والرد وسار السلطان نحو مقصده * واقبل الشيخ الجليل على ما جعل بصدده * فهذب الامور ونظم المنثور * ووظف الاموال * وصرف العمال * وردّ صاحب الديوان ابا اسحق عملي جملته الى خراسان مستوفيا عليهم ما يلزمهم من حاصل وباق

(ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها)

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه من ان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة اعطى أهلها الامان وسيرهم اليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال مالا يفى على كثرة الانفاق فى السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البترك الذى كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الاخذ بثارا البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران على ماذكره ان شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال مالا يتطرق اليه الاحصاء (واقد حدثنى) بعض المسلمين المقيمين بحصن الاكراد وهو من اجناد أصحابه الذين سلموه الى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج فى الغارة على بلاد الاسلام والقتال معهم والسعى معهم وكان سبب اجتماعى به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة ان شاء الله تعالى قال لى هذا الرجل انه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الاكراد الى البلاد البحرية التى للفرنج والروم فى أربع شوانى يستنجدون قال فانتهى بنا التطواف الى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد ملأنا الشوانى نقرة (وحدثنى) بعض الاسرى منهم ان له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ما هذا أحد منه فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان لما خرج على ماذكره عند خروجه الى الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يموج بعضهم فى بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ماذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا اليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر فى مسيرهم لا يفارقونه فى السهل والوعر الضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلا بهم فى البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكا فى منتصفه ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع امراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها فقالوا لا حاجة بنا الى احتمال المشقة فى مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريد منهم والرأى اننا نسير فى الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المجملة فوافقهم

وعتيق وناض وقعد فى الدست كالبدر المنير * والسيف الشهير منفردا بالتدبير محتشد الروعة الملك وهيبة السرير * فلما اتفق عود السلطان الى قرارة عزه وشاهد الامور فى كنف وزارته منظومة العقود * مضبوطة الحدود * والاموال وافرة الربوع * حافلة الضروع * رسم له بأن ينصدر الى خراسان * مستنظفا ما وهى أو وهن صاحب الديوان * فى جبايته واستيفائه * وقصر أو قصر عن تبرضه وامترائه * فانصدر الى هراة وهيبته تأخذ النفوس بخنقها * وتختلج القلوب من معلقها * ويكاد ينطق له كل مال مخزون * ويلفظ اليه كل درهم مدفون * فجمع عن تسمح النفوس بما جمعته * واستكراهها عما منعته * مالا لم يسمع بمثله محمولا اذهابا وأوراقا * وعصبا رقاقا * وعلما نا رشاقا * وأفراسا عتاقا وتلاقت الرفائع * على صاحب الديوان بما ناله من صنوف المنافع * ووجوه المطامع * فساءه السلطان

وكان

وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا استقوا بالارض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق كفركنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم فلو ان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل الغياظية وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقى الدين ابن اخيه وأتاه مظفر الدين ابن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الامداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج فى البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض فلا حاجة الى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم القتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبرا حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوى أخ على أخ وانحجزوا الى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم واخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وكان فى جملة من أدخله صلاح الدين الى عكا من جملة الامراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر امراء عسكره وهو من الاكراد الخطية من بلد اربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة

(ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب)

ثم ان المسلمين تهضوا الى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم فى استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد تدموا على ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا اطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع من الوصول اليهم فالح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مراكزهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم ان الفرنج تخرج من الناحية الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان

تعصبا وتسببا وحملا الى بيت المال فاعتزل العمل ونزل عن كل ما حصل * وفزع من بعد الى خاص أملاكه وضياعه * ومواشيه وكراعه * وتجمله واثاثه * حتى حلى اثاثه بفضل ما اعتقده منها على مال مصادرته * وما جمع عليه من بقايا عمله وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة * فى الصناعة * لم يعتن بها فى سالف الايام * ولم يرض بيانه بخدمة الاقلام فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية * الى الفارسية * حتى كسدت سوق البيان * وبارت بضاعة الاجادة والاحسان * واستوت درجات العجزة والكفاة * والتقى الفاضل والمفضول على خطى الموازاة * ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل أسعد الله به جدوده الافاضل * ورد بمكانه خدود الفضائل * ورفع ألوية الكتاب * وعمر أفنية الآداب * فجزم على أوشحة ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه * وعجز عن فهم

معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فاحسن اليهم وأعطاهم الخلع

(ذكر الوقعة الكبرى على عكا)

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقى المسلمون الى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضر والرأى اننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والامداد اليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم فى حصر مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بعصريكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر كانوا لم يصلوا الطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور الى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قد توجه فى حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى ان الفرنج نحوه قاصدين حذرهو وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر عنهم فلما رأى صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين فى جناح القلب فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم كالامير مجلى بن مروان والظهير أخى الفقيه عيسى وكان والى البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين وكالحاجب خليل الهكارى وغيرهم من الشجعان الصابرين فى مواطن الحرب ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مر بهم ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو على بن رواحة الحموى وهو من أهل العلم وله شعر حسن وماورث الشهادة من بعيد فان جده عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم مؤتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم اليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون ثم ان الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن يقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم ان الميمنة وقفت مقابلتهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال باصحابهم وعادوا الى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون فقتلوهم وثاربهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم بنادبهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة صالحة فحمل بهم

تما يتعرب به عليه * فطارت توقيعاته فى البلاد ولا شوارد الامثال * وأبيات المعانى من القصائد الطوال * فتى كل نادتداه بألحانها وفى كل مشهد شهادة باستحسانها * فأما الشعر فقد نشر عليه مفوده * وسعد به جدوده * وفتق بالعذب الرواء صيخوده * فأر بابه كالعنادب تغريدا بمناقبه * والقمارى تسجيعا على الضرب الماذى فى ضرائبه * فهو بعدله فى الناس غياث ورحمه * وبفضله لأهل الفضل غمال وعصمه * وانفرد بتدبير البلاد والعباد بناء على الاساس * وحلبا على الابساس * واخافة على الايمان * ومكافأة بالاساءة والاحسان طوأسوا بجراح القلوب بمراهم الترغيب * وانكارا بمعروف العمارة سابق التخريب * واشارة على السلطان فى امور مملكته بما يفيد عاجل التوفير وآجل الثواب الغزير لا جرم انه استتبت الامور بضنائه وانسدت الثغور على آرائه وكذلك من كان على العلم ايراده واصداره وعلى

على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى. وفي جملة من أسر مقدم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظفر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان الى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فان الرجالة لم يلحقوهم وكان في جملة الاسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلما أسرن والقي عنهن السلاح عرفن انهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الاردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا ان العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بأقوامن الفرنج الاستئصال والاهلاك مرادهم على ان الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلمهم يفزعون منهم بمجاءهم الصريخ بان رحالهم وأموالهم قد نهبت وكان سبب هذا النهب ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فسار بهم أوباش العسكر وعلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها فامر بالنداء باحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والقبب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه فنفاه ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج واصلحوا شان الباقين منهم

(ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا)

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوا له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأي اتباعهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده لهلك الناس والرأي على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه الى ما يريد الله ان يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من يمكن المسلمين بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البر الى البحر ومراكبهم ايضا في البحر تحصرها وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن في الحساب وكان البرك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون انما هم معتقدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأي المشيرين بالرحيل وكان البرك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للعرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيأ وربما

البصيرة ارجاؤه وبداره *(ذكر الامير شمس المعالي قابوس بن وشمكير وما ختم به اجله وانتصاب ابنه الامير شمس فلك المعالي منوجهر منصبه ووراثته ملكه)*

قد كان ذلك الامير على ما خص به من المناقب والرأي البصير بالعواقب والمجد المنيف على النجم الثاقب *مزّ السياسة لا تستساغ كأسه *ولا يؤمن بحال سطوته وبأسه *يقابل زلة القدم *بارافة الدم *ولا يعرف في أدنى درجات العثار وان لم يقصد اليه مراد *ولم يشترك في كسبه اعتقاد *غير حر الانتقام *بحد الحسام *والتغليق *عن مركب الهام *لا يذكر العفو عند الغضب * ولا يعرف معنى السوط والخشب *ولا يرى الحبس الا ما بين الصفائح والترب *وهلك على خشونة هذا المس وصعوبة هذا البطش فلئام من حاشيته لو استبقاهم على خفة أجرامهم لكان أشبه بالجلالة *وألبق بالاصالة والعدالة فما زالت هذه حاله *حتى

كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفى فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا واحكموا أمورهم وحصنوا نفوسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد

(ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصري في البحر)

في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية وقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعهم من الرجالة الجم الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيرا وهو على عزم الزحف اليهم بالفارس والراجل ووصل بعده الاسطول المصري وقدمه الامير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج ففتحها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة فادخلها الى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول وقوى جنانهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في صفر خطب لولي العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل الى البلاد في اقامة الخطبة ففعل ذلك وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت وسبب ذلك ان صاحبها وهو الامير عيسى قتله اخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة اليهم عسكرا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه الى بغداد فاعطوا اقطاعا وفيها في صفر فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهودا وفي هذه السنة في رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون الفقيه الشافعي بدمشق وكان قاضيها وأضر وولي القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية وفيها في ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الاسدية وكان فقيها جنديا شجاعا كريما ذا عصبية ومروأة وهو من أصحاب الشيخ الامام ابي القاسم بن البرزي تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار اماما له فرأى من شجاعته ما جعل له اقطاعا وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما وفيها في صفر توفي شيخنا أبو العباس احمد بن عبد الرحمن ابن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والاصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاورا فتوفي بها وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا وفيها في ذي القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي مدرس النظامية وكان من أصحاب ابي الحسن بن الخل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

(ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وقعة الفرنج والبرلة وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج)

استوحشت النفوس منه * وانقلبت القلوب عنه * وشحنت الصدور عليه * ومالت عنه الاهواء المائلة اليه * اذ كل أحد لا يأمن العثرة * ولا يملك العصمة * ومتى كان العقاب ملحقا بالخطا اليسير صارت النفوس مجتاحه * والارواح مستباحه * والمرء من البشر * لا من ورق الشجر * فهو اذا مات * فقد فات وليس مما يعود * بعد ما عرى العود واتفق ان صاحبه كان يعرف بحاجب نعيم وهو أحد اعيان الكرا كلة * في حدود جرجان عديم الفائلة والعادية * سليم الناحية * من بين أفناء الحاشية * وكان اعتقده لضبط استراباذ وسياستها رفع اليه انه طمع في بعض رعاياها في منال * أو مال الى الانتفاع منه بمال * فأمر بقتله وتعليقه عن خيط رقبته وهو يستغيث مفصحا ببراءة الساحة * ونقاء الجيب والراحة * وقصور ما سعى به عليه لو صح اسناده عن افاتة نفسه وارافة دمه فزاد قتله في ايغار الصدور واضغان القلوب ونوامر

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا الى الخروبة لمرضه فلما برأ اقام بمكانه الى أن ذهب الشتاء وفى مدة مقامه بالخروبة كان يركب وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى البرك عندهم قليلا وان الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد ان يتجرد البرك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على البرك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فأقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

(ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول)

كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة عملوا أثمن المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر فان مثل هذه الابراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار من احراقها وأصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين من ربيع الاول فاشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها فاشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل اهله الى صلاح الدين انسانا سبح فى البحر فاعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدموا الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل اهل عكا الا أن الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يغد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده وإذن من احراق الابراج وكان سبب ذلك ان انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى انما اشتهى معرفتها وكان بعكا لامير يدعى قلمار أى الابراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيق أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند

عند ذلك أعيان العسكر على خلعه ونزع الايدى عن طاعته وكفاية النفوس شغلها بثقل وطأته * وخشونة سياسته * ووافق هذا التدبير منهم غيبته عن بروجان الى المعسكر بجناشك استبد الابهوا بها عن لفح الحرور * عند طلوع الشعرى العبور * فعمى عليه وجه الصورة * وشذ عنه علم تلك المشورة * فلم يرعه ذات ليلة غير زحام العسكر بباب القلعة التى اعتصر بها وانتهابهم أمواله * وأفراسه وأبغاله ومراميهم قسره واستنزاله * فهرق فى وجوههم من كانوا نزولا بفنائه * محامين من ورائه * حتى انكشفوا عنه صاغرين * وولوا على أعقابهم داخرين * وولوا الى جرجان * فملكوها عليه معلنين بشعار العصيان لابسين عار الكفران * وبعثوا الى الامير أبى منصور صنوجهور بن قابوس وهو بطبرستان يستحثونه على الورود لعقد البيعة له وزفاف الملك اليه فطار اليهم بقوادم العقاب استعظاما للحادثة بأبيه * واكبارا لما نفذ من المكيدة

قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يغلطوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فاجابه الى ذلك وأمر المنجنيق بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدور لا يحرق شيأ يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمر عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بمارأوا ان القدور الاولى لا تعمل بحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه خلونهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وأرسل يطلب العساكر الشرقية فأول من اتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الفرنج بعسكره وينضم اليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا ليلقاه ويقاتله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا أن القتل فى الفرنج كان اكثر منه فى المسلمين ووصل الاسطول الاسلامى سالما

(ذكر وصول ملك الالمان الى الشام ومونته)

فى هذه السنة خرج ملك الالمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من اكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد أزعجه ملك الاسلام البيت المقدس بجمع عساكره وأزاح علتهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية فارسل ملك الروم بهذا الى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده انه لا يمكنه من العبور فى بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وصاروا على أرض بلاد الاسلام وهى مملكة الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلش بن سليمان فلما وصلوا الى أوائلها ثار بهم التركمان الاريح فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون

فيه * وطمعا فى تدارك الخطب وتلافيه * فلما دنا منهم مضربه توافقوا على طاعته ان خلع أباه * وابتزازه رداء الملك ان أباه * فلم يجد فى عاجل الحال غير المداراة ضبطا لما انتشر * ورشا على ما استمر وصونا لستر الحشمة من الانخراق * وابقاء على سكر الفساد من الانبثاق * واشفاقا على البيت من الضياع * وعلى الملك من التخطف والانتزاع * وقد كان شمس المعالى قابوس لما سمع بنبأ القوم واجتماع كلمتهم على الخلع عطف بمن كان معه من رجال ومال الى ناحية بسطام ناظرا ما يسفر عنه عاقبة التحزب * وينتهى اليه ثائرة التغلب والتوثب فلما تسامعوا بنبائه حملوا الامير منوجهر على قصده * وازعاجه عن مكانه أو ردّه فسار معهم اليه مضطرا ودافعا بالشر شرا كالجمل الآنف ان قيد انقاد وان أنيخ على صخرة استناخ فلما وصل الى أبيه * أقتن له دون من يليه * من أتباعه وحواشيه * اذ قام

ما قدروا عليه وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدا والثلج مترا كما فاهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج ارسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا الى قلج ارسلان هدية وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا أردناها وانما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأذن في ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وان يسلم اليهم جماعة من امرائه رهائن وكان يخافهم فسلم اليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض اليهم فقبض ملك الالمان وقيدهم فمنهم من هلك في أسره ومنهم من فدى نفسه وسار ملك الالمان حتى أتى بلاد الارمن وصاحبها الافون بن اصطفانة بن ليون فامدهم بالاقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم سار وانحوا نطاكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره وكان معه ولده فصار ملكا بعده وسار الى انطاكية فاختلف أصحابه عليه فاحب بعضهم العود الى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال الى تمليك أخ له فعاد أيضا وسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا نيفا وأربعين الفا ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا الى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير الى الفرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها اليهم وأخذوا منهم خلقا كثيرا وماتت اكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها اياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم الا نحو ألف رجل فركبوا في البحر الى الفرنج الذين على عكا وصلوا وراء أمانا لهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا الى بلادهم ففرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قلج ارسلان يكاتب صلاح الدين باخبارهم وبعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لان أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الالمان فانه استشار أصحابه فاشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وغيرها ذلك الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض امراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخي رحمه الله يتولاها فحمل دخلها من حنطة وشعير وتبن فارسل اليه في بيع الغلة فوصل كتابه يقول لا تبع الحبة الفرد واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه ثم ان ذلك الامير قدم

دونه من خاصته رجال
يرون الموت شهدا دون
خذلانه * والروح وقفا
على على شكر احسانه * فلما
وصل اليه كفر طاعة
وخضوعا * وأسال أودية
الشؤن دموعا * وتشاكيا
صورة الحادث * وتذاكرا
حتى المورث والوارث *
وغرض الامير منوجهر
أن يكون حجابا بينه وبين
أعاديه * وان ذهبت نفسه
فيه * ورأى شمس المعالي
قابوس ان العارض قصارى
أمره * وختام عمره * وانه
أحق بوراثة ملكه وولاية
الامر من بعده وسلم خاتم
الملك اليه من يده واستوصاه
الخير به مادام في فسحة من
أمده * فتواضعا على أن
ينتقل هو الى قلعة جناشك
متفرغا للعبادة حتى يأتيه
يقينه * فيسلم له نفسه ودينه
وأن يتفرد الامير منوجهر
بتقرير الملك فريا وتقديرا
وتقديما وتأخيرا * وقدمت
اليه هدايا على هذه الجملة
فانتقل الى القلعة المذكورة
مع من رضيه لخدمته
ومعونته * على ضروب

الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا اننا ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم فلما اهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها

(ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا)

وفي هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فاخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت امدادهم ألقوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضا على الفرنج وبالغوا في قتالهم ونالوا منهم نيلا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاص الذي مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعسكر اربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الالمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والاسر وما صار أمرهم اليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بازائهم وظنوا ان الفرنج اذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهنهم وخوفا على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكندهري ابن أخي ملك افرنسيس لابيه وابن أخي ملك انكلتار لامه ووصل معه من الاموال شئ كثير يفوق الاحصاء فوصل الى الفرنج فجند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا امكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه الى الخروبة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ثم ان الكندهري نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من المسلمين فاخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكندهري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لان المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمي من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد ثم ان الفرنج كانوا ينقلون التل الى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه الى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فارسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب الى عكا فتأخر انفاذها

مصلحته * وعطف الامير منوجهر الى جرجان فولى الصدر * وضبط الامر * وأخذ يداري القوم ترغيبا وتطميعا * ويمنيهم الاحسان جميعا * وهم على جملة النفور * خيفة الشور * مادام شمس المعالي في صحة البقاء * وزمرة الاحياء * وما زالوا في الاحتيال عليه حتى فرغوا من أمره * وسلوا كما زعموا من عادية شره * ولم يرضوا به وهو في صوان الاموات حتى كشفوا عن محياه * رداء ورداه * فطابوا نفوسا * حين عدموا شمس المعالي قابوسا * ووارود في مقبرة كان ابقاها لنفسه بظاهر جرجان * على سمت خراسان ونعدا الناس في معناه كما قال مهلهل

نبئت ان النار بعدك أوقدت
واستب بعدك يا كليب المجلس
وتفاوضوا في أمر كل عظيمة
لو كنت شاهدهم بجانب يئسوا

وعقد الامير منوجهر المأتم ثلاثة أيام على رسم الجيل في حسر الرؤس * وضرب النفوس * ورفض المنام * وهجر الطعام ولما قضى ايام المعزى نبي المقبور

فسير الى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم و رفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون واتسعوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها الى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده و يعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمهم بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

(ذكر خروج الفرنج من خنادقهم)

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجند لهم الكند هرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها و يقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل اثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد اليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الالمان والتقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى والظافر يمايلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون و يلتحم القتال فيكون الفصل و يستريح الناس وكان الفرنج قد تقدموا على مفارقة خنادقهم فلزموا أماكنهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجالشية فى اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وانما لله أمر هو بالغه فلما بلغ الفرنج خنادقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطارد والهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة اكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون اليهم الطعام من البلدان منهم الامير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين على بن أحمد المعروف

واستوثق على البيعة السرور
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا *
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولما سمع القادر بالله أمير المؤمنين بخبر شمس المعالى واستئثار قضاء الله به خاطب الامير منوجهر معزيا ومسليا * ولقبه بفلك المعالى مشرفا ومحليا * وعزم الله له على الصواب فى اختياره * والرشد فى ايثاره * ففزع الى السلطان يمين الدوله * وأمين الملة * معتصما بحبله * معتصرا بظله * مستظهرا بطاعته * مستنصرا فى مشايعته * مستغشيا رداء عنايته * متلافيا وهن المصاب بقوة أشباله و رعايته * وأنهض عدة من ثقات بابه بمبار موفوره * ونفائس مذخوره * ورسائل على صدق الاخلاص وصفو الامحاض مقصوره * فصادف ما رجاه رغبة فى موالاته * وحرصا على تقمص مرضاته * وتردد السفراء على رباية هذه الحال * وتوكيد عقدة الوصال * واحتكم السلطان عليه فى اقامة الخطبة له

بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها ولولا ذلك لهلكوا جوعا خصوصا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم تهيج البحر

(ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت)

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لانهم لم تمكن من المبنا فسيروها الى بلادهم صور والجزائر فانقطع الطريق الى عكا في البحر فارسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فامر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر اخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا اذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فاحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الامن سابح يأتي بكتاب وكان من جملة الامراء الذين دخلوا الى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية بعد جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فانهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل فكان الامر بالضد

(ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها)

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب اربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي قال جئنا الى مظفر الدين نعزيه باخيه وظننا به الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فاذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه وهو جالس في خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم ويجعل عليهم وما أغفلهم منهم بلداجي صاحب قلعة خفتيذ كان وأرسل الى صلاح الدين يطلب منه اربل لينزل عن حران والرها فاقطعه اياها وأضاف اليها شهرزور وأعمالها ودربند قرابلي وبني قنجاق ولما مات زين الدين كاتب من كان باربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه اليهم ليملكوه فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الاسباب في تركها ان عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من اربل ثم ان عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه انسانا كان من بعض علمان مجاهد الدين فكان يشاركه في الحكم ويحمل عليه ما يعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب الى اربل قال لمن يثق اليه لا أفعل لئلا يحكم فيها

على منابر ولاياته * امتحانا لصدوقة عقده في موالاته وأنهض اليه اياه محمد الحسن ابن مهران أحد ثقاته * بما رأى اصحابه من نفائس خلعه وكراماته فصادف منه قريبا مجيبا وسميعا مطيعا وأمر باقامة الدعوة باسمه على منابر جرجان وطبرستان * وقومس ودامغان * والتزم في السنة خمسين ألف دينار اداوه * وعلى حكمي الطاعة والاخلاص علاوه * واستدعى السلطان على تقشة ذلك وقد عزم على غزوة نار ابن انجاد حشمه بطائفة من الجيل والديلم يحسنون حروب المضايق * ويغشون غشاء السكاة المبطارق * فسرب اليه ألفي رجل من خلص الجيلين ان راموا الوعور فوعور * أو قصدوا السهول فسهول * وقد أمر باراحة علالهم في أعطياتهم * ونصب لهم من يقيم أود حاجاتهم * ويطلق لهم مدة الحاجة الى غنائهم * واجب أرزاقهم وابتحفاقاتهم * فلما استحق باثاره في القربه * تمزيد الرتبه * وبمساعيه

فلان ويكيدى عنها فجاء مظفر الدين اليها وملكها وبقى غصة فى حلق البيت الا نابكى لا يقدرون على اساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين)

فى هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الاندلس مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين بالاندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك الى الامير أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس فتجهز فى العساكر الكثيرة وسار الى الاندلس وعبر المجاز وسير طائفة كثيرة من عسكره فى البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى ذلوا وسألوا الامان فأمنهم وسلموا البلد وعادوا الى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وفتكوا فى الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف الى مراكش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم اظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة فتحركوا وسنذكر خبرهم هنالك ان شاء الله تعالى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان)

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض الى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكى الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه الى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة فبقى يتردد بين بلاد الطالقان وبنجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه فلم يزل كذلك الى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافوا واقتتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد الى غزنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير اليها جيشا حصروها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الاقوات سلموها على اقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها الى بغداد واعطوا اقطاعا ثم تفرقوا فى البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وانه يتعرض بالسؤال الى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفى هذه السنة توفى مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة وفيها توفى أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى بالموصل كان قاضيا وقبلها ولى قضاء حلب وجميع الاعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروأة عظيمة يرجع الى دين واخلاق

(ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار اتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر لحصرها وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو ابن أخى عز الدين وكان سبب حصره ان سنجر شاه كان كثير الاذى لعمه عز الدين والشناعة عليه

فى الطاعة قضاء الحاجة أنهض رئيس جرجان أبا سعد الجولكى المقدم فضلا وأدبا * المحتشم حسبا ونسبا * لاقتضاء مزيد الحال بوصله تقوم الكفاة بحظها عنده والطاعة باستيجابها له فنهض فى خفارة الادب تهديه * وكفالة الرفق فيما يذره ويأتيه * ولم يزل يأتى الامر من بابه ويستطلع المراد من جنابه * حتى أسمعت قرونة السلطان لما استدعاه * وأوجب الاسعاف بما توخاه * ولما انكفأ الفاضل أبو سعد وراءه بصورة الايجاب * وما صادفه من هزة الجد للاطلاب جشمه الامير فلك المعالى معاودة الحضرة مع القاضى بجرجان وهو شيخ العلم وراوية الحديث ورضيع أخلاف التدريب والتجريب * لتنجز النجاح * وتأريب عقدة النكاح * فنهضا الى حضرة السلطان مقيمين رسم الخدمة * وخاطبين ضم السدى الى اللحمة * فرأى السلطان تحقيق مبذول العدة *

والمراسلة الى صلاح الدين فى حقه تارة يقول انه يريد قصد بلادك وتارة يقول انه يكاتب اعداءك ويحثهم على قصدك الى غير ذلك من الامور المؤذية وعز الدين يصبر على ما يكره لامور تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها الى صلاح الدين فلما كان فى السنة الماضية سار صاحبها الى صلاح الدين وهو على عكا فى جملة من سار من أصحاب الاطراف واقام عنده قليلا وطلب دستورا للعود الى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من اصحاب الاطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها وهو اكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى قصدت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت الى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجرشاه لانه ظلمهم وأخذ اموالهم واملاكهم فكان يخافه لهذا ولم يزل فى طلب الاذن فى العود الى البلاد الى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء الى خيمة صلاح الدين وأذن لاصحابه فى المسير فسار وا بالاثقال وبقى جريدة فلما وصل الى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الاذن وكان صلاح الدين قد بات محموما وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقى كذلك متردد ا على باب خيمته الى أن اذن له فلما دخل عليه هناه بالعيد واكب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف وكان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة فى عسكره فكتب اليه صلاح الدين يأمره باعادة سنجرشاه طوعا أو كرها فحكى له عن تقى الدين انه قال ما رأيت مثل سنجرشاه لقيته بعقبة فيق فسألته عن سبب انصرافه فغالطنى فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ الى قولى فكلمنى كأنى بعض مماليكه فلما رأيت ذلك منه قلت له ان رجعت بالتى هى أحسن والا أعدتك كارها فنزل عن دابته وأخذ ذيلى وقال قد استجرت بك وجعل يبكى فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد معى فلما عاد بقى عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين الى عز الدين اتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وانه يرسل الى طريق سنجرشاه ليقبض عليه اذا عاد فخاف عز الدين ان صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد فلم يفعل شيأ من ذلك بل أرسل اليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فتردد الرسل فى ذلك الى أن انقضت سنة ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين الى الجزيرة فحصرها اربعة أشهر وأياما آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين فانه كان قد أرسل بعد قصدها يقول ان صاحب سنجار وصاحب اربل وغيرهما قد شفعا فى سنجرشاه فاستقر الصلح على ان لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجرشاه نصفها وتكون الجزيرة بيد سنجرشاه من جملة النصف وعاد عز الدين الى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول ما قبل لى عن أحد شئ من الشر فرأيته الا كان دون ما يقال فيه الا سنجرشاه فانه كان يقال لى عنه أشياء استعظمتها فلما رأيته صغر فى عينى ما قيل

(ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومصيره الى خلاط ومونته)

وعصيان سلطان النفس طاعة لرب العزة * وفلذ للامير فلك المعالى فلذة من كبده * وسمح له بزهرة الارض من نجوم ولده * وأى نجم كان فى فلك المعالى مداره * أنى وبدار النجوم الافلاك * وأزواج الملوك الاملاك * وجرى من الاستبشار باتحاد النفوس والديار * وصب النثار * وصوب المبار * كالغيوث الغزار * ما أرخ به كتاب الدهر * ووسم بذكره سالفة العصر * وعاد الرسولان بدرك النجح الموقوت * ولا السعدان يقترنان فى الحوت * وعندهما تكاف الامير فلك المعالى حرمة للقربى * وتحفة بين يدى النجوى * مالا تبين من رآه على اختلاف أصنافه * واغراب نقوشه وأوصافه * أن له همة الى قمة الجوزاء مرفوعه * ونية على صدق الولاء مطبوعه * ولم يبق أحد من أركان الدولة وحواشيها * والراتعين حول مراعيها * من لم يضرب بسهم من سهام اللطف * ولم يشترك فى البر المعقود بالشرف * لاجرم ان

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام الى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه اياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من ظفر الدين مضافا الى ما كان له بالشأم وقرر معه انه يقطع البلاد للجند ويعودوهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار الى ميافارقين وكانت له فلما بلغها تجدد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حاني من ديار بكر فحصرها وملكها وكان في سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكمر صاحب خلاط بملكه حاني جمع عساكره وسار اليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم وكان بكمر قد قبض على محمد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه في قلعة هناك فلما انهزم كتب الى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار الى خلاط فحصرها ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الامر طلبوا منه المهلة اياما ذكروها فاجابهم اليها ومرض تقي الدين فمات قبل انقضاء الاجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتا الى ميافارقين وعاد بكمر قوي أمره وثبت ملكه بعد ان أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فان ابن رشيق نجا من القتل وبكمر نجا من أن يؤخذ

(ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر الى عكا)

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان اول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من اشرف ملوكهم نسبا وان كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله اليها ثاني عشر ربيع الاول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وانما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى الامير اسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج الى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب ايضا صلاح الدين الى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها اسبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الاولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من على عكا من الفرنج فوصل اليهم في خمس

السلطان أعز حومة قرباه
وجزاه * عما سمحت به يمناه * وأفرد كل واحد منهم
ومن قواد جيوشه وأفراد
رجاله بخلع علت اجانب
الملوك في شريطة
الجود * والسماحة
بالموجود * وتقصى الجد
بعفو الرأي دون الجهود *
فأما ما صحب درة الصدف *
وياقوتة الشرف * فمال
طال عهد الدهر بمثله
مجموعا في مكان * محمولا من
خراسان ولاغرو فالشمس
تبقى البدور نورا * والبحر
يدع الخلج مسجورا * وقد
كان الامير فلك المعالي بعد
ان استتب له امره واشتد
بمظاهرة السلطان ظهره *
دمر على اعيان عسكره
المشتركين في دمايه فصدع
ذات بينهم بوجوه الحيل *
وأنواع من العلل * حتى
اباد خضراءهم * وسقى ظماء
الارض دماءهم واحص ابن
خركاش وهو القريب
العاق * والنسيب المشاق *
بالداهية الدهياء فانسل
تاتها * بين سمع الارض
وبصرها * تأباه الرعان
والاباطح * وتلفظه القبعان

وعشرين قطعة كبارا وملؤه رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها ولما وردت الاخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك الفرنج بمصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من انخلاص نزل مقدم من بها الى أسفلها وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها واستعان الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر ففرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا ومازالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع

(ذكر ملك الفرنج عكا)

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول من دخل على من بالبلد أن الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أشهلهم وأكبرهم فخرج الى ملك فرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فأجيبه الى ذلك فعاد علي بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا واهتموا بأنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبوا في شيء صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين ارسلان الاسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج ارسلوا الى صلاح الدين في معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فارسل الى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم الى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه واظهروه فلما عجز الناس من حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بجدهم وحديدهم فظهروا من البلد على سوره يحركون اعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي العلامة اذا اختبروهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو في أولهم وكان الفرنج قد خندقوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى

والعصاصع * فهو حامس جانب القرار * طالبته هامة الماضي بالثار * فهام على وجهه ولا فقيد تقيف بين تشريق وتغريب * وتصعيد وتصويب * وكان أحد من أثار ذلك الشر على شمس المعالي قابوس على ما تساندت به الاخبار ابو القاسم الجعدي وكان صاحب جيشه فانحدر الى رأس الحد كانزه على قفا زيري كل صيحة عليه * وكل حشيش سهم اقوامس بين جنبيه * فأمهله فلك المعالي زمانا * حتى ظن ان له دون شؤن الآخرين شانا * ثم اطياه بتطميعه وترغيبه حتى اعلقه حبالة الاقتناص * وآيسه من الطمع في الخلاص * وان لله حكما في امور عباده معلقا بآماد معلومه * وغايات محدوده * فليس قبلها مستقدم لما تأجل * ولا بعدها مستأجل لما تعجل * فاحتال ابو القاسم حتى انسل هاربا * واعتسف البيد جانبا ثم جانبا * ومازال على حاله واحتياله حتى ورد نيسابور يفتن ويعض

المنطوب ان صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخرج من فيه باموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الامان له انما يخرج ما يصل اليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا بان لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لانا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا نحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من اصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى دمشق

(ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها)

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على الميزنة ذلك اليوم الملك الافضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جوردبك وعدة من شجعان الامراء فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة وأرسل الافضل الى والده يستقدمه ويعرفه الحال فامر العساكر بالمسير اليه فاعتذروا بانهم ما ركبوا اباهبة الحرب وانما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الالمان كلتا الى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بتلين قريبة بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض

الظن اثم ان انقطاعه الى السلطان * يمين الدولة وأمين الملة * على نغل دواخله * وارتهانه بسالف فعله وقابله * مع ما تعهد في ذات البين من عقود * وتأكد من عهود * واشترك فيه من طارف وتلود * يحل عنه عقال آثامه ويكف عنه ما حق عليه من بأس الله وانتقامه * كلا ان سوء الفعل خذول * والقائل لا محالة مقتول * وشر المحن ما أومض بالخلاص قبل ابانه * واستفاء مدة النضج على بحرانه * انه ايوهم الفكاك * ثم يعتب الهلاك * كالهرة تطمع الفأرة في الخلاص حتى اذا كانت منها على غلوة * لحقتها بعدوة * لا جرم ان السلطان لما أنهى اليه صورة حاله * ومن قبل ما سمع بسوء فعاله * أمر برده وراءه في عقاله * ولقد أحسن ابن الرومي في مقاله * الخير مصنوع بصاحبه

فمتى فعلت الخير أعطيكا
والشر مفعول بفاعله
فمتى فعلت الشر أعطبكا

(ذكر داراه بن شمس المعالي قابوس بن وشمكير)

قد كان دارا ابن قابوس بعد استثمانه من جانب ابي علي محمد بن محمد بن سيجور الى الامير نوح بن منصور الرضي مقيما على خدمته * سهيما في نعمته * الى أن فتح الله على أبيه جرجان وطبرستان فانحاز اليه مستغنيا بخدمته عن خدمة غيره وصادف من الاشغال والاقبال ما اقتضاه حكم الابوة والبنوة ثم حدره شمس المعالي الى طبرستان فأقام بها سادا دون مخالفيه * وذماما على اوليائه وموالية * واستنهضه منها على قرفة ألقيت اليه فأتاه وهو باستراباذ يريه صحة أديمه * واستواحديثه بقديمه * فأحسن استقباله وانزاله ثم دعاه في وقت ارتاب به فركب على قصد مجلسه ثم عطف عطفة الليث الخادر نحو خراسان بين غياض تشكو الاراقم بينها ضيق المجال والمضطرب وصعوبة المذاب والمشرب * واستصحب من رافقه ووافقه من علمائه وأهل الثقة به الى أن عرف شمس المعالي خبره * واستركب

ما هلك من الخيل ثم سار وا الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لان صلاح الدين كان قد أقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله بمن قتلوا من كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقوهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فقتلوا منهم قتلا كثيرا ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريبا منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم فاوقع بهم المسلمون الذين كانوا في الترك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم سار وا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة الحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على احد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثيرا والتجأ المنهزمون الى القاب وفيه صلاح الدين فلما علم الفرنج انها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك اصلاح الدين اسمه ايازا الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بايديهم ثم سار الفرنج الى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بارسوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم الى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا بالامس واذا جاء الفرنج الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لتنزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قد قوي باخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد الى ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض اولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب اهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا امكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده الى مدينة صور وهي له وبيده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل الى ملك انكلتار يقول له مثلك لا ينبغي أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو انني معك كانت عسقلان اليوم بايدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة الدوية في مدة مقامه لتخريب

عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين الى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وترر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفي هذه الايام خرج ملك انكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك انكلتار يؤسر فقداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها ايضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون

﴿ذكر رحيل الفرنج الى نطرون﴾

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته الى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك انكلتار يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب اخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن انكلتار يزوج أخته من العادل ويكون القدس وما بايدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لاخت انكلتار مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجاب اليه فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان الى أخت انكلتار وأنكروا عليها فامتنعت من الاجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم وكان العادل وملك انكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فاحضره مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك انكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة جريدة وترك الاثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى النطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالالقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما

﴿ذكر مسير صلاح الدين الى القدس﴾

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بكارها فاذن لهم في العود الى بلادهم للاستراحة والاراحة وسار هو الى البيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا جميعا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بدار الاقصى مجاورا ربعة قمامة وقدم اليه عسكر مصر مقدمهم الامير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمون في وقعة منها بضعا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما ثرث منه فاحكم الموضع الذي ملك البلد منه واتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج الى أمير يتولى عمله فعمل

لاقتناصه عسكره * ياقد طار به الركض * وحالت دون منساله الارض * ولما شافه حد خراسان رفرفت الأمنة عليه بجناحها الى أن ورد حضرة السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * فقبله أحسن قبول * ولقاه حسن مقبول ومفعول * وما زال يرفع به تمويلا وتخويلا * وتفخيما وتبجيلا * حتى اغتره فضل الانبساط وعز الانتساب بما هذه قربته * وهدم رتبته * فاستوحش من عارض الاعراض * وأشفق من رهق التغير والانقباض * فلاذ بظل الليل هربا * وبات يطوي الارض تقريبا وخببا وأمر السلطان بطلبه * واتباعه في وجهه مهربه * فالحق به حيث قامت الخيول تعبا * ولم تجد السيوف عليه مضربا * ففر هو وملتجئا الى الشار المعروف بالشاه لحال بينهما في الصفاء معمورة * وأصول وذبا لوفاء مأمورة * فلما استقر به المكان * وخبر حاله السلطان * كتب اليه فاسترده * وخوفه أن يأتي عليه ما بعده * فاضطر الى رده واسلامه عن يده * وبقي في

ولده الافضل من ناحية باب عمود الى باب الرحمة و رسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الحاصبين لهم فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجا وبدنة وكذلك جميع الامراء ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الاماكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام

﴿ذكر عود الفرنج الى الرملة﴾

فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج الى الرملة وكان سبب عودهم انهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فانى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فاخبر انه عميق وعر المسلك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لانا ان نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع احدى الطائفتين ولم يمكن الطائفة الاخرى انجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى أن يتخلصوا من الوادى و يلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يمنعنا من ايصال ما يحتاج اليه من العلوفات والاقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين

﴿ذكر قتل قزل ارسلان﴾

فى شعبان من هذه السنة قتل قزل ارسلان واسمه عثمان بن ايلدكز وقد ذكرنا انه ملك البلاد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران واذربيجان وهمذان وأصفهان والرى وما بينهما واطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله فى بعض القلاع ودانت له البلاد وفى آخر أمره سار الى اصفهان والتقى بها متصلة من لدن توفى البهلوان الى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من اعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس ثم انه دخل ليلة قتل الى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنا وتخمينا وكان كريما حسن الاخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع الى الحق وقلة عقوبة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين فى رمضان وكان سبب قدومه ان والده عز الدين قلج ارسلان فرق مملكته على اولاده واعطى ولده هذا ملطية وأعطى ولده قطب الدين ملك شاه سيواس فاستولى قطب الدين على أبيه وحجر عليه وأزال حكمه والزمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها اليه فخاف معز الدين فسار الى

الحبس مدة يكابد بؤسا وشدة الى أن وجد فرصة الانفصال * عن رق العقال * ففارق معتقله من حيث لم يطمع فيه أحد * ولم يكن ليغنى عنه لولا المقدور رأى ولا جلد * وأبت عليه فجاءة المحنة أن يتم خلاصه * و يستتب مناصه * فأعثرت عليه حتى أعيد فى وثاقه * وزيد فى ارهاقه * الى أن شرح الله صدر السلطان لاطلاقه * فأنشأه نشأة ثانية * وأنبت ريشه قادمة وخافية * وأعاد حاله بالاحسان حالية * ويده على أيدى الاضراب عالية * ووجهه لولاية جرجان وطبرستان معضودا بأبى الحرث ارسلان الجاذب وذوى النجدة من كماة الرجال * وكفاة الابطال * لولا ان الامير فلك المعالى منوجهر سبق تمام الرأى باظهار الطاعة * وعرض ما وراء الوسع والطاقة * ولما حالت حرمة التقرب دون الاستبداد عليه واسترده السلطان الى حضرته * فجرى مجرى أركان دولته * واخذ ان عشرته لا يفارقه فى حفلة * ولا يزايله فى خلوة * ولا

صلاح الدين ملتجئا اليه معتضدا به فاكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة اخيه الملك العادل فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين الى ماطية فى ذى القعدة وحدثنى من اثق به قال رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه ابن عز الدين صاحب الموصل قال فعجبت من ذلك وقلت ما بالى يا ابن أيوب أى مونة تموت بركبة ملك سلجوقى وابن أتابك زنكى وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر امراء صلاح الدين أيضا وفى رجب توفى الصفى بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم فى جميع بلاده

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)

(ذكر عمارة الفرنج عسقلان)

فى هذه السنة فى المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا فى عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس فسار ملك انكلتار بجريدة من عسقلان الى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد اتصف بعضهم من بعض وفى مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج فتارة توقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم مافيها

(ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى)

فى هذه السنة فى ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ان أرسل من يقتل ملك انكلتار وان قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلتار ولم يرم سنان مصلحة لهم لئلا يحلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشرع فى أخذ المال فعدل الى قتل المركيس فارسل رجلين فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة فانس بهما المركيس ووثق اليهما فلما كان بعد التاريخ عمل الاسقف بصور دعوة للمركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفى فيها فاتفق ان المركيس حمل اليها ليشد جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله الى وضع من ملك انكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وابن أخت ملك انكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك انكلتار وعاش الى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال ولما رحل ملك انكلتار الى بلاده أرسل هذا كندهرى الى صلاح الدين يستعطفه ويسترضيه

يقعد عنه فى وقت ركوب * ولا يتردد دونه بكوز وركوب * الى أن ورد الامير ابو الفوارس ابن بهاء الدولة حضرة السلطان منزعجه عن كرمان لقصد عسكر اخيه اياه مستظهرا به على معاودة مملكته * وارتجاع بيته ونعمته * فجمعهم ليلة مجلس دارت فيه الكؤس * وطابت النفوس * وجرى حديث الخلف والسلف * واعراق من أعرق منهم فى الشرف * فنطق دارا بما لو سكت عنه لكان أشبه بحق الخدمة وحكم الحشمة ووقت الاجتماع على ارضاع العشرة * وحمله من الانكار عليه على قصد المراتة * وركوب المحاقة * حتى تأذى به الامير الى ازعاجه عن مكانه * واشجانه بغصة المدل على سلطانه * وأمر به فى غد فرقة فى العقال وحمل الى بعض القلاع وقبض على ضياعه فأجريت مجرى الحوزيات تستغل اسوة سائرها الى أن سأل الشيخ الوزير فى بابه فأمر بردها عليه معونة له على مصلحة حاله * ومؤنة اعتقاله * وذلك

يطلب منه خلعة وقال أنت تعلم ان لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك فانفذ اليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا

(ذكر نهب بني عامر البصرة)

في هذه السنة في صفر اجتمع بنو عامر في خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة وكان الامير بها اسمه محمد بن اسمعيل بن يوبه من مقطعي الامير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا اليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الامير محمد فيمن معه من الجند فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة ودام القتال الى آخر النهار فلما جاء الليل ثلم العرب في السور ثلمة ثم دخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطئ وبعض محال البصرة وعبر أهلها الى شاطئ الملاحين وفارق العرب البلد في يومهم وعاد أهله اليه وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد انهم بلغهم ان خفاجة والمنتفق قد قاربوهم فساروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا الى البصرة بكرة الاثنين وكان الامير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهزموا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القوافل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها اليها وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم

(ذكر ما كان من ملك الكلتار)

في تاسع جمادى الاولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لاجل الشتاء ويستريحوا وليحضر البلد عوضهم وسار بعضهم مع ولده الافضل وأخيه العادل الى البلاد الجزرية لما نذكره ان شاء الله تعالى وبقي من حلقته الخاص وبعض العساكر المصرية فظنوا انهم ينالون غرضا فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق ابراج البلد على الامراء وسار الفرنج من بيت نوبة الى قالونية سلخ الشهر وهي فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا قبل الفرنج منهم بما لا قبل لهم به وعلموا انهم اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم أسرع وانه تسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سريعا من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى

(ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل)

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الناصرة وصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير وتقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة من الامراء فاسرى الفرنج اليهم فواقعهم بنواحي الخليل فانهزم الجند ولم يقتل منهم أحد من المشهورين انما قتل من الغلمان والاصحاب وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم وأما القفل فانه أخذ بعضه وصعد من نجا جبل الخليل

في المحرم سنة تسع وأربعمائة

(ذكر مجد الدولة وكهف الملة أبي طالب رستم بن فخر الدولة) قد كان فخر الدولة كتب الى حسام الدولة أبي العباس تاش وهو بجرجان منحدره اليها من خراسان على لسان الصاحب يبشره بولادته واجراء الله اياه في الصنع له على كريم عادته وكان مما كتب به وقد رزقني الله به تعالى ولدا كنيته أبا طالب طلبا للسلامة في مدته وسميته رستم لانه من أسماء أصابه وأرومته فلما اخترمته المنية بايع الناس مجد الدولة الا أن التي قامت عنه كانت أختا للاصبهبذ بقريم وسائر مملكة الجيل وهي في منعة من أهلها وعزة من جانب أرضها فملكت على الديلم واستأثرت بالامر والنهي والحل والعقد وجرت بينه وبينها مكاتبات تأدت بها الى امتناض بدر بن حسنويه اليه واستلاله الرى عليه وجرت بينهم مناوشات أفضت بالديلم أولا وبأهل الرى ثانيا الى

فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاوقعوا عليهم ونمزق من نجا من القفل وتقطعوا واقواشده الى أن اجتمعوا وحكى لى بعض أصحابنا وكنا قد سيرنا معه شيأ للتجارة الى مصر وكان قد خرج فى هذا القفل قال لما وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمالنا للسير فحملوا علينا وأوقعوا بنا فضربت جمالى وصعدت الجبل ومعى عدة أجمال لغيرى فلحقنا قوم من الفرنج فاخذوا الاجمال التى فى صحبتى وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم فلم يصلوا الى فنجوت بما معى وسرت لاأدرى أين أقصد واذا قد لاح لى بناء كبير على جبل فسألت عنه فقيل لى هذا الكرك فوصلت اليه ثم عدت منه الى القدس سالما وسار هذا الرجل من القدس سالما فلما بلغ بزاعة عند حلب أخذه الحرامية فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة

(ذكر سير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة)

قد تقدم ذكر موت تقى الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة فلما استولى عليها أرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافا الى ما كان لابيه بالشام فلم يرصلاح الدين ان مثل تلك البلاد تسلم الى صبى فما أجابه الى ذلك فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج فطلب الافضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين وينزل عن دمشق فاجابه الى ذلك وأمره بالمسير اليها فسار الى حلب فى جماعة من العسكر وكتب صلاح الدين الى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرهم يأمرهم بانفاذ العساكر الى ولده الافضل فلما رأى ولد تقى الدين ذلك علم انه لا قوة له بهم فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله اصلاح حاله مع صلاح الدين فانهى ذلك الى صلاح الدين وأصلح حاله وقرر قاعدته بان يقرر له ما كان لابيه بالشام وتؤخذ منه البلاد الجزرية واستقرت القاعدة على ذلك وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية وهى حران والرها وسميساط وميافارقين وحانى العادل وسيره الى ابن تقى الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره الى صلاح الدين ويعيد الملك الافضل أين أدركه فسار العادل فلحق الافضل بحلب فاعاده الى أبيه وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقى الدين وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقى الدين معه وعاد الى صلاح الدين بالعساكر وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السنة

(ذكر عود الفرنج الى عكا)

لما عاد الملك الافضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقى الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج انهم لا طاقة لهم بها اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها فى عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضا الفرنج فى مسيرهم نحوها فسار الى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فاقام هنالك ينتظر مسير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها

(ذكر ملك صلاح الدين يافا)

بؤس وفاقه ودمله مهراقه * وفتن ليس فيها قدر فواق من افاقه * وعن قريب يعود الخلاف جذعا * وحبل الصلاح منقطعا * فينتج عنه ابادة الرجال * واستباحة الاموال * وشرود الصلحاء فى البلاد * وضراوة السفهاء بالافساد * ولما فرض مجد الدولة بالامر وبما ينقدح على الدوام من شر الشر * آثر البر فى الاعتزال عن سمة الامارة وحمله الاعتراف لها بالطاعة على ترك العقوق المفضى بمن تحت ولايته وبجايته الى خطة الاحتناك * المشفى بهم على خطة الاجتياح والاستهلاك * فلزم البيت منفردا بالكتب والدفاتر * ومبيضا وجه الفضل بسواد المحابر وانفرد أخوه شمس الدولة بولاية همذان وقرميسين وما والاها الى حدود بغداد وورث بدر ابن حسنويه أمواله العظيمة طالما حفظتها صدور القلاع مكتومه * وخفقتها خيوط الاكياس مختومه * فلم يلبث الا قليلا حتى استغرقتها صلات الرجال *

لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيره فسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم وقد ذكر ذلك وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا ثم زحفت العساكر الى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الامان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذي لهم ومعه عدة من اكابر الفرنج في ذلك وتردد وا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما اصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا واذ قد وصلهم نجدة من عكا وادركهم ملك انكلتار فأخرج من بيافا من المسلمين وأتاه المدد من عكا وبرز الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه احد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل اكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم فتقدم اليه بعض امرائه يعرف بالجناح وهو اخو المشطوب بن علي بن احمد الهكاري فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالجماقات يتقدمون فيقاتلون اذا كان القتال فحسن واذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما مقدرة ونزل في خيامه واقام حتى اجتمعت العساكر وجاءه ابنه الافضل واخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم الى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها

(ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق)

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول ايلول وسبب الصلح ان ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين الى ما طلب ظنا منه انه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فاعاد الفرنجي رسله مرة بعد مرة وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل الى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجي انما طلب الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر فتحتاج نبقى ههنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين واكثروا القول له في هذا المعنى فأجاب حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس فلما حلف صلاح الدين قال له ما عمل أحد في الاسلام ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فانا أحصينا من خرج البحر في المقاتلة

واستنفدتها حقوق الآمال * شيمة له في التحقق بالفضل * والتخرق في البذل * وقد كان ابن فولاذ خم في دولة آل بويه أمره * وارتفع قدره * وانتشر صيته وذكره * والتفت عليه صناديد الديلم ومشاهير الاكراد والعرب فسأل مجد الدولة والكافلة بالتدبير أن ينزلا له عن قزوين طعمة له ولمن معه ليتقوى بولايتها وجبايتها وكان من اركان دولتهما * وظهرا من ظهور سورتهما * يذب عنهما بسيفه وسنانه ويقيهما بنفسه ومهجته * خطب أودخن على ناره حطب رطب * فضاق عليه بها الضيق رقعة الملك وبكوره درة الدخل وادلى اليه بظاهر العذر فقصد أطراف الري على جمله العصيان يفسد ويغير * ويقطع دون أهلها السبيل من يسير * وملك عليهما ما يلي جانبه من قرى وضياع * وريع وارتفاع * الى أن استعانا بالاصبهبذ المقيم بخوم فأتاهما في رجراجة فخمة من الجيلية * أولى البأس والجبه * فناوشوه القراع *

فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة الى بلادها وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج والبلاد التى بأيديهم الكندهرى وكان خيرا لطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم وتزوج بالملكة التى كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه وأما صلاح الدين فانه بعد تمام الهدنة سار الى البيت المقدس وأمر باحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه فلم يمكنه ذلك فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جورديك وهو من المماليك النورية ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الاسلامية كبابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر باحكامها فلما كان فى بيروت أتاه بيمند صاحب انطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين الى دمشق فدخلها فى الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام

(ذكر وفاة قلج ارسلان)

فى هذه السنة منتصف شعبان توفى الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقى بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا اليه وحجر عليه ولده قطب الدين وكان قلج ارسلان قد استناب فى مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غلب قطب الدين على الامر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به الى قيسارية ليأخذها من أخيه الذى سلمها اليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد الى قونية واقصرا فملكهما ولم يزل قلج ارسلان يتحول من ولد الى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى الى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلو فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار معه الى قونية فملكها وسار الى اقصرا ومعه والده قلج ارسلان فحصرها فمرض أبوه فعاد به الى قونية فتوفى بها ودفن هناك وبقى ولده غياث الدين فى قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وقد حدثنى بعض من أثق اليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره قال ان قلج ارسلان قسم بلاده بين أولاده فى حياته فسلم دوقاط الى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية الى ولده كيخسرو غياث الدين وسلم انقرة وهى التى تسمى انكورية الى ولده محيى الدين وسلم ملطية الى ولده معز الدين قيصرشاه وسلم ابلستين الى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية الى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس واقصرا الى ولده قطب الدين وسلم نكسار الى ولد آخر وسلم اماسيا الى ولد أخيه هذه أمهات البلاد ويضاف الى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه ثم انه ندم على

وصدقوه المصاع * وجرت بينهما فى دفعات ملاحم استلحمت كثيرا من الفريقين وأصاب ابن فولاذ فى ساقه نشابة أثخنته فولى فيمن تبعه الى سمت الداماغان حتى ألم بها فرم الرث * وعالج المرتث * وكتب الى فلك المعالى منوجهر يستمده على عسكر الرى على أن يقيم له الخطبة ويظهر الطاعة ويلتزم الاتاوة فأمده بألفى رجل يوزن آحادهم بالآلاف * وأفرادهم بالاضعاف * يرون الشرف فرضا لمن مات تحت المشرفيات * والتثريب حقا على من حاد عن البثريات * ووصل جناحهم بمال قضى به حق انقطاعه اليه * واعتماده عن ظهر الثقة عليه * ونهض نحو الرى حتى أناخ بظاهرها فأعاد الاغاره * ومنع المائرة والماره * وغادر الديلم فى ضنكة البلاء * وضيقة اللأواء * حتى اضطر مجد الدولة ومن وليت التدبير الى ايثاره بأصبهان فعقد له عليها وخلى بينه وبينها استمالة لقلبه * واستعاذة من شره * فطارت عند ذلك نعرة

ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الاكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فصار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة ثم ينتقل الى الآخر ثم انه مضى الى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج اليه واقيه وقبل الارض بين يديه وسلم قونية اليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو أريد أسير الى ولدي الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجيء أنت معي لآخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فرض قلج ارسلان وتوفي عليها فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلاد التي بيده وكان قطب الدين صاحب اقصرا وسيواس اذا أراد أن يسير من احدى المدينتين الى الاخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه انما كان يقصدها لاظهار المودة لاخيه والمحبة له وفي نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى أصحابه واراد أخذ البلد فامتنع من به من اصحاب اخيه عليه ثم لنهم سلموه اليه على قاعدة استقرت بينهم وكان عند محمود اميركبير وكان يحذره من اخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ اليه وكان جوادا كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين فلما قتل قطب الدين اخاه قتل حسنا معه والقاه على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لا سمعا ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وافعال حسنة لا نتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن في مدرسته وبقي اولاد قلج ارسلان على حالهم ثم ان قطب الدين مرض ومات فسار اخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط الى سيواس وهي تجاوره فملكها ثم سار منها الى قيسارية واقصرا ثم بقي مدينة وسار الى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين الى الشام ثم الى بلد الروم وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك الى ركن الدين الى نكسار وماسيا فملكها وسار الى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها أخوه معز الدين الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة العادل فاقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الاخوة ما عدا النقرة فانها منيعة لا يوصل اليها فجعل عليها عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة احدى وستمائة ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله اذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفي ركن الدين في تلك الايام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وانما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ولاني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لاثبته فيه

(ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند)

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري الى بلاد الهند واتم زلسه وبقي الى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة فلما وصل الى برشاور تقدم اليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا ترد على الامراء سلاما وهذا لا يجوز فعله فقال له السلطان اعلم

انتهى

الخلاف عن رأسه * ورحلت وحرة العناد من صدوره * وأقبل يروض عسكره على رشاد وسداد * ويغل أيديهم دون امتداد الى فساد * وصرف عسكر الامير منوجهر وراءهم يذكر صلاح حاله واستغناه عن رجاله * وعطف الى أصبهان خاطبا لمجد الدولة على منابرها وذلك في سنة سبع وأربعمائة * وكان نصر بن الحسن بن فيروزان قد انقطع الى السلطان يمين الدولة وأمين الملة فاقام على خدمته الى أن جعل ناحية بيار وجوميذ برسمه فنهض اليها وأقام بها يستغلها * ويتوفر عليه دخلها * الى أن دعاه مجد الدولة من الري فاعتسف البيد اليها اثفالا من عسكر شمس المعالي قابوس ومكايده * وعيون رياياه وحراصده * فلما وصل اليها عرف له حق قرابته * وقوبل بما اقتضاه حكم طاعته واستجابته * فبقي هذه السنين مرجوعا اليه في الرأي والتدبير * وموثوقا به في التقديم والتاخير * الى ان عثر منه على مما لا

أتى منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني وأنا سائر الى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم فان نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وان انهزمت فلا تطلبوني فانهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بي عملك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقي امراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل وسار الى أن وصل الى موضع المصاف الاول وجاءه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندي تجهز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر في أعقابه أربع منازل فارسل الكافر اليه يقول له أعطني يدك انك تصافحني في باب غزنة حتى اجيء وراءك والا فنحن مقاتلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ما هذا فعل السلاطين فاعاد الجواب انني لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا الى أن بقي بينه وبين بلاد الاسلام ثلاثة أيام والكافر في اثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرنده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم الى أن تطلع الشمس فلما اصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكوسات فلم يلتفت ملك الهند الى ذلك وقال من يقدم علي انا هذا والقتل قد اكثر في الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسه سابقا وركب ليهرب فقال له اعيان اصحابه انك حلفت لنا انك لا تخلينا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر في اصحابه فانتهبى المسلمون اليه واخذوه اسيرا وحينئذ عظم القتل والاسر في الهنود ولم ينج منهم الا القليل واحضر الهندي بين يدي شهاب الدين فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه الى الارض حتى اصابها جبينه واقعده بين يدي شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتني ما كنت تفعل بي فقال الكافر قد استعملت لك قيدا من ذهب اقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك وغنم المسلمون من الهنود اموالا كثيرة وامتعة عظيمة وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين ان كنت طالب بلاد فاطلب فيها من يحفظها وان كنت طالب مال فعندي أموال تحمل أجمالك كلها فسار شهاب الدين وهو معه الى الحصن الذي له يعول عليه وهو اجمير فأخذه واخذ جميع البلاد التي تقاربه واقطع جميع البلاد لمماليكه قطب الدين ايبك وعاد الى غزنة وقتل ملك الهند

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض على امير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الامير عادلا في الحاج رفيقا بهم محبا لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لا يرد وقفت اعماله بين يديه فخلص من السجن على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها خرج السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل من الحبس بعد موت عزل ارسلان بن ايلدكز والتقى هو وقتلغ اينانج بن البهلوان بن ايلدكز فانهزم اينانج الى الري على ما نذكره ان شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسمائة وفيها في رجب توفي

لبعض المخالفين فقبض عليه وحبسه في قلعة أستوناوند ومازال بها محصورا * وفي مخلب الامتحان مأسورا * حتى عفى عما جناه * ورد ثانيا الى ما تولاه * ووافق ما به خلع الديلم بلجام الهيبة لعدم السياسة * وانفراد مجد الدولة في بيته بالدراسة * وتبسط الديلم فيما شاؤا من غصب * وقطع ونهب وكبس ونقب * لا يرتدع منهم الا من أشعره الله المخافة * وأودع صدره الرحمة والرأفة * فانبرى نصر بن الحسن لقمع أولئك الضلال فاجتاح منهم فريقا * وأوسع آخرين تفريقا وتمزيقا * فلما رأى القوم ما دهاهم في أضرابهم من حصده واستئصاله * تجمعوا على قصده وقتاله * وأحاطوا بداره فدافعهم بخاصته مليا ثم انثنى عنهم منهزما * وغادر ملكه في الدار منهوبا ومغتنما * ومازال يضطرب في محنته * الى آخر سنته

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض على امير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الامير عادلا في الحاج رفيقا بهم محبا لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لا يرد وقفت اعماله بين يديه فخلص من السجن على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها خرج السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل من الحبس بعد موت عزل ارسلان بن ايلدكز والتقى هو وقتلغ اينانج بن البهلوان بن ايلدكز فانهزم اينانج الى الري على ما نذكره ان شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسمائة وفيها في رجب توفي

(ذكر بعض اخبار الدولة وما أفضى اليه أمره)

قد كان بهاء الدولة بعد أن

الامير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد وفي شعبان منها توفي ابو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي الفقيه الشافعي الواسطي وكان عالما بالمذهب انتفع به الناس

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته)

في هذه السنة في صفر توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه ان خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقي به ثمانية ايام وتوفي رحمه الله وكان قبل مرضه قد احضر ولده الافضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل فاي جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لانه كان قد وعده اذا اخذها ان يسلمها اليه واشار ولده الافضل بقصد بلاد الروم التي بيد اولاد قلج ارسلان وقال هي اكثر بلادا وعسكرا ومالا واسرع مأخذا وهي ايضا طريق الفرنج اذا خرجوا على البر فاذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلا كما مقصرنا قص الهمة بل اقصد أنا بلاد الروم وقال لاخيه تأخذ انت بعض اولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فاذا فرغت انا من بلاد الروم جئت اليكم وندخل منها أذربيجان وتتصل ببلاد العجم فنأخذها من يمنع عنها ثم اذن لاخيه العادل في المضي الى الكرك وكان له وقال له تجهز واحضر لتسير فلما سار الى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده وكان رحمه الله كريما حليما حسن الاخلاق متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وبلغني أنه كان يوما جالسا وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضا بسرموز فاخطأته ووصلت الى صلاح الدين فاخطأته ووقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا والله قد قتلني العطش فاحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا فاحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شئ على الارض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب الباردا أيضا فاحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذر اليه فسكت عنه وأما كرمه فانه كان كثير البذل لا يتأنف في شئ يخرجه ويكفي دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية وبلغني انه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما يفوت الاحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فانه كان ظاهر الم يتكبر على احد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم ليرقص أو سماع يقوم له فلا

فتح الله على السلطان سجستان راغبا في موالاته * خاطبا لمصافاته * مؤثرا لمكاتبته * حريصا على مقاربته * بحكم الجوار الواقع بين الدولتين * والصقب الحادث بين المملكتين * ووافق ذلك من السلطان رغبة في مثله من جهته لشرفه * بنفسه وسلفه * ولما حيزلهما من الكفاءة في الملك * والملاءة في سعة الملك * فسفر بينهما السفراء على الحمام سدى الغربة * واحصادقوى المودة * حتى خلصت القلوب * ونقيت الجيوب * وتأكدت العهود * وتأحدت الحدود * وعندها أحب السلطان أن يجعل المصافاة مجاهرة * والموالاة مصاهرة * فأنهض القاضي أبا عمر البسطامي شيخ الحديث بنيسابور الى فارس وهو النبيه فضلا * والوجيه محلا * والامام علما وتحقيقا * والحسام لسانا فصيحا ورأيا وثيقا * وصادف من اجلال بهاء الدولة واكرامه * واظهار التلطف عليه في مرامه * ما اقتضته جلالة من أصدره * ومساعدة القدرة في كل

يقعد حتى يفرغ الفقير ولم يلبس شيأ مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث واسمعه وبالجملة فكان نادرا في عسكره كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا

(ذكر حال أهله وأولاده بعده)

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل نور الدين علي وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الدارم وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه فارسل اليه الملك الافضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل فانه كان قد سار عنها الى بلاد العادل الجزرية على ما ذكر ويقول له ان حضرت جهزت العساكر وسرت الى بلادك حفظتها وان أقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة واذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله ان حضر معك والا فقل له قد أمرني ان سرت اليه بدمشق عدت معك وان لم تفعل أسير الى الملك العزيز حالفه على ما يختار فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء فلما رأى ان ليس معه منه شئ غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز فحينئذ سار الى دمشق وجهز الافضل معه عسكرا من عنده وأرسل الى صاحب حمص وصاحب حماة والى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على انفاذ العساكر مع العادل الى البلاد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ويخوفهم ان هم لم يفعلوا وملكها لاخيه الظاهر قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حران لنفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لا تعقل وكذلك يفعل في أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وسيروها الى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الريحان وستذكر ما كان منه ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه)

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على الكل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك أنا أرى انك تخرج مسرعا جريدة فمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص وتتقدم الى الباقين باللحاق بك وتعطي من هو محتاج الى شئ ما يتجهز به ويلحق بك الى نصيبين وتكاتب أصحاب الاطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر وابن خالك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم انك قد سرت وتطلب منهم المساعدة

قدره وأقام عليه منقولا من مجلس الايجاب الى متوسد الاكرام ومن راحة الاشبال الى عاتق الاكبار غير أن بعيد طلوعه عليه وافق منه علة أحدثها سوء المزاج بين الف الراحة والراح فأعياه تحيز المراد على العارض العاتق وقد كان نفر الملك مقيما ببغداد وهو الوزير والنصير * ومن اليه الرأي والتدبير * فحشم القاضي الى ما قبله لينفاوضا فيما يوجب صرف الرأي اليه * وتأريب العقد عليه * فاتفق مع وصوله استنثار قضاء الله تعالى ببهاء الدولة وانتقال روحه الى جوار ربه ويابع الناس ولده الامير أبا شجاع واقبه القادر بالله أمير المؤمنين بسلطان الدولة واستقبله طارق الامر واعتدل عليه عمود الملك وجرى له الطائر بالاقبال * وحسن الفال * ولما عاد القاضي من بغداد الى ما قبله لم يملك له من ذاته جوابا يغضيه * ولا حوارا يشفيه * اذ كان دونه

وتبذل لهم اليمين على مايلتمسونه فتى رأولك قد سرت خافوك وان أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة والابدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهوله أيضا فاقطعه وتركت عسكره مقابل اخيك يمنعه من الحركة ان اراد ها اوقصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتى حران والرها فليس فيها من يحفظهما لا صاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فان العادل أخذهما من ابن تقى الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فاذا فرغت من ذلك الطرف عدت الى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس وراءك ما تخاف عليه فان بلدك عظيم لا يبالى بكل من وراءك فقال مجاهد الدين المصلحة اتانا كاتب أصحاب الاطراف ونأخذ رأيهم فى الحركة وتسميلهم فقال له أخى ان اشار وا بترك الحركة تقبلون منهم قال لا قال فانهم لا يشيرون الا بتركها لانهم لا يرون ان يقوى هذا السلطان خوفا منه وكانى بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر فاذا جاء اليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله الى ما تكلم به فانفصلوا على ان يكاتبوا أصحاب الاطراف فكاتبوهم فكل اشار بترك الحركة الى ان ينظر ما يكون من اولاد صلاح الدين وعمهم فتنبط ثم ان مجاهد الدين كرر المراسلات الى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله فبينما هم على ذلك اذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق الى بلاده يذكر فيه موت اخيه وان البلاد قد استقرت لولده الملك الافضل والناس متفقون على طاعته وانه هو المدبر لدولة الافضل وقد سيره فى عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه ان صاحبها تعرض الى بعض القرى التى له وذكر من هذا النحو شيأ كثيرا فظنوه حقا وان قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأى فسيروا الجواسيس فأتتهم الاخبار بانه فى ظاهر حران من نحو مائتى خيمة لا غير فعادوا وتحركوا فالى ان تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار واقبلت العساكر الشامية التى سيرها الافضل وغيره الى العادل فامتنع بها وسار اتابك عز الدين عن الموصل الى نصيبين واجتمع هو واخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الريحان لخافهم خوفا عظيما فلما وصل اتابك عز الدين الى تل موزن مرض بالاسهال فأقام عدة ايام فضعفت منه الحركة وكثر مجيء الدم منه فخاف الهلال فترك العساكر مع اخيه عماد الدين وعاد جريدة فى مائتى فارس ومعه مجاهد الدين واخى مجد الدين فلما وصل الى دنيسر استولى عليه الضعف فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب

(ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده اليها مريضا فبقى فى مرضه الى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى انشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقى ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم الا بالشهادتين وتلاوة القرآن واذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد الى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والاحسان لاسيما الى

رسولا اليه * فصرفه مجملا من رسالته فى وراثة الود والوفاء * بسالف العهد واشتراء الخلوص بقاصية الجهد * ما اقتضاه حكم الابتداء بغرس الوداد * واستثمار الوفاء على ظهر البعاد * وقد كان الامير أبو الفوارس أخو الامير سلطان الدولة مقيما بكرمان فشجر بينهما خلاف اقتضى سلطان الدولة تجريد الجيوش لقصده * واستصفاء تلك النواحى واستخلاصها من يده * فنهض هو لمقاومتهم وكف عاديتهم وأوقدوا بينهم حربا افنت الرجال أكلا وشربا * واجتاحت الارواح طعنا وضربا * واستقرت الكشفة باتباع الامير أبى الفوارس فانقلبوا مهزومين وأقبل هو نحو سجستان * يؤم حضرة السلطان * يمين الدولة ممتطيا رجاءه * ومستنهضا كرمه لرده وراءه * فلما شارفها وقد كان أنهى الى السلطان خبر اقباله أمر أبا منصور

شيوخ قد خدموا أباه فانه كان يتعهدهم بالبر والاحسان والصلة والاكرام ويرجع الى قولهم ويزور الصالحين ويقربهم ويشفعهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليسه الا وهو مطرق وما قال في شئ يسئله لا حياء وكرم طبع وكان قد تج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج الى مسجد قد بناه في داره ويصلي فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب شفيقا على الرعية بلغني عنه انه قال بعض الايام انني سهرت الليلة كثيرا وسبب ذلك أني سمعت صوت نائحة فظننت ان ولد فلان قد مات وكان قد سمع انه مريض قال فضاق صدري وقمت من فراشي أدور في السطح فلما طال علي الامر أرسلت خادما الى الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر انسانا لا أعرفه فسكن بعض ما عندي فنمت ولم يكن الرجل الذي ظن ان ابنه مات من أصحابه انما كان من رعيته كان ينبغي ان تتأخر وفاته وانما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا

(ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط)

في هذه السنة أول جمادى الاولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران فانه أسرف في اظهار الشماتة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تختا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فادركته منيته وكان سبب قتله ان هزارديناري وهو ايضا من مماليك شاه أرمن ظهير الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنة بكتمر فطمع في الملك فوضع عليه من قتله فلما قتل ملك بعده هزارديناري بلاد خلاط واعمالها وكان بكتمر دينا خيرا صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لاهل الدين والصوفية كثير الاحسان اليهم قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا اليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاور وجه غزا ملوك أيبك في عساكر كثيرة فدخل بلاد الهند يغنم ويسبي ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما قد ملؤا أيديهم من الغنائم وفيها في رمضان توفي سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك اخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين ان شاء الله وفيها امر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها من الكتب النفيسة الوقف لا يوجد مثلها وفيها في ربيع الاول فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بانشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتبا كثيرة من أحسن الكتب وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك ان صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دزدا فاساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل اليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الاميرداود بن عيسى

نصر بن اسحق النائب عن الامير صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين بخدمة استقباله * وتكلف الواجب من انزاله * واقامة أنزاله * وانزال من معه من طبقات رجاله * ونثر عشرة آلاف دينار له من خاصة بيت ماله * فبلغ من ذلك مبلغا شهد من كان شاهدا بسجستان من قراها وطرائها ان أحدا من ملوك هذه الاقاليم لم يتكلف مثله لاحد من أولاد الملوك ولم يخل ان مثله يسمح به تيار البحور * فكيف اقطار الصدور * واكتسب ابو منصور بذلك لنفسه ذكرا عقد بالنجم ضفائره * واقاض على الشرق بعضه وعلى الغرب سائره * ولما وصل الى حضرة السلطان أوجب قضاء حق مقدمه بالاستقبال * وتلقى عظيم قدره بالاجلال * وحمل اليه من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام * والاقسام بكل ما ينتمي الى

ابن محمد بن أبي هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولاخيه مكثر تارة الى أن مات

(ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى)

كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره الى بلاد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك فى الهند ولايته من حد الصين الى بلاد ملاوا طولا ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الاسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندى سبعمائة فيل ومن العسكر على ماقيل ألف ألف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا فى تلك البلاد أب عن جد من أيام السلطان محمود ابن سبكتكين يلازمون شريعة الاسلام ويواظبون على الصلوات وافعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الارض وجافت وكانوا لا يأخذون الا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون واخذ منهم تسعين فيلا وباقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه احد الا انه كانت اسنانه قد ضعفت أصولها فامسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على الف واربعمائة جمل وعاد الى غزنة ومعه الفيلة التى اخذها من جملتها فيل أبيض حدثنى من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت الى شهاب الدين وامرت بالخدمة فخدمت جميعها الا الابيض فانه لم يخدم ولا يجب احد من قولنا الفيلة تخدم فانها تفهم مايقال لها ولقد شاهدت فيلا بالموصل وفيا له يحدثه فيفعل مايقول له

(ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة اخيه سلطان شاه)

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن الب ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان السلجقى من الحبس وملكه همذان وغيرها وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالرى وسار طغرل الى همذان وارسل قتلغ اينانج الى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فسار اليه فى سنة ثمان وثمانين فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن فى قلعة له فوصل خوارزم شاه الى الرى وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها فى يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الرى فى يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد فى السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو فى الطريق ان أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشق خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار الى مرو وقصد أخيه سنة تسع وثمانين فتردد الرسل بينهما فى الصلح فبيناهم فى تقرير الصلح واذا قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لاخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم اليه القلعة لانه

قبيل الاكرام * ماوقع عند الخاص والعام موقع الاستعظام * ماخلا الهمة التى ترى الدنيا خارجة عن ملكها * شعرة من أبشارها * وصوفة من أوبارها * وغرفة من بحارها بل قطرة من امطارها * وأقام عنده قرابة ثلاثة اشهر ضيفا لا يتميز عن الادنين أرحاما وشيجه * وانسابا قريبه * حتى اذا نشط للانصراف * والقس معونته على عارض الخلاف * ارتاح السلطان لما استدعاه فأعطاه فوق رضاه اموالا أحفت أقلام الكتاب * وأوهت انامل الحساب * وانهض فى صحبته ونصرته * واقامة خدمته * اباسعيد عبد الرحمن بن محمد الطائى احد مشايخ بابه وافاضل كتابه * فى رجال قد تعودوا النصر منذ خدموا رايته فلم يعرفوا وجه الانقلاب الا بالانقال * على الاكفال * لعبد الصمد بن بابك تحملت صهوة اخرى شواكلها من طول ماحملت سبيا على الكفل

قد استوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه اليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ ذلك سلطان شاه ففت ذلك فى عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته الى مرو وتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه بجميعها وخزائنه وأرسل الى ابنه علاء الدين محمد وكان يلقب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم فاحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلاد الرى فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان وارسل الى خوارزم شاه يعتذر ويسأل انجاده مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة الى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد فسار من نيسابور الى الرى فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة وسار وامعه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف ليجمعها بل سار اليه فيمن معه فقيل له ان الذى يفعله ليس برأى والمصلحة ان تجمع العساكر فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الرى فحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم شاه فاحاطوا به والقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيره من يومه الى بغداد فنصب بها بباب النوبى عدة أيام وسار خوارزم شاه الى همذان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكرا الى نجدة خوارزم شاه وسيره الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب فنزل على فرسخ من همذان فأرسل اليه خوارزم شاه يطلبه اليه فقال مؤيد الدين ينبغى ان تحضر انت وتلبس الخلعة من خيمتى وترددت الرسل بينهما فى ذلك فقيل لخوارزم شاه انها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه اليه قصد الاخذه فاندفع بين يديه الى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم شاه الى همذان وملك همذان وتلك البلاد بأسرها الى قتلغ اينانج واقطع كثيرا منها لمماليكه وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد الى خوارزم

(ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها)

فى هذه السنة فى شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب فى الوزارة مؤيد الدين أبى عبد الله محمد بن على المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم فى الولاية وبرز فى رمضان وسار الى بلاد خوزستان وولى الاعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد ومن أى وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله فى عسكر اليها ليملكها له وكان عزمه انه اذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرا للطاعة مستقلا بالحكم فيها الا من على نفسه فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفى واختلف أولاده بعده فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع فى البلاد فجهزت العساكر وسيرت معه الى خوزستان فوصلها سنة احدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة بجز واعنها وملك مدينة تستر فى المحرم وملك غيرها من البلاد وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الاموج وغيرها من الحصون والقلاع

وتوجه الامير ابو القوارس فيهم وفى سائر خاصته نحو كرمان فجلا عنها من كان ولى عليها عاملا بعجزه عن المقاومة * واقتضاه ان تعرض للمعالك * فملك تلك النواحى ملكه اياها من قبل واقام بها أبو سعيد الى ان قرت تلك الامور * ودرت للجبايات الشطور * ثم كر وراءه فيمن كانوا برسمه تحت قيادته واتت على ذلك مدة من الزمان تمنع حشمة السلطان يمين الدوله وامين الملة وحرمة الناهضين من اتباع رايته * فى امن وسعة بعز عنايته * ان يقصد بما يوهم خلافا عليه حتى اذا عاودت تلك الجيوش غزنة وانفرد الامير ابو القوارس بالتدبير * وارتاش بعد التحسير * مرب سلطان الدولة عسكرا ثانيا لمواقعته * واستخلاص تلك الناحية عن يده * فتلاقيا على حرب اشابت القرون تحكيما لقلبا الصفاح * فى مخارج الطلى * وتحويما اشبا الرماح * على موارد الكلى * حتى تشقرت الارض من

وأنفذ بقية أصحاب بلاد خوزستان الى بغداد فوصلوا فى ربيع الاول

(ذكر حصر العزيز مدينة دمشق)

فى هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر الى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الاكبر الملك الافضل على بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فنزل بنواحى ميدان الحصى فأرسل الافضل الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الافضل غاية الواثق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل الى دمشق هو والملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم ان العزيز ان ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم انه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ فى الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها الغور للافضل على ما كانت عليه وان يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك الى بلده

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كانت زلزلة فى ربيع الاول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التى عند مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وفيها فى جمادى الآخرة اجتمعت زعب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتل هاشم وكان أمير المدينة قد توجه الى الشام فلهذا طمعت العرب فيه وفيها توفى القاضى ابو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسى الحلبى بها فى شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم)

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل اليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد تقدم ذكر تغلب خوارزمشاه عليها ومعه جماعة من الامراء فاكرمه وزير الخليفة واحسن اليه وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزمشاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئا الى مؤيد الدين الوزير فاعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج اليه وخلع عليه وعلى من معه من الامراء ورحلوا الى كرمانشاه ورحل منها الى همذان وكان بها ولد خوارزمشاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا الى الرى واستولى الوزير على همذان فى شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خرقان ومزدغان وساوة وآوة وساروا الى الرى ففارقها الخوارزميون الى خوار الرى

صيب الاوراد * وتغرت من وشاش الاكباد * وعندها زالت قدم الامير ابى الفوارس فولى كسيرا * لا يعرف قبيلا ولا دبيرا وانتهى به الركض الى همذان حضرة شمس الدولة بن فخر الدولة فقضى فيه حق القرابة اعظاما لقدره * واهتماما بأمره * واغتناما لشكره * واستعدادا للنصرة * واقام مدة مديدة على هذه الجملة حتى استشعر أو اشعر انه مغرور ومقصود * والى الامير سلطان الدولة مردود * فنفر نفار الايم من ضربة القاتل * والوحش من كفة الحابل * وفارق مظنته قاصدا بغداد وسنشرح ان شاء الله من بعد حاله * وما انتهى اليه أمره مما كان عليه أوله

(ذكر ايلك خان وما انتهت اليه حاله) قد كان ايلك بعد الكشفة التى اتجهت عليه بباب بلخ فركب ظهر جيحون وعاد وراءه يضطرب على نفسه غيظا مما دهاه * واسفا على ما اعياه * وما زال يعاتب طغان خان اخاه *

فسير الوزير خلفهم عسكرا ففارقها الخوارزميون الى دامغان وبسطام وجرجان فعاد عسكر الخليفة الى الري فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الامراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لانهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها فدخلوا الري فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء بالكف عن النهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الامراء الى مدينة آوة ونهبها فمنعهم الوزير من دخولها فساروا عنها ورحل الوزير في أثرهم نحو همذان فبلغه وهو في الطريق ان قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من موضع المصاف الى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش وكان قد قصدهم منكرا اخذه البلاد من عسكره ويطلب اعادتها وتقرير قواعدها والصلح فلم يجب الوزير الى ذلك فسار خوارزم شاه مجدا الى همذان وكان الوزير مؤيد الدين ابن القصاب قد توفي في أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغنم الخوارزميون منهم شيأ كثيرا وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره الى خوارزم وأظهر وانه قتله في المعركة ثم ان خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب ان يعود اليها فترك البلاد وعاد الى خراسان

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

في هذه السنة في شعبان غزا ابو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والاندلس بلاد الفرنج بالاندلس وسبب ذلك ان الفنش ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة كتب الى يعقوب كتابا نسخته باسمك اللهم فاطر السموات والارض أما بعد أيها الامير فانه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ولا ذي لب ثاقب انك أمير الملة الحنيفية كما انا امير الملة النصرانية وانك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية واشتغالهم على الراحات وأنا أسومهم الخسف واخلي الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لي عنك انك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وعطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لي عنك انك لا تجد سبيلا للحرب لعلمك ما يسوغ لك التقحم فيها فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك ان توفيني بالعهود والمواثيق والايمان ان تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشواني وأجوز اليك بجملتي وأبارزك في أعز الاماكن عندك فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدية مثلت بين يديك وان كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت امارة الملتين والتقدم على الفئتين والله يسهل الارادة ويوفق السعادة بمنه

ويستنصر قدر خان على ما أوهن من قواه * وقوته مراده ومغزاه * والقدر له معاند * والزمان مناكر ومناكد * حتى طرحه الكمد على فراشه وخفعه عن قليل بطيب حياته فأشبعه التراب * بعد ان جوعه الحرص والاضطراب * همة كانت معلقة بالاثير * محلقة على فلك التدوير * غير ان يد القدر فوق يد التدبير * وما يصنع المرء بالجد اذا وافق الجد سافله الدبر

فهبه رحا يجزى لها اليم ماءه * وليس لها قطب بماذا يديرها
وقد ينهض العصفور كثرة ريشه * وتسقط اذلا ريش فيه نسورها

وكانت وفاته في سنة ثلاث وأربعمائة وولي مكانه أخوه طغان خان فقال السلطان يمين الدولة وأمين الملة وولاه * وهاداه * متلافيا بزعمه لما أخل به اخوه * ومتودد من حيث ركب الخلاف ذووه * وجاشت

لارب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى اعلاه هذه الآية ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعاده اليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر البحاز الى الاندلس وقيل كان سبب عبوره الى الاندلس ان يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقى طائفة من الفرنج لم ترض الصلح كما ذكرناه فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا الى بلاد الاسلام ففتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثا شديدا فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر البحاز الى الاندلس فى جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم واقبلوا اليه مجدين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة اولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هى العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ عظيما فمن الخيام مائة ألف وثلاثة واربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة الف وكان يعقوب قد نادى فى عسكره من غنم شيأ فهو له سوى السلاح واحصى ما حمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل من المسلمين نحو عشرين الفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم ابو يوسف فرآهم قد اخذوا قلعة رياح وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد الى مدينة اشبيلية واما الفنش فانه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا واقسم ان لا يركب فرسا ولا بغلا حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك الى يعقوب فأرسل الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم فالتقوا فى ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه الى مدينة طليطلة فحصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع اشجارها وشن الغارة على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم امر الاسلام بالاندلس وعاد يعقوب الى اشبيلية فاقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم اليه بعد أن كان عازما على الامتناع لما يريد الملازمة للجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر على بن اسحق الملثم الميورقى أنه فعل بافريقية ما تذكر من الافاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد الى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

من جانب الصين جيوش لقصد طغان خان واخذ بلاد الاسلام من ديار الترك وسائر ما وراء النهر يزيد عددهم على مائة ألف خركاه لم يعهد الاسلام مثلها على صعيد واحد يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم بغيا وظلما صرع اهله * واوردهم كما يورد الهدى محله فاستنفر من خطط الاسلام حتى اجتمع اليه من رجال الترك واحرار الغزاة والمطوعة قرابة مائة الف رجل واستكت اسماع المسلمين من فظاعة هذا النبا الهائل

(ذكر فعله الملثم بافريقية)

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب الى الاندلس كما ذكرنا وأقام مجاهدا ثلاث سنين انقطعت أخباره عن افريقية فقوى طمع على بن اسحق الملثم الميورقى وكان بالبرية مع العرب فعاود قصد افريقية فانبث جنوده فى البلاد فخربوها واكثروا الفساد فيها فجعلت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الانيس خاوية على عروشها وأراد المسير الى بجاية ومحاصرتها

لاشتغال يعقوب بالجهاد واظهر انه اذا استولى على بجاية سار الى المغرب فوصل الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ماذكرناه وعاد الى مراكش عازما على قصده واخراجه من البلاد كما فعله سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه

(ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان)

فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره الى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان باصفهان عسكر خوارزم شاه مع ولده وكان أهل اصفهان يكرهونهم فكاتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية باصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد الى من يصل من الديوان من العساكر وكان يعد الحاكم باصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا الى اصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا الى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فحفظوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة الى اصفهان وملكوها

(ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها)

لما عاد خوارزم شاه الى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والامراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من اعيان البهلوانية واستولوا على الرى وما جاورها من البلاد وساروا الى اصفهان لاخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فأرسل الى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وانه انما قصد اصفهان فى طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا اصفهان سار فى طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من اصفهان الى همذان وأما كوكجه فانه تبع الخوارزمية الى طبس وهى من بلاد الاسماعيلية وعاد فقصد اصفهان وملكها وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الرى وخوار الرى وساوة وقم وقاشان وما ينضم اليها من حد مزدغان وتكون اصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فأجيب الى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه

(ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها)

وفى هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر فى عساكره الى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك ان من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسراسنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الافضل على بن صلاح الدين لانه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وايبك وغيرهم فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون ان الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن نأخذ دمشق فنخرج فى العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه الى نصرته وسار من عنده الى حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الافضل اليها

والبناء المائل * فارتاعت له القلوب والتاعت النفوس وتناصرت الادعية والذكور وسار طغان خان مستقبلا من أقبل عليه من جموع الفجرة الكفرة بنيات مقصورة على الاستقتال * واستقبال الآجال * أو ينزل الله نصره * ويظهر حزبه ويصلح أمره * تحقيقا لما وعدهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد والتقوا أياما تباعا على ملاحم لم يدر من فتق العروق * وضرب الحلوق * وشد الخيول على الخيول * أصوب أنواء * أم صب دماء * ولمع البروق أو وقع السيوف وظلمة ليال أو رهج نزال وفى كل ذلك يتولى الله عباده بالأيد المتين * والنصر والتمكين * حتى وثقوا بالصنع المستبين * وطلوع الفجر مشرق الجبين * وتلاقوا ليوم منصوص عليه فى فصل الحرب فشد بهرام لها نطاقه * وأدار على الفريقين دهاقه * فأما أعداء الله

ودخلها وكان الافضل لثقته به قد أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه اليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم الى الافضل ان العزيز لما ملك مصر مال الى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فاتفقوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل فاتفقا على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء ان الافضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل ويخرج من دمشق فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والافضل فانهما أرسلا الى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا فيمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل انضمامة العساكر الى الافضل واجتماعهم عليه فخاف انه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل مدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بانه يمنع الافضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والافضل الى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية وأراد الافضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فاذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بنا حاجة الى هذا فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثال هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا يأمره بارسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحي لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم واستقر الامر على ان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما يليه ويكون للعادل اقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز

(ذكر عدة حوادث)

في ذي القعدة تاسع عشره وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند)

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة الى بلد الهند وحصر قلعة بهنكر وهي قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الامان على أن يسلموا اليه فامنهم وتسلمها وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها الى قلعة كوالير وبينهما مسيرة خمسة

فسكروا سكرا استوجبوا به الحدود بالحدود البواتك
فصبت عليهم من لدن لاح جبين الشمس الى أن ذكت
سراجا وهاجا * وكادت تسير على قمم الرؤس تاجا * وأما
أولياء الله تعالى فانتشوا
نشوة طربوا معها للضرب
فوق الهام * والعبث
بطلائع الحمام * لاجرم ان
الله حماهم ونصرهم *
وآواهم وأظفرهم * فغادروا
من جماهير الكفار قرابة
مائة ألف عنان صرعى على
وجه البسيطة عن نفوس
موقوذة * ورؤس
منبوذة * وأيد عن السواعد
مجذوذة * تقرى للضباع *
بل تفلى للسباع *
والوحوش الجياع *
وأفاء الله على المؤمنين مائة
ألف رأس غنما كالبدور *
واللؤلؤ المنثور * وسوار
كالحور العين والبيض
المكنون وسوائم غصت
بها أقطار البيداء * وضاقت
عنها أطراد الدهناء * وشرد
الباقون وراءهم تشلهم
السيوف شل الانعام *
وتختطف أرواحهم بأيدي
الحمام * وتطايرت به البشارات
في ديارات الاسلام * فنضرت

أيام وفى الطريق نهر بخازه ووصل الى كوالير وهى قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل اليها
حجر منجنيق ولا نشاب وهى كبيرة فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله
من بها فى الصلح فأجابهم اليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه اليه فحملوا اليه فسلا
حملة ذهب فرحل عنها الى بلاد آتى وسورة فأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد
الى غزنة سالما

(ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل)

فى هذه السنة فى السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق
من ابن أخيه الافضل على بن صلاح الدين وكان أبلغ الاسباب فى ذلك وثوق الافضل بالعادل
وانه بلغ من وثوقه انه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد ارسل اليه أخوه الظاهر غازى صاحب
حلب يقول له اخرج عمنا من بيننا فانه لا يجىء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد
وأنا أعرف به منك وأقرب اليه فانه عمى مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ولو علمت انه يريد لنا
خيرا لكنت أنا أولى به منك فقال له الافضل أنت سيئ الظن فى كل أحد أى مصلحة لعمنا فى أن
يؤذينا ونحن اذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كنا ملكنا من البلاد أكثر من
بلادنا ونريح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الاسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غير هذا فقد ذكرنا
مسير العادل والافضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين
ومقام العادل معه بمصر فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه الى دمشق ويأخذها
من أخيه ويسلمها اليه فسار معه من مصر الى دمشق وحصروها واستمالوا أميرا من امراء
الافضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد
عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال الى العزيز
والعادل ووعدهما انه يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه اليوم
السابع والعشرين من رجب وقت العصر وادخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم
يشعر الافضل الا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربى دمشق
فلما رأى الافضل ان البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد
واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار اسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على ان
اوهما الافضل انهما يقيان عليه البلد خوفا انه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما
ومعه العامة فاخرجهم من البلد لان العادل لم يكن فى كثرة واعاد الافضل الى القلعة وبات
العادل فى دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه
فاقام به وعساكره فى البلد فى كل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع بهما فبقوا كذلك أياما
ثم ارسلا اليه واقراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلم
جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز
القلعة ودخلها واقام بها أياما فجلس يوما فى مجلس شرابه فلما اخذت منه الخمر جرى على لسانه
انه يعيد البلد الى الافضل فنقل ذلك الى العادل فى وقته فحضر المجلس فى ساعته والعزيز
سكران فلم يزل به حتى سلم البلد اليه وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد وكان

لها الوجوه وضحكت القلوب وعم السرور وتوفر الشكور وتباشرت الدور * حتى القصور والخدور * الطفا من الله لدين ارتضاه * ووعد أن يصل بيد التأييد قواه * فر ينشب طغان خان بعد أن فرغ من هذه الحرب العظيم راسها * الشديد مراسها * ان استأثر الله به فنقله الى جواره * وبوأه مبوأ الصديقين من داره * خصه الله بالشهادة * وحتما عليه بالسعادة * وورث مكانه أخوه ارسلان خان أبو منصور الاصم صنوه فى التقية * وتلوه فى الامور الالهية * ثبت المقام * فى دين الاسلام * لا تعرف له جاهلية ولا تتقم منه نخجهية ولا عجرفية * يقسم الصلوات جماعه * ويفترض العدل سماعه * وطاعه * وعمر الحال التى كانت بين طغان خان أخيه وبين السلطان يمين الدولة وأمين الملة اظهارا للمصافاه * واستشعارا للمواخاه * وايثارا للاشتراك على تصاريف الحالات وخطب السلطان اليه والى أخيه

العادل يذكر ان الافضل سعى فى قتله فلهذا أخذ البلد منه وكان الافضل ينكر ذلك ويتبرأ منه والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحمر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الاضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر فى المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب الى خوزستان سار فى صحبته فلما ملك الوزير اصفهان أقام ابن الخجندى بها فى بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر وفى رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادى الفقيه الشافعى بالمدرسة النظامية ببغداد وفى شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازى فى الوزارة ببغداد وكان قد توجه الى بغداد لملك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الانشاء ببغداد وكان كاتبا فاضلا وله شعر جيد وفى صفر منها توفى الفخر محمود بن على القوفانى الفقيه الشافعى بالكوفة عائدا من الحج وكان من اعيان أصحابه محمد بن يحيى وفى رجب منها توفى أبو الغنائم محمد بن على بن المسلم الشاعر الهرثى والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط عن احدى وتسعين سنة وفى رابع شعبان منها توفى الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية

(ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ارسال الامير أبى الهيجاء الى همذان وما فعله)

وصل الى بغداد أمير كبير من امراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمين لانه كان كثير السمن وكان من أكابر أمراء مصر وكان فى اقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الافضل أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات الى الموصل ثم انحدر الى بغداد لانه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل اليها أكرم اكراما كثيرا ثم أمر بالتجهيز والمسير الى همذان مقدما على العساكر البغدادية فسار اليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة فلما اجتمع بهم وثقوا اليه ولم يحذروه فقبض على اوزبك وابن سطمش وابن قراجا وافقة من أمير علم فلما وصل الخبر بذلك الى بغداد انكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالافراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييبا لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا أمنوا فغادروا أبا الهيجاء السمين لخلاف الديوان فلم يرجع اليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد يريد اربل لانه من بلدها هو فتوفى قبله وصوله اليها وهو من الاكراد الحكمية من بلد اربل

(ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها)

ابلك كريمة له على والده الامير الجليل أبى سعيد مسعود بن بين الدوله وأمين الملة فأحسنا الاجابة * واعتنما القرابة * وتردد بينهما السفراء فى ذلك مدة على جملة التهادى * ورص الحال باقتسام الايادى * الى أن حققت الحقيقه * وتمت العقدة الوثيقه * وأنهض السلطان من اختارهم من ثقات بابه لنقل اليتيمة الكريمة فجهزت وديعة تشاح عليها ملكان هذا صدر الملك * وذا ملك الترك * يختص بها الشبل ابن الليث * والويل ابن الغيث * والتيار ابن البحر * والصباح بن الفجر * الامير الجليل أبو سعيد مسعود بن محمود بين الدولة وأمين الملة ونقلت الى الحضرة ببلخ وقد حميها من فقدها ملك الدولة واعيان رجالها من عدوا أئمة المشرق * وأرباب المنطق * فادوا أمانتى اليد واللسان على ما أحلت الحال بين الجنبتين * ورفضت الحشمة فى ذات البين * وأمر السلطان أهل بلخ قبيل الوصول بعقد الآذين *

في هذه السنة في شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي وهو بيد الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك ان الفرنج كان قد ملكهم الكندهري على ما ذكرناه قبل وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى فلما توفي وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهري وزاد في مدة الهدنة وبقي ذلك الى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف باسامة وهو مقطعها فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة الى الملك العادل بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك فأرسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تقصدونا والا أخذ المسلمون البلاد فامدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الالمان وكان المقدم عليهم قس يعرف بالخنصلير فلما سمع العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب العساكر وارسل الى دياربكر والجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته الامراء واجتمعوا على عين جالوت فاقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التي لها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهرا بالسيف في يومها وهو يوم الجمعة واخذ كل ما بها غنيمة واسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية فمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بهم املكها فعادوا وكان سبب تأخرهم ان ملكهم الكندهري سقط من موضع عال بعكاقات فاختلفت احوالهم فتأخروا لذلك وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار اليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم اسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها فان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا اشجارها وخربوا ما لها من قرى وابراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور واقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين واذن للعساكر الشرقية بالعود وظننا منه ان الفرنج يقيمون ببلادهم واراد ان يعطي العساكر المصرية دستورا بالعود فاتاه الخبر منتصف المحرم ان الفرنج يريدون ان يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين اول صفر سنة اربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز بجميع من بقي معه من العساكر واما من تحصن بتبنين فانهم لما رأوا النقوب قد خربت القلعة ولم يبق الا ان يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها الى الفرنج يطلب الامان على انفسهم واموالهم ليسلموا القلعة وكان المرجع الى القسيس

وتكليف التصيد والتزين * فبلغوا من ذلك مبلغا لم يستبق فيه من الوسع مذخور * ولا من الرسم مذكور ومسطور * ورأى السلطان بعد ذلك أن يرفع من قدره فعقد له على هراقسر قملكه ونواحيها وسيره اليها بعد أن وصله بمال عظيم يعده ذخيرة * ويوسعه تجملا وزينة * فنهض اليها رشيد السيرة * حميد السرير * عادل الطريقة * فاضل الخليقة * خليقا بالملك على الحقيقة * وذلك في سنة ثمان وأربعمائة

(ذكر الامير أبي أحمد محمد بن يمين الدولة وأمين الملة)

جملة ما يمكن الافصاح به والايضاح عنه من حاله * وذكر خصاله * قول القائل ان السري اذا سرى فبنفسه وابن السري اذا سرى أسراهما

وقد جمع الله له من الميل الى خصائص الادب * والسعي لمعالي الرتب * ما دل على انه ابن أبيه شرفا سمقت على النجوم شرفاته * وكرما تعرفت لأهل الفضائل عرفاته *

انظر صليبه من اصحاب ملك الالمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام ان سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا انفسكم فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى أن وصل الملك العزيز الى عسقلان في ربيع الاول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وان الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وان أمرهم الى امرأة وهي الملكة فاتفقوا وأرسلوا الى ملك قبرس واسمه هيمري فاحضروه وهو أخو الملك الذي أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكندهري وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية فلما ملكهم ابعد الى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل الذي يعرف بجبل عامله فاقاموا أياما والامطار متداولة فبقي الى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا وترتب العساكر ليزحف الى الفرنج ويجد في قتالهم فرحلوا الى صور خامس عشر الشهر المذكور وابلا ثم رحلوا الى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وتراسلوا في الصلح وتطاول الامر فعاد العزيز الى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله ان جماعة من الامراء وهم ميمون القصري واسامة وسراسنقر والحجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على القبض به وبفخر الدين جركس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل الى دمشق وسار منها الى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده)

في شوال من هذه السنة توفي سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزبيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله الى أخيه صلاح الدين في المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الاموال ما لا يحصى حتى انه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفي ملك بعده ابنه اسمعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث انه ادعى انه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب اليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود الى نسبه الصحيح ويترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت اليه ولم يرجع وانضاف الى ذلك انه أساء السيرة مع اجناده وامرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميرا من مماليك أبيه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلاني المقرئ الواسطي عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي وفي جمادى الآخرة توفي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد ودفن بتربته في مشهد باب التبن وفيها في ربيع الآخر توفي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف اليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان وجعله ولي عهده في الملك

خرج من حصن الكفالة خروج الابريز من جمرات السبائك * والهلال من تحت الشعاع المتشابك * لم يعرف له طول أيام الايفاع * غير الارتفاع الى اليفاع * تصرفا على كرم الطباع * وتقيدا للمأثور بالسماع * وبذلا لما لفظته يد الاطباع * وارتياضا بآداب الثقافة والصناع * حتى اذا انتزع يداه برد الحداثة * ولبس خذاه طوق الشهامة * رأى السلطان أن يوفيه حق البنوة * ويؤتيه شرط المروة * ويجذب بضبعه الى حيث اقتضته الفراسة فيه واستدعته العناية به والرعاية له فزوجه كريمة الامير أبي نصر الفريغوني والي الجوزجان وهي التي تجمع الى الاصالة جلالة * والى الكفاية كفاءة * والى النعمة همة * وعقد له على أعمال الجوزجان كما عقد للامير الجليل أبي سعيد مسعود على هراة وهي التي وليها قبله آل فريغون وهم الذين حكوا في العز فريدون وفي الهمة المجنون * وفي الغزارة والسماحة جيحون *

وخلف ولدا اسمه هندوخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمدا وهو الذى ملك بعد أبيه وكان بين الاخوين عداوة مستحكمة أفضت الى أن محمدا الملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفرانى الضرير الفقيه الشافعى كان اماما فى الفقه مدرسا حاكما كثير الصلاح سمعت عليه كثيرا لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وارادته بعمله وجه الله تعالى وذلك انى كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبى عبد الرحمن النسائى وهو كتاب كبير والوقت ضيق لانى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع مع اخى الاكبر مجد الدين أبى السعادات اذ قد أتاه انسان من اعيان بغداد وقال له قد برز الامر لتحضر لامر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذى يراد منى لا يفوت فقال انا الاحسن اذكرهذا فى مقابل أمر الخليفة فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليمشى معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا فقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لنا وذكر ان أمير الحاج الموصلى قد رحل فعظم الامر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود الى أهلكم وبلدكم فقلنا لاجل فراغ هذا الكتاب فقال اذا رحلتم استعيروا بغلة وأركبوها فاسيروا معكم وانتم تقرؤن فاذا فرغتم عدت فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكر ان الحجاج قد رحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر الى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا

(ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد)

فى هذه السنة فى المحرم توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلا حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم وأملاكهم متواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجالس معهم ويرجع الى أقوالهم الا انه كان بخيلا شديد البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة كثير البر والاحسان الى الفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية فمن تعصبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبى حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله

(ذكر ملك نور الدين نصيبين)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل الى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك ان عمه عماد الدين كان له نصيبين فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهى تجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل

وولى أبا محمد الحسن بن مهران كفاية أموره *وولاية تدابيره *فبرز اليها بروز السيف من يد الصاقل وهمى على أهلها همى السحاب الهاطل *فأحياهم بندى العدل الشامل *وعدل فى العطف عليهم بين الآبى والآمل *فعلقته قلوب الخاص والعام *وكفته النفوس مؤنة الاستخدام *ولما رأى السلطان جده اثره *ورشيد مختبره *ازداد شغفا باختياره *وحرصا على اصطناعه وايثاره *فزاد فى محل من جديد انعام *ومزيد حفاوة واكرام *وسيأتى بيان خبر الاخوين الجليلين فى موضعه باذن الله تعالى

*(ذكر التاهرتى الرسول الوارد من مصر وما ختم به أجله)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة مذ شمخ عزيمته لغزوات الهند محييا لسنة ابيه *مقتفيا نهج آثاره ومساعيه *باشا على طرق النظر وسبيل الجدل عن سنن الاسلام *والبدع المعترضة عليها فى سالف الايام *استبصارا منه فى الدين *

كلها والمرجوع اليه فيها فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلاف بينهم فأرسل من عنده رسولا الى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل الذى فعله النواب بغير أمره وقال انى ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فانه ليس كوالده وأخاف ان يبدو منه ما يخرج الامر فيه عن يدى فأعاد الجواب انهم لم يفعلوا الا ما امرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فتردد الرسل بينهما فلم يرجع عماد الدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال فارسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جده الشهيد زنكى ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة تقضى الرسول فلحق عماد الدين قد مرض فلما سمع الرسالة لم يلتفت وقال لا أعيد ملكى فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه وحذره عاقبة ذلك فاغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نور الدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال فغضب نور الدين وعزم على المسير الى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق ان عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار اليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار اليها من سنجار فى عسكره ونزل عليها فمنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدم الى البلد وكان بينهما نهر فجازه بعض امرائه وقاتل من بازائه فلم يثبتوا له فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برقش الى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى حران وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الاموال الكثيرة ليمدهم ويعيد نصيبين اليهم وأقام نور الدين بنصيبين ما لكها فتضعضع عسكره بكثرة الامراض وعودهم الى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل الى الديار الجزرية فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد الى الموصل فى شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين وممن توفى من امراء الموصل عز الدين جوريك وشمس الدين عبد الله بن ابرهيم وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان ومجاهد الدين قايماز وظهير الدين يولق بن بلنكرى وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على اهلها على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة)

فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين صاحبى غزنة وغيرها وله بامیان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه ازبه وكان يحمل الخراج كل سنة الى الخطا بما وراء النهر فتوفى فى هذه السنة فسار بهاء الدين سام الى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل الى الخطا وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الاسلام بعد ان كانت فى طاعة الكفار

(ذكر انهزام الخطا من الغورية)

وفى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون الى ناحية خراسان فعاثوا فى البلاد وافسدوا فلقيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك ان خوارزم شاه تكش كان قد سار الى بلد الرى وهمذان واصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرض الى عساكر

واستظهارا على قمع الملحدين فقرأ الكتب وسمع التاويل * وتتبع القياس والدليل * وعرف الناسخ والمنسوخ والخبر الصحيح والموضوع وتلقن من اصول الدين ما لم يستجز معه فى الدين بدعه * ورأى كل ما يخالف ظاهره نكرا وشنعه * وألقى اليه ان فى غمار الرعايا بخراسان اقواما ينتحلون مذهب الباطن المنسوب الى صاحب مصر ظاهره الرفض * وباطنه الكفر المحض * بتأويلات موضوعة تؤدى الى رفع قواعد الدين * ودفع معاقد الحق واليقين * وابطال معالم الشرع وتتبع احكام الله تعالى بالرفض والنقض فأمر بوضع العيون عليهم * والصاق الطلب بهم * وعثر على رجل كان سفيرا بين المذكور وبين اوليائه * والملبين لندائه * يعرف القوم بسيماهم واسمائهم فنص على عصابة منهم محتلى البلدان والاوطان فأشخصوا الى الباب ورجموا تحت الصلب بالاحجار * ولم

الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد فارسل الخليفة الى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد الى خوارزم فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه الى الخطا يشكو اليهم من غياث الدين ويقول ان لم تدركوه بانفاذ العساكر والا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطايشكوا وهو كالوزير فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة انما يحمل في محفة والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل الخطا الى جيحون سار خوارزم شاه الى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا النهر ووصلوا الى بلاد الغور مثل كرزبان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالافراج عن بلخ أو انه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم الى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الامير محمد بن جربك الغوري وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل وكان بقلعة كرزبان واجتمع معهما الامير حرّوش الغوري وساروا بعساكرهم الى الخطا فبيتوهم وكبسوهم ليلا ومن عادة الخطا انهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقونها فاتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم واكثروا القتل في الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون والعسكر الغوري خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا ان غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم في الكفار وحمل الامير حرّوش على قلب الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفي منها ثم ان محمود بن جربك وابن خرميل حملا في أصحابهما وتنادوا ان لا يرمي أحد بقوس ولا يطعن برمح وأخذوا اللتوت وحملوا على الخطا فهزموهم وألحقوهم بجيحون فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق ووصل الخبر الى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل الى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار وكان القتلى اثني عشر ألفا وانفذ اليه من رده الى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه الى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو اليه ويستعطفه غير مرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة واعادة ما أخذه الخطا من بلاد الاسلام فلم ينفصل بينهما حال

﴿ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا﴾

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب ان عسكرك انما قصد انتزاع بلخ ولم يأتوا الى نصرتي ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وان كنت فعلت ذلك فانا

يزل يفعل ذلك بأضرابهم ومن كان يخرج لهذكر بألقابهم * حتى التقطتهم حجارة الرجم والرض * عن بسط الارض * وقد كان الاستاذ ابو بكر محمد بن اسحق بن محمشاد زعيم اصحاب ابي عبد الله بن كرام غزير الفضل * كبير المحل مذكورا في القاصية والدانيه * بالديانة الوافيه والامانة البادية والخافيه * مشهورا باليقظة على الفرق الغاليه * والبدع الجافيه * فوافق رأي السلطان على اجتياح من ركب بنيات الطريق * وعدم في العدول عن مثل مخارف النسم مساعدة التوفيق * ونبهه على عدة زعموا أنهم ضلال * ولهم في فضول القول وهذر المحال مجال * فسلكوا في أصفاد الآخرين * ونصبوا عبرة للناظرين * وازداد أبو بكر فيما تقرب به من ظاهرا لهما ماه * على دين الله والمراماه * دون حق الله وتطهير بيضة الاسلام عن كل ذي ريبه بعيدة أو قريبه حشمه * أطمعت

مقيم بالمال المطلوب مني ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم علي بهذا القول وهذا المطلب واما أنا فقد اصلحت الغورية ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي فعاد الرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره الى خوارزم فحصرها فكان خوارزم شاه يخرج اليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على اكثرهم فدخل الباقون الى بلادهم ورحل خوارزم شاه في آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا حتى انهم أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لانه كان أعور وطافوا به على السور ثم القوه في منجنيق الى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون يا أجناد الكفار أنتم قد ارتددتم عن الاسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة وعفا عن أهله وأحسن اليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد الى خوارزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في ذي الحجة توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الانشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق ارسلان بن ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم وكان صبيا والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش وليس لصاحبه معه حكم البتة في شيء من الامور ولما حصر العادل ماردين ودام عليها سلم اليه بعض أهلها الربض بمخامرة منهم فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقي عليها الى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفي الشيخ أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التي ينسب اليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العاملين ودفن بقريته وأبو المجد علي بن أبي الحسن علي بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرس أصحاب ابي حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

﴿ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر﴾

في هذه السنة في العشرين من المحرم توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته انه خرج الى الصيد فوصل الى الفيوم متصيدا فرأى ذئبا فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس فسقط عنه في الارض ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا فبقي كذلك الى أن توفي فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس وهو الحاكم في بلده فأحضر انسانا كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأراه العزيز مينا وسيره الى العادل وهو يحاصر ماردين كما ذكرناه ويستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الافضل علي بن صلاح الدين فقال له قل

فيه الرجال * وأمالت اليه الآمال * وأية حشمه وضع الله عليها طابع الدين فهي في جوار النعم عالية * وكان سموشان * وكفالة بم الخامسة ما ورد في الخبر المروي ان الله تعالى قال للدنيا من خدمني فاخدميه * ومن خدمك فاتعبيه أو فاستخدميه * واتفق بعقب ذلك أن طلع رجل من بلاد العراق ينتسب الى شجرة العلوية يذكر انه رسول صاحب مصر الى السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بكتاب تحمله * وبرتزوده * مدلا بسبب النسب ومدليا بصلف الشرف فاستوقف الى أن أنهى الى السلطان خبره * ووكل الى ما يرد من مثاله صدره * ونهض من بعد ذلك الى هراة ممتدا الى الحضرة * فأمر برده الى نيسابور لتقرير ما تحمله على رؤوس الاشهاد * ومر أي ومسمع من كل حاضر وباد * صيانة لخلاص مجلسه عما عسى أن يضاف اليه من احاله * وسريحت رسالة *

اصاحبك ان أخاه العزيز توفى وليس فى البلاد من يمنعها فليسر اليها فليس دونها مانع وكان الافضل محبوبا الى الناس يريدونه فلم يلتفت الافضل الى هذا القول واذ قد وصله رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه وكان السبب فى ذلك ان الامير سيف الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يريدونه ويميلون اليه وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى اننا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره الى أن يكبر فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لامير فاتفقا على هذا فقال جهاركس فمن يتولى هذا فاشار يازكج بغير الافضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لملايتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان بصرخد مقيما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل اليه من يطلبه مجدا فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج نمضى الى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الافضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالافضل فارسل يازكج فى الحال القصاد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفسا لان البلاد كانت للعادل ويضبط نوابه الطرق لئلا يجوز الى مصر ليجىء العادل ويملكها فلما قارب الافضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليه لقيه فارسان قد ارسلا اليه من القدس فاخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته وجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه أخوته وجماعة الامراء المصرية وجميع الاعيان فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا واثن لم تمض اليهم تصلح بينهم يؤدى ذلك الى فساد فاذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل الى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزرد كش وسراسنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لانه كانت اطماعه قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وانه يأخذها والذى يريدونه لا يفوته وأما الافضل فانه دخل الى القاهرة سابع ربيع الاول وسمع بهرب جهاركس فاهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الافضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك قطيس والبكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور سوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر وأقام الافضل بالقاهرة وأصلح الامور وقرر القواعد والمرجع فى جميع

فلما رد الفقيه قرى وفتش عما صحبه عثر على تصانيف الباطنيه * وأغاليطه فى الشريعة الحنيفيه * أصح منها فى الاسماع خياط الجامعين * وسواس المبرسمين * لا تؤخذ فى محصول * ولا توجد فى معقول ومنقول * وناظره الاستاذ أبو بكر على أمور من جهة مرسله تفاوتت فيها الفاظه فلم يوجدها على نار الامتحان ثبات * ولا الى وجه التحقيق وجانب التميز التفات * وما زال يضرب الخماسا فى أسداس الى أن تبين له انه أخطأ فى تحمل تلك الرساله * وحرم التوفيق فى تقلد تلك السفاره * وقضى الله أن اشخص الى حضرة السلطان فلما استحضر مجلس حفله وقد غص بأعيان الاسلام سادا تها وكبرائها وقضاتها * وفقهائها وزعمائها * وهناك الحسن ابن طاهر بن مسلم العلوى ومن قصته أن جده مسلما لم يكن فى الطالبية من أولاد الحسين الاصغر رضى الله عنهم بناحية مصر أبيه

الامور والى سيف الدين يازكج

﴿ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها﴾

لما ملك الافضل مصر واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الافضل بها وصل اليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر منتصف جمادى الاولى من السنة على عزم المسير الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق فى مسيره ولو بادر ويعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل الى دمشق ثالث عشر شعبان فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار بريدة فجد فى السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبل الافضل بيومين وأما الافضل فانه تقدم الى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم ان قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالامير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ معه أحدا من الامراء بل سار وحده بمفرده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل واستسلم من به من الجند ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيمه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا صاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا فى العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثانى عشر شهر رمضان وأرادوا الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك وأما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه فأرسل الى الممالك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاءوا دمشق ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الافضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق فى شوال فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على

واوجه منه * ولا أغنى ولا أقنى منه * فلما استقر معه أبو تميم المعز بمصر خطب اليه بعض بناته على ولده أبى منصور الملقب بالعزيز وسبب ذلك على ما قيل انه وجد فى داره رقعة فيها ان كنت من آل أبى طالب فاخطب الى بعض بنى طاهر فان رآك القوم كفوا لهم فى باطن الامر وفى الظاهر فأم من سفه خوزية يعض منها البظر بالآخر فنسبهم الشاعر الى أمهم الخوزية بالعسكر لان كورتها خوزستان وهى أم محمد بن عبد الله بن ميمون فاعتل مسلم عليه بأن لا واحدة من بناته الا وهى فى حبالة وتحت عقدة تفاديا من اجابته * وتحرجا من مصاهرته * فلما عرف امتناعه ذهابا بنفسه عنه * وترفعا بنسبه دونه * وضع عليه يد الاستقصاء * بعد أن أودعه الحبس سنين وخبطه خبط العصا * ورق السلم * وألبسه عن فضفاض الغنى غلالة العدم * وجلس من بعد على يده * فقال

دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره ان شاء الله تعالى وهو بحران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل منهم الى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص الى بلادهما وعاد الافضل الى مصر فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد﴾

في هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى توفي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بمدينة سلا وكان قد سار اليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها فسار اليها يشاهدها فتوفي بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين وحسن سيرة وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون الى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية الا انهم مغمورون بالمالكية ففي أيامه ظهروا وانتشروا ثم في آخر ايامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال اليهم

﴿ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد﴾

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من أفريقية كما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة استعمل أبا سعيد عثمان وأبا علي يونس بن عمر اليفتي وهما وأبوهما من أعيان الدولة فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهدية وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم وهو شجاع مشهور وعظمت نكايته في العرب فلم يبق منهم الا من يخافه فاتفق انه أتاه الخبر بان طائفة من عوف نازلين بمكان نخرج اليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه اليهم فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال فاخذ الجميع ورجع الى المهدية وسلم العيال الى الوالي وأخذ من الاسلاب والغنيمة ما شاء وسلم الباقي الى الوالي والى الجند ثم ان العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اليفتي فوحدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجار وا به في رد عيالهم وأموالهم فاحضر محمد بن عبد الكريم وأمره باعادة ما أخذ لهم من النعم فقال أخذه الجند ولا اقدر على رده فاغلظ له في القول وأراد أن يبطش به فاستمهله الى أن يرجع الى المهدية ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فامهله فعاد الى المهدية وهو خائف فلما وصلها جمع أصحابه واعلمهم ما كان من أبي سعيد وحالفهم على موافقته فحلفوا له فقبض على أبي علي يونس وتغلب على المهدية وملكها فارسل اليه أبو سعيد في معنى اطلاق أخيه يونس فاطلقه على اثني عشر ألف دينار فلما ارسلها اليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته فارسل محمد بن عبد الكريم الى علي بن اسحق الملثم فخالفه واعتضد به

قوم غيب عن محبسه فلا يدرى كيف صار أمره * وأين وضع قبره * وزعم آخرون انه هرب من الحبس على طريق الحجاز فاحتضر في الطريق وعند ذلك لجأ طاهر والد الحسن المذكور الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم متأمرا على أهلها ومعه ابن عم له يعرف بأبي علي بن طاهر ختنه على أخته فلما مضى طاهر لسبيله ورث أبو علي المذكور ومكانه من الامارة الى أن لحق به وورثه ولداه * هاني ومهني دون الحسن لاستضعافهما اياه * وتقويهما بالحال والمال عليه فرحل نحو خراسان ملتجئا الى السلطان يمين الدولة وأمين الملة * سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فلما ورد الطاهر تى برزمه رسولا صغر الحسن شانه * ووضع فيه لسانه * وأبى أن يكون له ثبات على دوحة الرسالة * وانتساب الى بعثة النبوة * واذعى عليه الكذب وتحمل الزور والتقول ومزاه الى فساد الدين * واستحقاقه ضرب

فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولى ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه فى البحر وعسكرا آخر فى البر مع ابن عمه الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر الى بجاية وعسكر البر الى قسنطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء ووصل الاسطول الى المهدية فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقى من أبى سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها الى أبى سعيد وانما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين فارسل محمد من يتسلمها منه وعاد الى الطاعة

﴿ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين﴾

فى هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا ان ملكها لا يبقى عليهم الا ان العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفى العزيز صاحب مصر وملك الافضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فارسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل الى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم الى موافقته فاجابوه الى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردين الى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثانى شعبان وسار الى نصيبين فنزل عليها ووافقه ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بنصيبين الى ان عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر الى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردين قد عدمت الاقوات عندهم وكثرت الامراض فيهم حتى ان كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم فى دولة صاحبها ذلك أرسل الى ابن العادل فى تسليم القلعة اليه الى أجل معلوم ذكره على شرط ان يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فاجابهم الى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم الى رأس القلعة وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الاطعمة الا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الامير شيأ فمكنهم من ادخال الذخائر الكثيرة فبيناهم كذلك اذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره الى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى ان الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين الى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم لكن نزلوا بقضى الله أمرا كان مقدورا ولما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادلى أن ينهزم اذا التقوا ولم يعلم بذلك أحد من العسكر فقدر الله تعالى انه لما نزل العسكر العادلى واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة الى أن وقف فى سفح جبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلى ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا جعل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانهزم العسكر العادلى وصعدوا فى الجبل الى الربض وأسر منهم كثير فحملوا الى بين يدى نور الدين

الوثيق * تخلى السلطان بينه وبين ما يستجيزه لنفسه ودينه * فقام الى جيده * بضربة غرقته فى دم وريده * وقد كان القادر بالله أمير المؤمنين العباسى كتب الى السلطان يمين الدولة يأمره بما تقدم اليه من خبر الرسول ما يقتضيه الدين من التعاطف عليه وتقديم الجد فى الانتصاف للاسلام والمسلمين منه فلما ختم أمره بما تقدم ذكره أنهى الى مجلس الخلافة صورة الحال * وكم السيف أفواه العذال * فقوبل من القبول بمقتضاه * وجزى الخير على ما أتاه وتوخاه * فكان مثل التاهرتى كما قيل

ومن يشرب السم الذعاف فانه
يحقيق بأنياب المنايا النواهس

(ذكر الامير أبى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه وما ختم به أمره الى أن ورث السلطان مملكته)

قد كان أبو الحسن على بن مأمون لما ورث أباه مأمونا مملكته وقد كان استضاف خوارزم الى الجرجانية خطب الى السلطان يمين

فاحسن اليهم ووعدهم الاطلاق اذا انفصلوا ولم يظن ان الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعا فجاءهم أمر لم يكن فى الحساب فان الملك الكامل لما صعد الى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا الى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فالقى الله الرعب فى قلوب الجميع فاعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فاخذه أهل القلعة ولو ثبت العسكر العادلى بمكانه لم يمكن أحدا أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازى الى نور الدين ثم عاد الى حصنه وعاد أتابك الى نصيبين ورحل عنها الى رأس عين على عزم قصد حران وحصرها فاتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها فعزم على العود الى الموصل فهو يقدم الى العود رجلا ويؤخر أخرى اذ أصابه مرض فتحقق عزم العود الى الموصل فعاد اليها وأرسل رسولا الى الملك الافضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانى ذى الحجة اليهم وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل فانه كان هو وكل من عنده ينتظرون ما يجىء من أخباره فان من بحران استسلموا فقدر الله تعالى انه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل الى حران وكان قد سار عن ماردين الى ميافارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل الى حران وسار الى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة والافضل ومن معه ضعفا

﴿ذكر الفتنة بغيروز كوه من خراسان﴾

فى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بغيروز كوه عمت الرعية والملوك والامراء وسببها ان الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازى الامام المشهور الفقيه الشافعى كان قدم الى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت غياث الدين فاكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ فى اكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بغيروز كوه للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية وله عند هم محل كبير لزهده وعلمه وبيته فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ فى أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا لا واخذ الله استغفر الله فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين فى هذه الحادثة وشكى الى غياث الدين وذم الفخر ونسبه الى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين اليه فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع فلما صعد المنبر قال بعد ان حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لا اله الا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس انا لا نقول الا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها فلا أى حال يشتم بالامس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه وبكى وضج

الدولة احدى أخواته تقوية لعمدة الحال * وتسدية للحمة الوصال * فأوجب استعافه بما استدعاه استكفاءاه * وتوخيا لرضاه * وزف اليه من خطبه * ووصل بأسبابه سببه * ودر التهادى بينهما حتى صارت الديار واحده * والاسرار لغير الاخلاص جاحده * وغيرت الحال على جبلتها فى الانشاج والامتزاج * الى أن قضى خوارزم شاه نحبه * ولقى بانقراض الاجل ربه * وورث أبو العباس مأمون ابن مأمون مكان أخيه * وولى ما كان يليه فكتب الى السلطان يسأله أن يعقد له على شقيقته عقده على أخيه من قبل فهو تاليه فى الطاعة بل أتم اخلاصا * وثانيه فى القربة بل أشد اختصاصا * فشفع السلطان فيه داعى الكفاءه * واستجد للحال روئق الطراءه * وعقد له عليها عقدا خلطه فيه بنفسه * وفرغ له فريقا من قلبه وخلبه * ومازال الامر بينهما على جملة

الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعانهم من يؤثر بعد الفخر الرازى عن السلطان وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجرى ما يهلك فيه خلق كثير فبلغ ذلك السلطان فارسل جماعة من عنده الى الناس وسكنهم ووعدهم باخراج الفخر من عندهم وتقدم اليه بالعود الى هراة فعاد اليها

﴿ذكر مسير خوارزم شاه الى الرى﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش الى الرى وغيرها من بلاد الجبل لانه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغير عن طاعته فسار اليه فخافه مياجق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه فى طلبه يدعوه الى الحضور عنده وهو يمتنع فاستأمن اكثر أصحابه الى خوارزم شاه وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فسارت العساكر فى طلبه فأخذ منها وأحضر بين يدى خوارزم شاه فامر بحبسه بشفاعة أخيه أقجة وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد فلبس الخلعة واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى ارسلان كشاه وانتقل الى حصار ألموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالرى وكان قد تقدم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه الى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن على فقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فامر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهى من قلاعهم فحصرها فاذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار فقارقها وانما صالحهم لانه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول توفى مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم فى دولة نور الدين والمرجوع اليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل فى ذى الحجة سنة احدى وسبعين وخمسمائة وولى ابن ربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين على كوكجه سنة ثلاث وستين بقى هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم وكان عاقلا أديبا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويحفظ من التاريخ والاشعار والحكايات شيأ كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة اشهر وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة ويعرف الفقير المستحق ويبرهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذى بظاهر الموصل بباب الجسر وبنى الربط والمدارس والخانات فى الطرق وله من المعروف شئ كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعى المذهب وكان سبب ذلك أنه كان عنده انسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفننا فى كثير من العلوم فاوصل الى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروروذى الفقيه الشافعى فاوضح له مذهب الشافعى وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيا وبنى المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا واكثر رعاياهم فسعى الكرامية فى اذى

الاشتراك والاشتباك الى أن دعا السلطان داعى الاختبار الى سومه * اقامة الخطبة باسمه * وأنهض رسولا يتحزه العمل بما يقتضيه ظاهر حكمه * فصادف منه حرصا على الاجابه * وافتراضا لحق الطاعه * غير أنه عرض الحال فيه على من حوله من أعيان أشياعه وأتباعه * فأظهر وانفارا * وأصروا واستكبروا استكبارا * وقالوا نحن اتباعك وأطواعك * ما سلم لك الملك عن الاشتراك فأما اذا وضعت خدك للطاعة وضعنا السيوف على العواتق خلعا لك وتمليكا عليك وجهادا فيك فعاد الرسول الى السلطان بمبارأة عيانا * وسمعه بغيا وعدوانا * واحس القوم بجمرة الدم * من وراء جراتهم * على ولى نعمتهم * بالقول الفظيع * والرد الشنيع * وزعيمهم فى الامر يومئذ يالتكين البخارى صاحب الجيش فأوجسوا خيفه * وتوامروا على الفتك به غيله * ومازالوا فى

وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك وقيل ان غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما ان الناس في جميع البلاد يزدرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأى ان تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل ان شهاب الدين كان حنفيا والله أعلم وفى هذه السنة توفى أبو القاسم يحيى بن على بن فضلان الفقيه الشافعى وكان اماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجى النيسابورى

(ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك العادل الديار المصرية)

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الافضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما الى رأس الماء على عزم المقام بحوران الى ان يخرج الشتاء فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا لان البرد فى ذلك المكان فى الصيف موجود فكيف فى الشتاء فتغير العزم على المقام واتفقوا على ان يعود كل انسان منهم الى بلده ويعودوا الى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الاول فعاد الظاهر وصاحب حمص الى بلادهما وسار الافضل الى مصر فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته الاخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه الممالك الناصرية وقد حلفوه على ان يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك الى ان يكبر فساروا على هذا وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الافضل من الخشبى فسار كل منهم الى اقطاعه ليربعوا دوابهم فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل فأشار بعض الناس على الافضل ان يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السائح فى طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا وفى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره بمصر الافضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا الى عمه فى الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حران والرها فلم يجبه فنزل الى ميافارقين وحانى وجبل جور فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الافضل الى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحانى وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها فترددت الرسل بين الافضل والعادل فى ذلك والعادل يزعم ان ابنه عصاه فامسك عن المراسلة فى ذلك لعلمه ان هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز فى شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقق الجند فى اقطاعاتهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين ان شاء الله

(ذكر وفاة خوارزم شاه)

التدبير عليه * الى ان دخلوا ذات يوم اليه * على رسم السلام * فاذا هو صريع كاس الحمام * لا يدرى كيف قتل * ومن اى وجه اليه قد وصل * فبادروا الى العقد لاولاده * وبسطوا ايدى الاصفاق على بيعته * وعلموا ان السلطان يمتعض للحادثه ويقصد قصد الانتصاف للوارثه * فتحالفوا على مقارعته ان غزاهم فى عقر دارهم * وبزاهم على مسخوط آثارهم * ولما انتهى الى السلطان خبر صنيعهم بولى نعمتهم وهو قيم شقيقته * وحامى حقيقته * أزعجته قوة الحفاظ للانتقام من أولئك الغدرة الفجره * والمرقة الفسقه * فجاش لمناهضتهم على حمية صحبوره * وحفيظة على انتهاك ذات الله مقصوره * وكانت سعادة أيامه قد لفتت أولئك العتاة البغاة ما أتوه استحقاقا للنقمه * وبراءة من العصمه * وتمهيدا لعذره قربا وبعدا فى استخلاص مملكة كانت

في هذه السنة في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن ارسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها من البلاد الجبالية بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم وكان قد سار من خوارزم الى خراسان وكان به خوانيق فأشار عليه الاطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا الى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار اليهم وقد مات أبوه فولي الملك بعده ولقب علاء الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر بحمل أبيه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب ابي حنيفة ويعرف الاصول وكان ولده على شاه باصفهان فأرسل اليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه فسار اليه فنهب أهل اصفهان خزانته ورحله فلما وصل الى أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جنده اوسلم اليه نيسابور وكان هند وخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار الى مرو ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر ان لا تضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعل ذلك عقلا منه ومروءة ثم ان هند وخان جمع جمعا كثيرا بخراسان فسير اليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر التركي فلما سمع هند وخان بمسيرهم هرب عن خراسان وسار الى غياث الدين يستنجده على عمه فأكرم لقاءه وانزاله وأقطعه ووعده النصرة فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو وبها والدة هند وخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بارسالهم الى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل الى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره ان يرسل الى جقر يتهدده ويتوعده ففعل وسار من الطالقان فأخذ هراة والروذ والخمس قرى وتسمى بالفارسية پنج ده وارسل الى جقر يأمره بامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب اليه سرا يسأله ان يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته فكتب الى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم ان خوارزم شاه ليس له قوة فلهذا طاب جقر الانحياز اليه فقوى طمعه في البلاد وكتب الى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج الى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الاسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الاسلام وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة وجمع الاوباش فأحرقه فأخذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الاسلام وجماعة ممن سعى في ذلك فأغرمهم مالا كثيرا وبنى الوزير ايضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب وله آثار حسنة بخراسان باقية ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه فأشير عليه ان يستعفي فأرسل يقول اني صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولي السلطان فيه من يصلح له الى ان أكبر فان صلحت أصلح فأنا المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك وأنا وزيرك فكن مراجعي في الامور فانه لا يقف منها شيء فاستحسن الناس هذا ثم ان الصبي

الى عزا يالله نازعه * ولباب الاقبال برفق سياسته تقارعه * وبحر الجحافل كالجبال سائره * والجبال زاخره * حتى أناخ بعقوتهم مستعينا بالله على قتالهم * واستنزالهم الى مناهل آجالهم * وشاور صاحب الجيش الخوارزمي عامة قواده في ركضة على طلائع السلطان بياتا تعضهم بأنياب الحديد ان لم تسلمه للتشريد والتبديد * وطار تحت خوافي الليل حتى انقض على أبي عبد الله محمد ابن ابراهيم الطائي وهو طليعة السلطان في كماة العرب حين أنفض الكرى رؤسهم * وشغل برد الصباح نفوسهم * واختلط البعض بالبعض ضربا بالسيوف القواصل * وطعنا بالرماح الذوابل * فطار الخبر الى السلطان بركض القوم فزحف بجيوشه الى معترك الحرب وثبتت العساكر الخوارزمية من لدن طلوع الشمس الى أن حمي وطيس النهار جاهدين في القراع * ومجاهدين دون المساكن والرباع * يظنون

لم تطل أيامه فتوفى قبل خوارزم شاه بيسير وفى هذه السنة فى ربيع الاول توفى شيخنا ابو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرانى المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالى الاسناد فى الحديث وكان ثقة صحيح السماع وفى ربيع الآخر منها توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب لم يكن فى زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان دينا كثير الصدقة والعبادة وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الاسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع الى قوله رحمهما الله

(ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها)

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وانه لما فعل ذلك لم يرضه الامراء المصريون وخبثت نياتهم فى طاعته فراسلوا اخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم فاذا خرج اليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فملكا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل الملك العادل وانضاف الى ذلك ان النيل لم يزد بمصر الزيادة التى تركب الارض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان نفر الدين جهاركس قد فارق مصر الى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس لما أخذها منه بأمر العادل وكانت لامير كبير تركى اسمه بشارة قد اتهمه العادل فأمر جهاركس بذلك وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من الحج وقارب صرخد نزل الملك الافضل فلقيه وأكرمه ودعاه الى نفسه فأجابه وحلف له وعرفه الافضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وانما حلف ليتكشف له الامر فلما فارق الافضل أرسل الى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فارسل الى ولده الذى بدمشق يأمره بحصر الافضل بصرخد وكتب الى اياس جركس ومهون القصرى صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الافضل وسمع الافضل الخبر فسار الى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الاولى من السنة ووصل الى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه الى عمه العادل فنعه العادل من الوصول اليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار الى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فانه سار الى بصرى وارسل الى جهاركس ومن معه وهم على باتياس يحصرونها يدعوهم اليه فلم يجيبوه الى ذلك بل غالطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق وارسل الامير أسامة اليهم يدعوهم الى مساعدته فاتفق انه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول وتعدى الى الفعل باليد وثار العسكر جميعه على أسامة فاستدعى بعيون قاتله وأعاده الى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظاهر بحضر

أن يظفروا وقد غدروا بمن
رباهم فى حجور الانعام *
وأرواهم من ندى الاكرام *
هيهات ان الغدر قلادة
منظومة أحد طرفيها عاجل
العار * وثانيه آجل النار *
ولم تشرق الشمس على
التكميد حتى أضحت
الخيول ثم الفيول رجالا *
حكوا جمالا * قد قصفت
أصلابهم * وانتهبت أسلابهم *
وفلقت بالسيوف هامهم *
وبضعت بها أجسامهم *
وانهزم الباقون فى خمر
الغياض على شاطئ جيحون
والصوارم من ورائهم *
تخطب أرواحهم حتى اذا
واقعتها نحلتها الطلا فى
صدافا واستأسرها خمسة
آلاف حتف الله دماءهم
عبرة للنظار * وعظة
لامثالهم من الغدرة
الفجار * وركب البخارى
ظهر الماء موائلا فى الهرب
ومقدرا خلاصه من
العطب * ولم يدر أن فعله
السوء يجزيه * واقدامه
على ولى نعمته يرديه * وان
حافر البئر لاخيه * ساقط
لامحالة فيه * وجرت فى

ابن صلاح الدين وانزلوه من صرخد وارسلوا الى الملك الظاهر والافضل يحثونهما على الوصول اليهم والملك الظاهر يتربص ويتوقف فوصل من منبج الى حماة فى عشرين يوما وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين الى تاسع عشر شهر رمضان فاصطلحا وحمل له ابن تقى الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها الى حمص وسار منها الى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم الملك الناصر يوسف مع الملك الظاهر فحضروا عند صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الافضل انهم اذا ملكوا دمشق تكون بيد الافضل ويسيرون الى مصر فاذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق فيبقى الشام جميعه له وتبقى مصر للافضل وسلم الافضل صرخد الى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر فى خدمته وانزل والدته وأهله منها وسيرهم الى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها وكان الملك العادل قد سار من مصر الى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر الى دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وزحفوا الى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذى القعدة واشتد القتال عليها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوى الطمع فى أخذها ثم زحفوا اليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق الا ملكها الان العسكر صعد الى سطح خان بن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الافضل فارسل اليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه الى مصر فقال له الافضل قد علمت ان والدتى وأهلى وهم أهلك أيضا على الارض ليس لهم موضع يأوون اليه فاحسب ان هذا البلد لك تعيرنا اياه ليسكنه أهلى هذه المدة الى ان يملك مصر فلم يجبه الظاهر فى ذلك وبلغ فلما رأى الافضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء اليهم من الجند ان كنتم جئتم الىّ فقد أذنت لكم فى العود الى العادل وان كنتم جئتم الى أخى الظاهر فأنتم وهو أخبر وكان الناس كلهم يريدون الافضل فقالوا ما نريد سواك والعادل أحب الينا من أخيك فاذن لهم فى العود فهرب فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجة الذى أعطاه الافضل صرخد فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد الى اقطاعه فلما انفسخ الامر عليهم عادوا الى تجديد الصلح مع العادل فتردد الرسل بينهم واستقر الصلح على ان يكون للظاهر منبج وافامية وكفرطاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج ورأس العين وحلين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الافضل حمص فأقام بها وسار الظاهر الى حلب ووصل العادل الى دمشق تاسع المحرم وسار الافضل اليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده الى حمص وسار منها ليتسلم سميساط فتسلمها وتسلم باقى ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها

(ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا سير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرو وزوذ وسؤال جقر التركى نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون فى جملة عسكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن خرميل الى غياث الدين فى معنى جقر علم ان هذا انما دعاه الى الانتماء اليهم ضعف صاحبه

الزورق بينه وبين بعض أضرابه منافرة حملته على الاستيثاق منه وبعث الملاح على استقبال المعسكر بوجه الزورق فلم ينشب الا يسيرا * حتى حصل فى يد السلطان أسيرا * وأحضره السلطان بمجلسه فى سائر القواد المأسورين يسأله واياهم عن استحلالهم دم صاحبهم من غير داعيه * واجترائهم عليه من غير وطأة عاتبه فرد جواب المستبسل المستقتل وأما الباقون فسقط فى أيديهم لا يدرون * ماذا يردون * وذلك سنة ثمان وأربعمائة وأمر السلطان بضرب الاعواد والجذوع تجاه مقبرة صاحبهم ابى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه وصلبهم أجمعين * عليها مع عدة ممن اتهمهم بالدين * وعدهم معدا الناكبين عن قصد السبيل وأمر بالكتابة على جدران تلك المقبرة بأن هذا قبر فلان بن فلان بغى عليه جشمه * واجترأ على دم مخدمه * فقيض

فارسل الى أخيه شهاب الدين يستدعيه الى خراسان فسار من غزنة فى عساكره وجنوده وعدته ومايحتاج اليه وكان بهراة الامير عمر بن محمد المرغنى نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين الى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدها وترك المسير اليها فأنكر عليه ذلك وأراد ابعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين فى عساكره وعساكر سجستان وغيرها فى جمادى الاولى من هذه السنة فلما وصلوا الى ميمنة وهى قرية بين الطالقان وكرزيان وصل الى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها اليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسار اليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمى وقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد فى قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور فطلب أهل البلد الامان فأمنهم وكف الناس عن التعرض اليهم وخرج جقر الى شهاب الدين فوعده الجميل ثم حضر غياث الدين الى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيره الى هراة مكرما وسلم مرو الى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش الى غياث الدين ووصاه بالاحسان الى أهلها ثم سار غياث الدين الى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها الى الامير زنكى بن مسعود وهو من أولاد عمه واقطعه معها نساوابيورد ثم سار بالعساكر الى طوس فأراد الامير الذى بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فأغلق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبز ثلاثة أمناء بدينار ركنى فضج أهل البلد عليه فارسل الى غياث الدين يطلب الامان فأمنه فخرج اليه فخلع عليه وسيره الى هراة ولما ملكها أرسل الى على شاه بن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره ان أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع على شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا مابظاهره من العمارة وقطعوا الاشجار وسار غياث الدين الى نيسابور فوصل اليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين الى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو وهم يريدون يفتحون نيسابور فيحصلون بالاسم فاحمل الى البلد ولا ترجع حتى تصل السور فحمل وحمل معه وجوه الغورية فلم يردهم أحد عن السور حتى اصعدوا علم غياث الدين اليه فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لاصحابه اقصدوا بنا هذه الناحية واصعدوا السور من ههنا وأشار الى مكان فيه فسقط السور منهدما فضج الناس بالتكبير وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر الى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فقد حل فأعاد الناس مانهبوه عن آخره ولقد حدثنى بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور فى هذه الحادثة نهب من متاعى شئ من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا ومن وبقى لى بساط وشئ من السكر مع جماعة فطلبته منهم فقالوا أما السكر فاكلناه فسألتك أن لا يسمع أحد وان أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم فى حل منه ولم يكن البساط مع أولئك قال فمشيت الى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لى فطلبوا ممن يشهد به فأحضرت من شهد لى وأخذته ثم ان الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ على شاه بن

اقتله يمين الدولة * وأمين الملة * حتى انتصر له منهم وصلبهم على الجذوع عبرة للناظرين * وآية للعالمين * وأمر من بعد بالاسرى فوضعت الاغلال فى أعناقهم يقادون الى غزنة دار الملك فوجا بعد فوج حتى اذا حصلوا بها وقد امتلأت منهم العيون * وغصت بهم المحابس والسجون * من عليهم بالافراج وفرض لهم فى جملة سائر الجيش والاجناد ووضعهم مواضع أمثالهم من ديار الهند وبايا يحصون أقطارها * وينفضون عن وجوه العيث مناكبها وأطرارها * وولى خوارزم حاجبه الكبير التونتاش فأقام بها قاعما بحوم الفساد * وفاقئا عيون الفتن والعناد * الى أن نضب ماؤهم * وأذعن للسلطان اقناؤهم * واستقرت تلك الاسباب * ودرت الاحلاب * وذلك تقدير العزيز العليم

* (ذكر فتح صهرة وقنوج) *

ولما فرغ السلطان يمين

خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الامر فيه وحضرت دابة كانت لعلي شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الامراء الخوارزمية الى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبي الغوري وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل الى هراة وسلم على شاه الى أخيه شهاب الدين وأحسن الى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا ثم رحل بعده شهاب الدين الى ناحية قهستان فوصل الى قرية فذكر له ان أهلها اسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الاموال وسبي الذراري وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار الى كناباد وهي من المدن التي جميع أهلها اسماعيلية فنزل عليها وحصرها فارسل صاحب قهستان الى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهدنا الذي بدأنا حتى تحاصر بلدي واشتد خوف الاسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الامان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها الى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الاسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للاسماعيلية فوصل اليه رسول أخيه غياث الدين فقال الرسول معي تقدم من السلطان فلا يجري حوادث فعلته فقال لا أرحل قال اذن افعل ما أمرني قال افعل فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين وقال ارحل يتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والعسكر وهو كاره الى بلد الهند ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه

(ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما)

في هذه السنة أيضا تجهز نور الدين ارسلان صاحب الموصل وجمع عساكره وسار الى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها وكان سبب حركته ان الملك العادل لما ملك مصر على ما ذكرناه قبل اتفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على ان يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الافضل والظاهر ارسلا الى نور الدين ليقصد البلاد الجزرية فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين وصاحب ماردين ووصل الى رأس العين وكان الزمان قيظا فكثرت الامراض في عسكره وكان بحران والد العادل يلقب بالملك الفائز ومعه عسكر يحفظ البلاد فلما وصل نور الدين الى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الامراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدا يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والافضل وانضاف الى ذلك كثرة الامراض في عسكره فأجاب اليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الامراء على القاعدة التي استقرت وحلفوا انهم يحالفون الملك العادل له فان امتنع كانوا معه عليه وحلف هو للملك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب العين من العادل فأجاب الى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نور الدين الى الموصل في ذي القعدة من السنة

(ذكر ملك شهاب الدين غزنة وما وراءها)

لما سار شهاب الدين من خراسان على ما ذكرناه لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب

الدين

الدولة من مهم خوارزم وقد انضافت كاحدى أخواتها الى سائر ممالكه الموشحة بآثار ولايته * الموشعة بأصباغ عدله ورعايته * رأى أن يختم صحيفة العام * بطابع الاستقام * اجمالا للركائب والركب * وتقليبا للرأي الغزو بين جوانح القلب * فعدل الى بست كالشمس قد جنحت للشمال * وجاوزت نقطة الاعتدال * فالدنيا بها حواشي المطارف * أو عواشر المصاحف * أو عقود المخانق * أو نهود المعصرات العواتق * يدبر أعمالها * ويروي فيما صار أحيى لها * الى أن أذن الله له تعالى في معاودة غزنة منشأ سحاب الفكر في غزوة تحقق اعجاز القرآن * بما تضمنه من وعد الله المنان * في اظهار دينه المرموم بسيد البشر * ومولى البدو والحضر * محمد تاج الانام * وسراج الظلام * صلى الله عليه وعلى آله الخيرة البررة الكرام * على الدين كله وان سخطت نفوس

الدين ايبك الى نهر والة فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقيه عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم ايبك واستباح معسكرهم ومالهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم الى نهر والة فملكها عنوة وهرب ملكها بجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين انه لا يقدر على حفظها الا بأن يقيم هو فيها ويخليها من أهلها فيتعذر عليه ذلك فان البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه اليه عاجلا وآجلا وأعاد عساكره عنها وسلمها الى صاحبها

(ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم)

فى هذه السنة فى شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاخيه معز الدين قيصر شاه فسار اليه وحصره أياما وملكها وسار منها الى ارزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا ارزن الروم مدة طويلة فلما سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا افتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدا

(ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود)

فى هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات وكان شديد الكراهة لاخيه هذا والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور فى آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه اياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتهدد وزيرا كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فارسلوا الى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل الى آمد وقد سبقه اليها اياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار الى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الاقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقهم عليه وباء وموت كثيرا فى الناس وفى شعبان منها تزلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت فى الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت فى الساحل الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا وانابلس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة الى بلاد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل وفى هذه السنة فى شهر رمضان توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة فى الناس لاسيما فى العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسمائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير الفخرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان مولده ببغداد وفيها توفى العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد اوله باللام المشددة وهو العماد

وضربت خدود ورجمت معاطس وأنوف بعد ان كانت الشقة قد بعدت عليه وعلى أعوان دين الله السائرين تحت رايته * بنور هدايته * اذ كانت الهند قد تحيفت من شواها وأطرافها سبيا وانتهابا * وملكت على أربابها سهوبا وشعابا * فلم يبق الا ما أجنه ضمير قشمير * ومن دونها فياف تصم عن كل عزيف وصفير * وتفصل بينها وفود الرياح الا بصفير * واتفق أن حشر اليه من أدنى ديار ما وراء النهر الى أقصى حدوده زهاء عشرين ألفا من مطوعة الغزاة وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم محتسبين للجهاد * منتدبين فى ذات الله للاستشهاد * يخطبون الجنان بصداق الارواح * ويستامون الغفران بجدود الصفاح * فحرك من السلطان نفيرهم * وذمر نفوس المسلمين تكبيرهم * واقتضى رأيه أن يزحف بهم الى قنوج وهى التى أعيت الملوك الماضين غير

الكاتب الاصفهانى كتب لنور الدين محمود بن زنكى ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضى الله عنهما وكان كاتبا مفلقا قادرا على القول وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجالة ما لا يحصى كثرة وكان قد انضاف اليه من جند المعز بن اسمعيل بن سيف الاسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفا منه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الاسلام خوفا عظيما فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة لبلا ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا اثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأتى الخبر ابن سيف الاسلام فى باقى الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقر أمره وفيها وقع فى بنى عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فوقع الوباء فى ثمان عشرة قرية فلم يبق منهم أحد وكان الانسان اذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقارب بها فتحاماها الناس وبقيت ابلهم وأغنامهم لا مانع لها وأما القريتان الاخريان فلم يمت فيهما أحد ولا أحسوا بشئ مما كان فيه أولئك

(ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده)

قد ذكرنا فى سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد ان أقطعا البلاد وسير شهاب الدين الى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل الى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد ان تخلف على بعد ابى وان تنصرنى على الخطا وترد هم عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من ان لا تؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده ان تعيد ما أخذته منى والا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الاتراك ان عجزت عن أخذ بلادى فانى انما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى والا فأنا بها جزعنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين فى الجواب ليمهد الايام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر فان غياث الدين كان عاجزا باستيلاء الكفرس عليه فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل الى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده ان لم يفعل فكتب علاء الدين الى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد الى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قارب نساوا بيورد هرب هند وخان ابن أخى ملك شاه من مرو الى غياث الدين بفيروزكوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار الى نيسابور وبها علاء الدين فحصره وقاتله قتالا شديدا وطال مقامه عليها وراسله غير مرة فى تسليم البلد اليه وهو لا يجيب الى ذلك انتظارا للمدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل الى خوارزم شاه يطلب الامان لنفسه ولمن معه من الغورية وانه لا يتعرض اليهم بحبس ولا غيره من الاذى فأجابه الى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه

كشتاسب على ما يزعمه المجوس وهو كيش أقرانه * وملك الاملاك بزعمهم فى زمانه * فشار * وبين غزنة داره الملك وخطة قنوج مسيرة ثلاثة أشهر للراكب القود * والخوانف السود * فاستخار ربه وسار * وهجر النوم والقرار * واستصحب من شهد من أنصار دين الله * وأعوان حق الله * رجالا يقتحمون أشداق المنايا شوقا الى السعادة * بالشهادة * وحرصا على الموعود من الحسنى وزيادة * وعبر مياه سيحون وجيلم وجندراهة وايرابه وبيت هرزوشتلدر سالما فى سالمين * وهذه أودية تضل أعماقها عن الاوصاف * وتمتنع أطرافها على الاطواف * منها ما يغمر غوارب الفيول * فكيف كواهل الخيول * ويدهده ثقال الصخور * فكيف خفاف المطايا والظهور * صنعا من الله لمن والاه * وغرر بروحه فى استدامة رضاه * ولم يطأ مملكة من تلك الممالك الا أتاه الرسول واضعا له خد الطاعة *

اليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين ان يسعى فى الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فأجابه الى ذلك وسار الى هراة وفيها اقطاعه ولم يمض الى غياث الدين تجنيا عليه لتأخر أمداده ولما خرج الغورية من نيسابور احسن خوارزم شاه الى الحسين بن خرميل وهو من اعيان امرائهم زيادة على غيره وبالغ فى اكرامه فقيل ان من ذلك اليوم استخلفه لنفسه وان يكون معه بعد غياث الدين واخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه الى سرخس وبها الامير زنكى فحصره اربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة فضاقت الميرة على اهل البلد لاسيما الحطب فأرسل زنكى خوارزم شاه يطلب منه ان يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو واصحابه ويترك البلد له فراسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسن اليه والى من معه فلم يجبه الى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فابعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكى فأخذ من الغلات وغيرها التى فى المعسكر ما أراد لاسيما من الحطب وعاد الى البلد واخرج منه من كان قد ضاق به الامر وكتب الى خوارزم شاه العود اليه فقدم حيث لم ينفعه الندم ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الامراء يحصرونه فلما بعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان وهو من امراء الغورية وارسل الى زنكى امير سرخس يعرفه انه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج اذا سمع الغلبة وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنكى والتقى محمد بن جربك وعسكر فى مرو الروذ واخذ اخرابها وما يجاورها فسير اليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بات فى يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله والقى علمهم وكسر كوساتهم فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا اعلامهم فانهزموا وركبهم الغورية قتلا واسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك فى تسعمائة فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد الى خوارزم وارسل الى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته مع امير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغنى ومرغن من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه

(ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها)

لما أرسل خوارزم شاه الى غياث الدين فى الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مغالطا قبض خوارزم شاه على الحسين وسار الى هراة ليحاصرها فكتب الحسين الى أخيه عمر بن محمد المرغنى أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة ان رجلين أخوين ممن كان يخدم محمدا سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه فأكرمهما غياث الدين وأحسن اليهما يقال لاحدهما الامير الحاجى فكاتبا خوارزم شاه واطمعاه فى البلد وضمنا له تسليمه اليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الامير عمر المرغنى أمير البلد مفاتيح الابواب اليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه انهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده فاتفق ان بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغنى عند خوارزم شاه بحال الرجلين وانهما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم يصدقه وأتاه بخط الامير حاجى فاخذه وأرسله الى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ اصحابهما ثم ان ألب غازى وهو ابن اخت غياث الدين جاء فى عسكر من الغورية فنزل على

عارضا فى الخدمة كنه الاستطاعه * الى أن جاءه جنكى بن سهى صاحب درب قشمير عالما بأنه بعث الله الذى لا يرضيه الا الاسلام مقبولا * أو الحسام مفلولا * فأظهر العبودية عن ساضر التوفيق * وضمر الارشاد فى الطريق وجعل بسير أمامه هاديا * ويجزع واديا فواديا * وكلما انتصف الليل آذن بالمسير خفق الطبول * واستوى أولياء الله على الخيول * يجشمون تعب الركض والسلوك * الى أن تجنح الشمس من غد للدلوك * حتى استظهر ما جون لعشر بقين من رجب سنة تسع وأربعمائة ومازال يفتح الصياصى والقلاع مبنية على ربود الجبال * وحروف القلال * بحيث تألم متالع الاعناق * متى شخصت اليها نواظر الاحداق * الى أن شافه قلعة برنقمن ولاية هردب وهو أحد الرأيين أعنى الملوك بلغة الهند فاطلع على الارض اطلاعة وهى تموج بأنصار حق الله

خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم ان خوارزم شاه سير عسكرا الى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروزكوه الى هراة فى عسكره فنزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة عسكره لان أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لانه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب الب غازى وسمع أيضا ان شهاب الدين قد خرج من الهند الى غزنة وكان وصوله اليها فى رجب من هذه السنة فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل الى أمير البلد عمر المرغنى فصالحه على مال حمله اليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فانه لما وصل الى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار الى خراسان فوصل الى بلخ ومنها الى باميان ثم الى مرو عازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقت أوائل عسكريهما واقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم ان خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم وقطع القناطر وقتل الامير سنجر صاحب نيسابور لانه اتهمه بالمخامرة عليه وتوجه شهاب الدين الى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المصير الى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة درّس مجد الدين أبو على يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى بالنظامية ببغداد فى ربيع الاول وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستنصر بامر الله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة وفيها أيضا توفى الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعى خطيب دمشق وكان فقيها شافعيا والدولعية قرية من أعمال الموصل

(ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها)

فى هذه السنة فى المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الاشرف موسى الى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وانضاف اليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بخرزم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهى لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادلى فسار اليهم طائفة من العسكر العادلى فاقتتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركمان وقطعوا الطريق فى تلك الناحية واكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق الا لجماعة من أرباب السلاح فسار طائفة من العسكر العادلى الى رأس العين لاصلاح الطرق وكف عادية الفساد واقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب فى الصلح بينهم وأرسل الى عمه العادل فى ذلك فاجاب اليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار بغاء صرف الدينار احد عشر قيراطا من أميرى ويخطب له ببلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره فى خدمته أى وقت طلبه وأخذ الظاهر عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادى من أعمال شجستان فرحل ولد العادل عن ماردين

*(ذكر

مسومة من فوقها التراتك * ومن حولها الملائك * فتزلزلت قدمه * وأشفق من أن يستباح دمه * فرأى أن يتقى بالاسلام بأس الله وقد شهرت حدوده * ونشرت بعذبات العذاب بنوده * ونزل فى نحو عشرة آلاف منادين بدعوة الاسلام * متفادين عن ولاية الاصنام * فحقق الله تعالى ميعاده * وأحسن بفضله اسعادهم واسعاده * نعم محرك وامتد به الوجيف بعده * الى قلعة كلجند * وهو من أعلام الشياطين * وأعيان أوائل الملاعين * يدل على الملوك بعز أقعس * ويرنو الى القروم بطرف أشوس * قد قضى فى الكفر معظم عمره * وغفى بهيبة الملك وبسطة الامر عن تحشيم بيضه وسمره * ولم يقصده أحد الا ارتد عنه مخذولا * وعاد عقده عليه محلولا * عزة حال وكثرة مال * وقوة رجال وعدة افيال * ووثاقة معاقل وحصون * وملك عن مطامع الانام ومطامح الوهن والاثلام مصون *

(ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشئ من سيرته)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغورى صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين ببطوس عازما على قصد خوارزم شاه فاتاه الخبر بوفاة أخيه فسار الى هراة فلما وصل اليها جلس للعزاء باخيه فى رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من اخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف ببرو الامير محمد بن جربك فسار اليه جماعة من الامراء الخوارزمية فخرج اليهم محمد ليلا وبيتهم فلم ينج منهم الا القليل وأنفذ الاسرى والرؤس الى هراة فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركى الى قتال محمد بن جربك فسمع بهم فخرج اليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتتلوا قتالا شديدا قتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغوريه ودخل محمد بن جربك مرو فى عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فأرسل فى طلب الامان فحلفوا له ان خرج اليهم على حكمهم انهم لا يقتلونه فخرج اليهم فقتلوه وأخذوا كل ما معه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح وارادا العود الى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه البب غازى وفلك الملك علاء الدين محمد بن ابى على الغورى على مدينة فيروزكوه وجعل اليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالمملكة وأتاه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست واسفزار وتلك الناحية وجعله يعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله فمن جملة فعله ان غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيرهم الى بلاد الهند فكانوا فى أقبح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فانه كان مظفرا منصورا فى حروبه لم تنهزم له راية قط وكان قليل المباشرة للحروب وانما كان له دهاء ومكر وكان جوادا محسنا الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان بنى المساجد والمدارس بخراسان لاصحاب الشافعى وبنى الخانكاهات فى الطرق واسقط المكوس ولم يتعرض الى مال احد من الناس ومن مات ببلده يسلم ماله الى اهل بلده من التجار فان لم يجد أحدا يسلمه الى القاضى ويختم عليه الى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع وكان اذا وصل الى بلد عم احسانه اهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الاعطيات كل سنة من خزانته ويفرق الاموال فى الفقراء وكان يراعى كل من وصل الى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم وكان فيه فضل غزير وادب مع حسن خط وبلاغة وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها فى المدارس التى بناها ولم يظهر منه تعصب على مذهب ويقول التعصب فى المذاهب من الملك قبيح الا انه كان شافعى المذهب فهو يميل الى الشافعية من غير ان يطعمهم فى غيرهم ولا اعطاهم ما ليس لهم

(ذكر اخذ الظاهر قلعة نجم من اخيه الافضل)

فلما رأى السلطان قد قصد قصده * وجرد لجاهدته جهده * رتب فيوله وخيوله * وراء غياض لو رميت بافراد الابر * لاثقبتها الارض بأوراق الشوك والشجر * وأغرى السلطان به بعض طلائع جيوشه فثاروا اليهم يخرقون تلك الآجام خرق الامشاط منابت الشعور * بل الاشافى مخارز السبور * وأعرض للسلطان طريق من فوق القلعة المذكورة فلم يرع أهلها الا البحر الاخضر * والله أكبر والسيوف لا تبقى ولا تذر فنثروا للجلاد مستقتلين وتواصلوا بالمنايا مستبسلين * والسيوف تأخذهم من فوق وقدام * وتضعهم ما بين لحوم وعظام * وحلاتهم بينها تتصل اتصال الكعوب * وضرباتهم تتوالى توالى الغيث المصبوب * غيران الله منزل الحديد * ذى البأس الشديد * هو الذى اذا شاء قطع * واذا شاء نبا وامتنع * كذلك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع احيانا مناط القلائد

فى هذه السنة أخذ الظاهر غازى قلعة نجم من أخيه الافضل وكانت فى جملة ما أخذ من العادل لما صالحه سنة سبع وتسعين فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الافضل سروج وحلين ورأس العين وبقى بيده سميساط وقلعة نجم فأرسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم وضمن له انه يشفع الى عمه العادل فى اعادة ما أخذ منه فلم يعطه فهم قدده بان يكون الباء عليه ولم تزل الرسل تتردد حتى سلمها اليه فى شعبان وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالا فلم يفعل وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه فى مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها لاخيه وأما العادل فانه لما أخذ سروج ورأس العين من الافضل أرسل والدته اليه تسأل فى ردها فلم يشفعها وردها خائبة ولقد وقب البيت الصلاحى بما فعله أبوهم مع البيت الاتابكى فانه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عم نور الدين اليه يسأله ان يعود فلم يشفعهما فجرى لاولاده هذا وردت زوجته خائبة كما فعل ولما رأى الافضل عمه وأخاه قد أخذا ما كان بيده ارسل الى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة وأن يكون فى خدمته ويخطب له ببلده و يضرب السكة باسمه فاجابه ركن الدين الى ذلك وأرسل له خلعة فلبسها الافضل وخطب له بسميساط فى سنة سبعمائة وصار فى جملته

(ذكر ملك الكرج مدينة دوين)

فى هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من اذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا القتل فى اهلها وكانت هى وجميع بلاد اذربيجان للامير ابى بكر بن البهلوان وكان على عادته مشغولا بالشرب ليلا ونهارا لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر فى امر مملكته ورعيته وجنده فداتى الجميع عن قلبه وسلك طريق من ليس له علاقة وكان اهل تلك البلاد قد اكثرت الاستغاثة اليه واعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد اخرى فكانهم ينادون صخرة صماء فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون فلم يغثهم وخوفه جماعة من امرائه عاقبة اهماله وتوانيه واصراره على ما هو فيه فلم يصغ اليهم فلما طال الامر على اهلها اضعفوا وعجزوا واخذهم الكرج عنوة بالسيف وفعلوا ما ذكرناه ثم ان الكرج بعد ان استقر امرهم بها احسنوا الى من بقى من اهلها فالله تعالى ينظر الى المسلمين و يسهل لثغورهم من يحفظها او يحميها فانها مستباحة لاسيما هذه الناحية فانا لله وانا اليه راجعون فقد بلغنا من فعل الكرج باهل دوين من القتل والسبى والامر ما تقشعر منه الجلود

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة احضر الملك العادل محمدا ولد العزيز صاحب مصر الى الرها وذلك انه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين كما ذكرنا خاف شيعة ابيه ان يجتمعوا عليه ويصيروا معهم فتنة فاخرجه سنة ثمان وتسعين الى دمشق ثم نقله هذه السنة الى الرها فاقام بها ومعه جميع اخوته واخواته ووالدته ومن يخصه وفيها فى رجب توفى الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروروذى الفقيه الشافعى وهذا الذى كان السبب فى ان صار غياث الدين شافعيا وفى ربيع الاول منها توفى ابو الفتح عبيد الله بن ابى المعمر الفقيه الشافعى المعروف بالمستملى ببغداد وله خط

فان نالت من أولياء الله فلا أجر الاستشهاد * وثواب المعاد * وان نبت فلا يجاز القدرة * واظهار العبرة * ليعلم ان الحكم له فى كل مخذول * ومعصوم * ومحروس ومقصوم * وظل المخاذيل يقتاسمون بينهم * وقد عاينوا سيوفهم نابية * وسيوف أهل الحق عليهم ماضية * وحملاتهم واهية * وحملات أهل الدين أولى وثانية * ما هؤلاء من جنس الانس * ولا من زمر البشر * هيهات ان وقع الحديد ليعز فى الجبال * ولا حزله فى هؤلاء الابطال * حتى اذا مثل لهم شخص الطغيان * فى صورة الخذلان تواصوا باقتحام ما وراءهم من زخارة المياه يظنون انها تقيهم بأس الانتقام * وتحميهم كأس الحمام * اولا يرون ان الكفر لا يهدى سبيله * وان الله يردى بكثير ما يحيى قليله * لاجرم ان صفائح الماء * وافقت صفاح الدهماء * فأوسعوا قتلا واسارا * وأغرقوا فأدخلوا نارا * ولعل عدد القتلى بالغرق يزيد على خمسين الفا

حسن وفي ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله واخرجت جنازتها ظاهرة وصلى الخلق الكثير عليها ودفنت في التربة التي بنتها لنفسها وكانت كثيرة المعروف

(ثم دخلت سنة سبعمائة)

(ذكر حصار خوارزمشاه هراة ثانية)

في هذه السنة اول رجب وصل خوارزمشاه محمد الى مدينة هراة فحصرها وبها الب غازي بن أخت شهاب الدين الغوري ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين في الصلح فلم يتم وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة الى لهاور وعازما على غزو الهند فاقام خوارزمشاه على حصار هراة الى سلخ شعبان وكان القتال دائما والقتل من الفريقين كثيرا وممن قتل رئيس خراسان وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس وكان الحسين بن خرميل بكرزيان وهي اقطاعه فارسل الى خوارزمشاه يقول له ارسل الي عسكرا اسلم اليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فارسل اليه ألف فارس من أعيان عسكره الى كرزيان فخرج عليه هو والحسين بن محمد المرغني فقتلوهم الا القليل فبلغ الخبر الى خوارزمشاه فسقط ما في يديه وندم على انفاذ العسكر وارسل الى ألب غازي يطلب منه أن يخرج اليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه فلم يجبه الى ذلك فاتفق ان الب غازي مرض واشتد مرضه فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزمشاه البلد فاجاب الى ما طلب منه واستحلفه على الصلح وأهدى له هدية جليلة وخرج من البلد ليخدمه فسقط الى الارض ميتا ولم يشعر أحد بذلك وارتحل خوارزمشاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار الى سرخس فاقام بها

(ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزمشاه وانهزامه من الخطا)

في هذه السنة في رمضان عاد شهاب الدين الغوري الى خراسان من قصد الهند وسبب ذلك انه بلغه حصر خوارزمشاه هراة وموت ألب غازي نائبه بها فعاد حنقا على خوارزمشاه فلما بلغ ميمند عدل الى طريق أخرى قاصدا الى خوارزم فارسل خوارزمشاه يقول له ارجع الى لاحاربك والا سرت الى هراة ومنها الى غزنة وكان خوارزمشاه قد سار من سرخس الى مرو فاقام بظاهرها فاعاد اليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزمشاه عساكره وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين الى خوارزم فسبقه اليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فتعذر على شهاب الدين سلوكها واقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول الى خوارزم والتقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الاسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين وممن قتل من الغورية الحسين المرغني وغيره وأسر جماعة من الخوارزمية فامر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا وأرسل خوارزمشاه الى الاتراك الخطا يستنجدهم وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر فاستعدوا وساروا الى بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فلقي أوائلهم في صحراء اندخوى أول صفر سنة احدى وسبعمائة فقتل فيهم وأسر كثيرا فلما كان اليوم الثاني دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبقي شهاب الدين في نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال له لانها أعيت واخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه

أصبحوا طعما للنسور والضباع * وأقواتا للقاسية والحيتان * وعمد كلجند الى قتاله فأهلك بها عرسه * ثم كر فألحق بها نفسه * واغنم الله السلطان مائة وخمسة وثمانين رأسا من الفيلة الضخام * مضافة الى سائر ما اطرد عليه حكم الاغتنام * من نعم الله الجسام * وقسمه الراجحة بالاقسام * ولما وضعت تلك الحروب أوزارها * وحلت له الغنائم أزرارها * عطف عنانه الى شط البلد * الواقع عليه اسم المتعبد * وهو الذي بناه مهرة الهند يطالع ابنيتها التي يزعم أهلها انها من صنيع الجنان * دون الانسان * ابداع أساس وسقوف * وابجاز اوساط وسروف * فرأى ما يخالف العادات * وتفتقر رواياتها الى الشهادات بل المشاهدات بلد ما بقي السور * من صم العصور * وقد أشرع بابان منها الى الماء المحيط به موضوعة أبنيتها فوق شواخص الفلال صيانة لها من مضار سيول الماء * ومغار غيوث السماء * وعن جنبتيها الف قصر شبيهة بسائر الابنية في الوثاقة مشتملة على بيوت أصنام

قد هندمت مفاصل اعراقها
بسام سير تساوى سطوح
البناء * وتوارى ماوراءها
من الحز وزنحت الخفاء *
وفى صدر البلد بيت أصنام
يحكى اخوانه أو احسن *
ويجرى مجرى أضرابه بل
أتقن * لايهتدى الكتاب
بأقلام الدواة * ولا النقاشون
بأطراف الخامات * الى
أمثالها تحسينا وتزويقا *
ونقوشا تختطف الابصار
بريقا * . وكان فيما كتب
السلطان به انه لو أراد مريد
أن يبنى مايعادل هذه
الابنية لعجز عنه بانفاق
مائة ألف ألف درهم فى
مدة مائتى سنة على أيدى
عملة كملة * ومهرة مهرة *
وفى جملة الاصنام خمسة
من الذهب الاحمر مضروبة
على قدر خمسة أذرع فى
الهواء منصوبة * قد ألقمت
عينا واحدة منها ياقوتتين
لو بيع منهما على السلطان
لابتاعه بخمسين ألف
دينار استرخاصا * ولم يستثن
فيه دركا ولا خلاصا *
وعلى آخر قطعة ياقوت
أزرق رياما من ريق الماء *
وبريق البهاء * تتزن أربعمائة
وخمسين منقالا * وخرج

على أن يعطيهم فيملا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر فى جميع بلاده بانه قد عدم وكثرت الارا جيف بذلك ثم وصل الى الطالقان فى سبعة نفر وقد قتل اكثر عسكره ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شئ فاخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع مايحتاج اليه وسار الى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لانه قيل له عنه انه شديد الخوف لانهزامه وانه قال اذا سار السلطان هربت الى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد اليها فمنعه مستحفظها فعاد الى داره فاقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين فى البلاد وقطعوا الطرق وقتلوا كثيرا فلما عاد شهاب الدين الى غزنة بلغه مافعله الدز فاراد قتله فشفع فيه سائر المماليك فاطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين فى البلاد فقتل من المفسدين من ثلث الامم نفرا كثيرا وكان له أيضا مملوك آخر اسمه ايلدز بال تر فسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ الاموال السلطانية وأساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك ويحسنه له انسان اسمه عمر بن يزان وكان زنديقا ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الاموال فاخاف الطريق فبلغ خبره الى شهاب الدين فسار الى الهند وأرسل اليه عسكرا فاخذوه ومعه عمر بن يزان فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما فى جمادى الآخرة من سنة احدى وسبعمائة ولما رآهم قتلى قرأ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا الآية وأمر شهاب الدين فى جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والاخذ بثارهم وقيل كان سبب انهزامه انه لما عاد الى الخطا من خوارزم فرق عسكره فى المفازة التى فى طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والاسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع اليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين فى ساقة العسكر فى عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضعاف أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه فى اندخوى فجرى بينهم فى عدة أيام اربعة عشر مصافا منها مصاف واحد كان من العصر الى بكرة الغد ثم انه بعد ذلك بعث طائفة من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا اليه بكرة كأنهم قد أتوه مددا من بلاده فلما نعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما وهو فى طاعة الخطا وقد خاف على الاسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين فقال لهم ان هذا الرجل لانجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم تظفروا به والامداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ تطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه والرأى لنا الصلح معه فاجابوا الى ذلك فارسلوا اليه فى الصلح وكان صاحب سمرقند قد أرسل اليه وعرفه الحال سرا وأمره باظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه أخيرا فلما أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الامداد وطال الكلام فاصطلحوا على ان الخطا لايعبرون النهر الى بلاده ولا يعبر الى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد الى بلاده والباقى نحو ما تقدم

* (ذكر

﴿ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان﴾

فى هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغورى من عند مقدم الاسماعيلية بخراسان برسالة انكرها فامر علاء الدين محمد بن أبى على متولى بلاد الغورية بالمسير اليهم ومحاصرة بلادهم فسار فى عساكر كثيرة الى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزمشاه ونزل علاء الدين على مدينة قاين وهى للاسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ماذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فاخذه وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل الى هراة ومنها الى فيروزكوه

﴿ذكر ملك القسطنطينية من الروم﴾

فى هذه السنة فى شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم بها تزوج أخت ملك أفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وعمل عينه وسجنه فهرب ولده ومضى الى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس فاخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع فى سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى اطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبى فالقوا النار فى البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام فى البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الاناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبى الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الاولى سنة ستمائة فاقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فارسلوا الى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد وشوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة ايام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فاصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى سوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بايديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا

من وزن قدمى أحد الاصنام المذكورة أربعة آلاف وأربعمائة مثقال * وكانت جملة الذهبيات الموجودة عن اجرام الاشخاص المنصوبة ثمانية وتسعين ألفا وثلثمائة مثقال وزادت الفضيات منها على مائتى قطعة لم يمكن وزنها الا بعد التفصيل والعرض على كفف المعايير * وأمر السلطان بسائر بيوت الاصنام فضربت بالنفط والضرام * وجعلت سقوفها مواطئ الاقدام * وسار من بعد قد مايروم فتوح * وقد اشتق له الفال من تصحيفه فتوحا * وعده صنعا من الله ممنوحا * وخلف وراءه معظم العسكر تطميعا لراجيال ملكها فى الثبات خلفة الزحام * وتقبيحا له قبل اللقاء صورة الانهزام * اذ كان أمراء الهند على غلب رقابها * وقوة أسبابها وأصحابها * اطواعا لرأى فتوح اعتزازا بمكانه * واغتزازا بفخامة شانه * ولم يعبر على قلعة من قلاع تلك الرباع الا وضعها بالارض وعرض أهلها على الاسلام أو السيف * وحاز من السبايا والنهاب * والنعم الرغاب * مايعجز أنامل

عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين وهم موا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والآخر يقال له كندافلند وهو اكثرهم عددا فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزنيق ولاذيق فلم يحصل لاحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم واما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان ومن جملتها ازنيق ولاذيق فانها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه لشكري وهي يده الى أن توفي

﴿ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية﴾

في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك ان نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة اولا فاتفقا وسار معه الى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة الى قطب الدين واستماله فمال اليه وخطب له فلما سمع نور الدين ذلك سار الى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهي لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها عدة ايام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر ان مظفر الدين بوكبري بن زين الدين علي صاحب اربل قد قصد أعمال الموصل فنهب ينوى وأحرق غلاتها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين الى الموصل على عزم العبور الى بلد أرسل ونهبه جزاء بما فعل صاحبه ببلده فوصل الى مدينة بلد وعاد مظفر الدين الى بلده وتحقق نور الدين ان الذي قيل له وقع فيه زيادة فسار الى تل أعفر من بلد وهي لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما وكان الملك الاشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران الى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب اربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الاشرف اليها وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشري وسار نور الدين من تل أعفر الى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا فاتاه كتاب من بعض عمالكه يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس أخبارهم فبقي للهم في عينه ويطمعه فيهم ويقول ان أذنت لي لقيتهم بمفردي فسار حينئذ نور الدين الى بوشري فوصل اليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة وأتاه الخبر ان عساكر الحصن قد ركبوا

فركب

المساب * ووصل ثامن شعبان الى قنوج * وقد فارقها راجبال حين سمع باقدامه فراق من لا يرى الهزيمة عنه عارا ولا يعتد الفضيحة بها شنارا * وعبر السلطان الماء المسمى كنك * وهو الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه * ويرون من عبر الخلد في السماء مغترفه ان أحرق منهم ميت ذروه فيه بعظامه * وظنوه طهرة لآثامه * وربما أتاه الناسك من بعيد فغرق نفسه فيه * يرى ان ذلك ينجيه * وهو في العاجل بديه * وفي الآجل يمليه ويحزيه * ثم لا يميته ولا يحييه * وتتبع السلطان قلاع قنوج فاذا هي سبع مرضوعة على الماء المذكور * كالبحر المسجور * وفيها قريب من عشرة آلاف بيت للاصنام يزعم المشركون انها متوارثة لهم منذ ما قبل ألف سنة الى ثلثمائة ألف سنة كذبا وزورا * وقولا موزورا * وعدولا عن سنن الهدى وكفورا * وبحسب قدمتها كانت عبادتهم لها * واجهاشهم بالدعوات اليها * وقد شردعنها اكثر أهلها خيفة الايم واليتم * وحاول التكبير

فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يروا لهم أثرا فعاد الى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق كثير منهم فى القرى لتحصيل المألوفات وما يحتاجون اليه فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نور الدين وعسكره وتقدموا اليهم وبينهم نحو فرسخين فوصلوا وقد ازداد تعبهم والخصم مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضا وطلب الموصل فوصل اليها فى أربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الاشرف ومن معه فنزلوا فى كفرزمار ونهبوا البلاد نهبا قبيحا وأهلكوا ما لم يصلح لهم لاسيما مدينة بلد فانهم أفحشوا فى نهبها ومن أعجب ما سمعنا ان امرأة كانت تطبخ فرأت النهب فألقت سوارين كانتا فى يديها فى النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب ما فى البيت فرأى فيه بيضا فأخذه وجعله فى النار ليأكله فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد فى الصلح فوقف الامر على اعادة تل اعفر ويكون الصلح على القاعدة الاولى وتوقف نور الدين فى اعادة تل اعفر فلما طال الامر سلمها اليهم واصطلحوا أوائل سنة احدى وسبعمائة وتفرقت العساكر من البلاد

(ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم)

فى هذه السنة خرج كثير من الفرنج فى البحر الى الشام وسهل الامر عليهم بذلك ملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقاذه من المسلمين فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحى الاردن وسبوا وفتكوا فى المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل فى جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل عند الغور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على كفركنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والامراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها فلم يفعل فبقوا كذلك الى أن انقضت السنة وذلك سنة احدى وستمائة فاصطلح هو والفرنج على دمشق واعمالها وما بيد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصفات فى الرملة وغيرها واعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان فى قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج

(ذكر قتل كوجكة ببلاد الجبل وولاية ايتغمش)

قد ذكرنا قبل تغلب كوجكة مملوك البهلوان على الرى وهمذان وبلد الجبل وبقى الآن وكان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه ايتغمش وقدمه وأحسن اليه ووثق به فجمع ايتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوجكة فتصافوا واقتتل الفريقان فقتل كوجكة فى الحرب واستولى ايتغمش على البلاد وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك وايتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا ظالما وكان كوجكة عادلا حسن السيرة رحمه الله

(ذكر وفاة ركن الدين بن قلج ارسلان وملك ابنه بعده)

وفى هذه السنة سادس ذى القعدة توفى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية وكان موته بمرض القولنج فى سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب انكورية وتسمى

بآلهتهم الصم البكم * فمن
بين ناج أعانه نجاؤه * وثلو
أياده ثواؤه * ولم ينجه من
سيوف الحق أرضه ولا
سماؤه * ففتحها كلها فى يوم
واحد ثم أباحها لاهل
عسكره يتناهبونها طلقا
حلالا * ويتناوبونها وقتا
واذلالا * وركض منها الى
قلعة منج المعروفة بقلعة
البراهمة وهم حى لقاح *
وعتاة مالهم عن الفساد
فى تلك البلاد براح * فثبتوا
للقراع أشباه العفاريت
عارجه * والشياطين ماردة
أوماردجه * حتى اذا أعوزهم
الثبات * وأعجزهم النجاة *
وعلموا أن ليست لهم بالمسلمين
طاقه * وان دماءهم لاشك
مهراقه * تهاووا من غرفات
الجدران * وشرفات
البنيان * على شبا الرماح *
وظبا الصفاح * استخفافا
بالنفوس والارواح *
واستسلاما لامر الله
المتاح * لاجرم ان السيوف
أشربت الارض دماءهم *
وأطعمت النسور أشلاءهم *
كذلك المنايا أصهار من
خطب اليها لم تزله ردا *

أيضا أنقرة وهى مدينة منيعة وكان مشاقة لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت الاقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة فى أطراف بلاده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان وكان صغيرا فبقى فى الملك الى بعض سنة احدى وسبعمائة وأخذ منه على ما نذكره هنالك وكان ركن الدين شديدا على الاعداء قيما بأمر الملك الا ان الناس كانوا ينسبونه الى فساد الاعتقاد كان يقال انه يعتقد ان مذهبه مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوى اليه ولهذه الطائفة منه احسان كثيرا لانه كان عاقلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه حكى لى عنه انه كان عنده انسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فأظهر شيأ من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه اليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجرى على مثل هذا فى حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعا ولا يمكن اظهار ما تريده أنت

(ذكر قتل الباطنية بواسط)

فى هذه السنة فى رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم انه ورد اليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنيا ملحدا ونزل مجاور الدور بنى الهروى وغشيه الناس وكثر أتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابونى فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل تجار فى مذهبهم فرد عليه الصابونى ردا غليظا فقام اليه التجار وقتلوه وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب الى هذا المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع اليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا الى سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا اليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقى فى الدار باغلاق الابواب والممارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا فى الدار وأحرقوا وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر الى بغداد وانحدر نخر الدين أبو البدر بن أمينا الواسطى لاصلاح الحال وتسكين الفتنة

(ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت)

فى هذه السنة استولى انسان اسمه محمود بن محمد الحميرى على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت وكان ابتداء أمره انه له مركب يكريه فى البحر للتجار ثم وزر لصاحب مرباط وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفى صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندها عين عذبة كبيرة أجراها الى المدينة وعمل عليها سورا وخندقا وحصنها وسماها الاحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة خرج اسطول من الفرنج الى الديار المصرية فنهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة أيام يسبون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم

ولم تجد من انكاحه بدا * وأخذ السلطان على تفيئة ذلك نحو قلعة آسى وصاحبها المعروف بجندال بهور أحد أنياب الهنود * وأرباب الجنود * ولم يزل ذا منعة بالملك وسعة فى الملك فعرض له رأى قنوج منازعا * وماده الحرب مكاوحا ومقارعا * فلم يزد أن أتعب أولياءه * ونكل على الخيبة وراءه * وقد أحاط بهذه القلعة غياض متكاثفة * كأعراف الجياد ومتداخله * كأشعار الحداد * لا تستجيب الافاعى بينها للرقاه * ولا يستنير البدر عندها للسراه * قد أحاطت بها خنادق قعيرات الحفائر * فسيحات الدوائر * احاطة الثور بالثريا فما له عنها انفراج * ولا لهادونه انعراج * فلما شعر المذكور بزحف السلطان اليه فى كواكب دولته * وصواكب جملته * فقد قلبه فرط الحذار * وجس نبضه فاذا هو ذئب الفار * ورأى الموت فاعترافاه * فلم يملك الا ان يوليه قفاه * فأمر

سفن وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت الى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت فى كثير من الشام وفيها فى رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفى اسمه أحمد بن ابراهيم الدارى من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغنى يقول الشعر

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل
وحق ليالى الوصال * وآخرها والاول
وصفرة لون المحب عند اسماع العذل
لئن عاد عيشى بكم * حلا العيش لى واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية فى السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت فصلى عليه ودفن وكان رجلا صالحا وفيها توفى أبو الفتوح أسعد بن محمود المحلى الفقيه الشافعى باصفهان فى صفر وكان اماما فاضلا وفى رمضان منها توفى قاضى هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوى وولى بعده ابنه صاعد

(ثم دخلت سنة احدى وستمائة)

(ذكر ملك كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم من ابن أخيه)

فى هذه السنة فى رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم التى كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين اياها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لاخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به فسار من عنده وتقلب فى البلاد الى ان وصل الى القسطنطينية فأحسن اليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين الى حميه وهو بقلعته فانزله عنده وقال له نشترك فى هذه القلعة ونقتنع بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة ستمائة كما ذكرناه اجتمع الامراء على ولده وخالفهم الاتراك الاويح وهم كثير بتلك البلاد وأنفوا من اتباعهم وأرسل الى غياث الدين يستدعيه اليه ليملكه البلاد فسار اليه فوصل فى جمادى الاولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فأخرجوا اليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدرى أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقصدها لله تعالى ان أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالى فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا نحن أولى بفعل هذا لانه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها فى ساعة واحدة فسبحان من اذا أراد أمرا هيأ أسبابه وكان أخوه قيصر شاه الذى كان صاحب ملطية

بقلع قلعته من اصولها وتعويرها * على من بهم آنفا بحلولها * وقتى آثاره بعفاريت أنصاره * ينهبون ويغنمون * ويقتلون ويأسرون * حتى علم الكافرون * انهم هم الخاسرون * وكان المخذول يرى ان أعوانه من كماة المقانب * وحماة الاشاهب ورماد الكتائب * حتى رأى عسكر السلطان بين تلك المشاعب * وآثارهم بالقنا والقواضب * والقسى المواطر كالسحائب * فعلم أن ضرب اللاعب * خلاف ضرب الثائر الغالب * وقوس المحلج غير قوس الناشب * ولما فصل السلطان أمر جندال وأذاقه فى مهسر به الداء العضال * عطف على جندراى أحد أكابر الهند فى قلعة شروة وهو يظن بنفسه ان القائل يعنيه بقوله عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا فاعدا غير قائم قد ذهب بها عن أن يعطى غير مقاده * أو يألف غير التعزز عاده * وكانت

لما أخذها وكن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لانه كان زوج ابنته مستنصرا به فأمره بالمقام بمدينة الرها فاقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار اليه فلم يجد عنده قبولا انما أعطاه شيأ وأمره بمفارقة البلاد فعاد الى الرها وأقام بها فلما استقر ملك غياث الدين سار اليه الافضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره

(ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها)

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا ارسلان فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ الى ركن الدين بن قلج ارسلان وبعده الى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود ابن محمد بن قرا ارسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا الى الملك العادل وفي طاعته وحضر مع ابنه الملك الاشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت وانما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الامر عليه فسار معه الملك الاشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم عليها في شعبان وفي رمضان تسلموا ربضها وكان صاحبها قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية وصار معه في طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك الافضل صاحب سميساط فلما وصل العسكر الى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ونزلوا الى الصحراء وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سهنين وبها حصنان أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه فحصه ثاني ذي الحجة ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي الى خرت برت فرحل صاحب آمد عن البحيرة وقوى الحصن الذي فحصه فيها فأزاح علته ورحل الى خلف مرحلة ونزل وتردد الرسل والعسكر الرومي يطلب اعادة البحيرة وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الامر بقي الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران وعاد كل فريق الى بلاده

(ذكر الفتن ببغداد)

في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وأهل المأمونية وسببها ان أهل باب الازج قتلوا سبعا وأرادوا أن يطوفوا به فمنعهم أهل المأمونية فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير فجرح منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية الى باب الازج فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب واشتد الامر فنهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف في تسكين الناس وركب الاتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفتا ان يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية ان يجروا به عندهم فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فارسل اليهم عسكر من الديوان لتلافي الامر ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان

في غابر الايام بينه وبين بروجبال مناوشات تجاحش عن خيوط الرقاب فدامت حتى استلحمت رجالا * واصطلمت أبطالا فأبطالا * ثم قام دست الحرب بينهما فاضطرا الى التوادع والتكاف * حقنا للدماء وصونا للاطراف * وخطب بروجبال اليه ابنته على ابنه بهمال استدامة للالفه * واماطة للفرقه * واستدفاعا للشر والفساد * واستبقاء للسيوف في الاغماد * وسرح ابنه اليه على تنجزه عقد الوصله وشرط الانشاح في اللحمه * والاشتراك في البيت والنعمه * فلما حصل الختن في يده * جعله تحت قده وقيده * وطالبه بعوض ماذهب له على والده فعجز بروجبال عن قصد قلعته * وابتياض بيضته * واستخلاص ابنه من اسار محنته * غير أن المنازعة لم تنفك بينهما قائمة الى أن طلعت رايات السلطان يمين الدولة على تلك الحدود * وسفر صنع

والجعفرية منشؤها ان رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا فى مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الامر وسكنه فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف فى البلد وقتل جماعة ممن فيه شبهة فسكن الناس

(ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام)

فى هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الاسلام من ناحية اذربيجان فأكثروا العنت والفساد والنهب والسبى ثم أغاروا على ناحية خلاط من ارمينية فأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فالله تعالى ينظر الى الاسلام وأهله ويسر لهم من يحمى بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا الى ارجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد وساروا الى حصن التين من اعمال خلاط وهو مجاور لارزن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار الى طغل شاه ولد قلج ارسلان صاحب ارزن الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره جميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم وتصافوا واقتتلوا فانهزمت الكرج وقتل زكرى الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذى كان مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل جم وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد الى بلاده

(ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة)

وفى هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الامير قتادة الحسينى أمير مكة وبين الامير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب بذى الحليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فلقيه سالم بعد ان قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقيه فانهزم قتادة وتبعه سالم الى مكة فحصره بها فارسل قتادة الى من مع سالم من الامراء فأفسدهم عليه فمالوا اليه وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا الى المدينة وعاد أمر قتادة قويا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولى العهد وأظهر خط قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدى الرازى واذا هو خط ولى العهد الامير أبى نصر ابن الخليفة الى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الاقالة وشهد عدلان انه خطه وان الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء وفى هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولدا له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات فى يومه وفيها أيضا وقع الحريق فى خزانة السلاح التى للخليفة فاحترق فيها منه شئ كثير وبقيت النار يومين وسار ذكر هذا الحريق فى البلدان فحمل الملوك من السلاح الى بغداد شيأ كثيرا وفى هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة اسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سراخرب كثيرا من البلد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شئ

الله له فى المقصود بعد المقصود * فلما برز جبال فلحق بهو جذبوا أحد المتعززين بحصانة المعاقل * وحزونة المداخل * وخشونة المواقل * خلاصا بهجته * واعتياصا بزعمه على من هم باقتناص أثره وأما جندراى فانه استعد للمدافعه * واحتشد للممانعه * اعتزازا بوثاقة قلعته * ولوثبت لاقتلعته وادلالا بمنعته * ولووقف لاختلعته * فراسله بجمال بأن محمودا ليس من جنس أكابر الهنود * وأمراء رجالهم السود * ان السلامة من مثله تغتنم * والجيش باسمه وباسم أبيه يستهزم * وقد رأينا من كان أقوى منك حكمه * واعلى أكمه لم يقم لضربة من ضربات حدوده * ولم يف بهضبة من هضبات جنوده * فان أردت الافتضاح فشأنك أو الخلاص فغمض ما استطعت مكانك * فعلم ان الرجل قد نصحه * وأنه ان خالف الحق فضحه * فسرب أثقاله وأفياله *

الا اليسير وفيها فى شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الامير زنكى بن مسعود الى مدينة مرو فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الامير جقر وكان لهم كمينا فلما وصلوا اليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية اسرى فلم يفلت منهم الا القليل وأخذ أميرهم زنكى أسيرا فقتل صبرا وعلقت رؤسهم بمرو أياما وفيها فى ذى القعدة سار الامير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى صاحب بلخ الى مدينة ترمذ وهى للاتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الاكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها الى بلخ وصارت ترمذ دار اسلام وهى من أمنع الحصون وأقواها وفيها توفى صدر الدين السجزى شيخ خانكاه السلطان بهراة وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل وردها ماد حا لصاحبها نور الدين ارسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا ان يأخذا منه شيأ فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل وري والرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق ان بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم فى خصومة جرت فرأى الرجلين الضريرين فقال لمن معه هذان اللذان قتلا الاعمى يقوله مزاحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتلته فأخذا الى صاحب الباب فأقرا فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذى قتلا فيه الرجل

(ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة)

(ذكر الفتنة بهراة)

فى هذه السنة فى المحرم ثار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحدادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الاموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر نالمه منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع الى القصر الفيروزى واختفى أياما الى أن سكنت الفتنة ثم ظهر

(ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر)

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغورى صاحب غزنة من الخطا الكفار وان الخبر ظهر ببلاده انه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون فى أطراف البلاد وكان ممن أفسد انيال صاحب جبل الجودى فانه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الاسلام وتابع بنى كوكر ومساكنهم فى جبال بين لها وورو الموالتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لها وورو وغيرها الى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه ايبك بال وقد ذكرناه ارسل الى نائبه بلها وورو الموالتان وهو محمد بن ابى على يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة احدى وستمائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب ان أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه ارسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا ان قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه الا القليل فأمر شهاب الدين مملوكه ايبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بنى كوكر يدعوهم الى الطاعة ويتهددهم

ونخزائنه وأمواله * نحو جبال تغاغى كواكب البحور زاه * وآجام تواري خد الارض عن عين السماء وورى بوجه مقصده فلم يدر أين سار * والى أى الاقطار طار * امتطى الليل أم اقتعد النهار * وكان غرض النصيح المظلوم فى تهريبه وتغريبه اشفاقه من حبالة الاقتناص فيسأم من كلمة الاسلام * ماسئم أعمامه وأقاربه حين اضطروا الى الاستئمان والاستسلام * فلما أحاط السلطان تلك القلعة وافتتحها على حصانة قواعدها * ومناعة مراقيها ومصاعدها * وتوسع منها فى علف كثير * ومال على اختلاف أصنافه خطير * لم يهنه الموجود * وقد فانه الكافر المقصود * وضاقت به الارض دون طلبه * وانتزاعه من يد مهربه فاقتص أثره وكضا نحو خمسة عشر فرسخا بين منابت أشجار تسك الوجوه قتيمها * وساقط

ان لم يجيبوا ففعل ذلك فقال ابن كوكر لاى معنى لم يرسل السلطان اليناً رسولا فقال له الرسول وما قدركم أنتم حتى يرسل اليكم وانما ملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لو كان شهاب الدين حيا لرأسلناوقد كنا دفع الاموال اليه فحيث عدم فقل لابيك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا تثق اليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور فلم يصغ الى قوله فردّه فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين ايبك بالعود الى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد الى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد فأقام شهاب الدين فى فرشابور الى نصف شعبان من سنة احدى وستمائة ثم عاد الى غزنة فوصلها أوّل رمضان وأمر بالنداء فى العساكر بالتجهز لقتال الخطا وان المسير يكون أوّل شوّال فتجهزوا لذلك فاتفق ان الشكايات كثرت من بنى كوكر وما يتعهدونه من اخافة السبل وأنهم قد أخذوا شحنة الى البلاد ووافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أميرلها وور والمولتان وغيرهما ووصل كتاب الوالى يذكر ما قد دهمه منهم وان عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج وان ابن كوكر مقدمهم أرسل اليه ليترك له لهاوور والبلاد والا قتله ويقول له ان لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر والا خرجت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجوع ومالهم من القوّة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الاول سنة اثنتين وستمائة فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور حتى أرجف الناس بانهزامه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر انه نازل فى عساكره ما بين حيلم وسودرة فجد السير اليه فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر وصوله فيه فاقتتلوا قتالا شديدا يوم الخميس خامس بقين من ربيع الآخر من بكرة الى العصر واشتد القتال فيما بينهم فى القتال واذ قد أقبل قطب الدين ايبك فى عساكره فنادوا بشعار الاسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم اليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة هنالك فاحتموا بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى ان المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار كنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل اخوته وأهله وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودى فانه جاء ليلا الى قطب الدين ايبك فاستجار به فأجاره وشفع فيه الى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع الى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا وأقام شهاب الدين بلهاوور الى سادس عشر رجب وعاد نحو غزنة وأرسل الى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للمسير الى سمرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه

(ذكر الظفر بالتيراهية)

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فانهم خرجوا الى حدود سوبان ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجى وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الاسلام

أحجار تصدم الحوافر فتحفيها * ولحق القوم ليلة الاحد خامس بقين من شعبان وقت العتمة وهم يطوون مجاهل الارض هبوطا وصعودا ولا على التجار بحضرموت برواء وأهاب الى أولياء الاسلام وابناء الصلاة والسلام * باقتناصهم * واذراع الظلام فى اقتناصهم * ثقة بالله الناصر لدينه * القاضى على الكفر بتوهينه * فكم من قتيل هنالك قبل أن يمسه حر الحديد * وأسير تقيد قبل يد التقييد * فأما الاموال فباتت حبادون الارواح * وسترادون حد السلاح وحر الجراح * فلا يعبأ بها أو تشفى النفوس من عندة الكفار * وعبدة الشمس و النار * وظل الاولياء يقتبعون طرائح الخاذيل ثلاثة أيام تباعا تنقلا واغتناما * وحلالا بعد ان جمعها الكفار حراما * وأما الغيلة فمن بين مقهور و مردود * ومتطوع بالعود الى السلطان

وكانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الاسلام عظيمة قديما وحديثا وكان اذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فى ضر شديد لانهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لاسيما آخر أيام سبكتكين فان الملوك ضعفوا وقوى هؤلاء عليهم وكانوا يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفار الادين لهم يرجعون اليه ولا مذهب يعتمدون عليه الا انهم كانوا اذا ولد لاحدهم بنت وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها فان أجابه أحد تركها والا قتلها ويكون للمرأة عدة أزواج فاذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب فاذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغورى فكفوا عن البلاد وسبب اسلامهم انهم أسروا انسانا من فرشابور فعذبوه فلم يمت ودامت أيامه عندهم فأحضره يوما مقدمهم وسأله عن بلاد الاسلام وقال له لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى فقال له كان يعطيك الاموال والاقطاع ويرد اليك حكم جميع البلاد التى لكم فارسله الى شهاب الدين فى الدخول فى الاسلام فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالاقطاع فلما وصل اليه الرسول سار هو وجماعة من أهله الى شهاب الدين فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة لمنعوهم فأفسدوا وعملوا ماذكرناه

(ذكر قتل شهاب الدين الغورى)

فى هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغورى ملك غزنة وبعض خراسان بعد عوده من لهاور بمنزل يقال له دمبك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله ان نفرا من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لما فعل بهم من القتل والاسر والسبى فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الاموال مالا يحد فانه كان عازما على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز الى ان يصل اليهم فأتاه الله من حيث لم يحتسب ولم يغن عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقى وحده فى خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق ينظروا ما بصاحبهم فاخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم وكان فيهم اثنان مختونان وقيل انما قتله الاسماعيلية لانهم خافوا خروجه الى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ما ذكرناه فلما قتل اجتمع الامراء عند وزيره مؤيد الملك بن خواجا سجستان فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة الى أن يظهر من يتولاه واجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه فى المحفة وساروا به ورتب الوزير الامور وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم ولم يوجد فى أحد شئ وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله فى حياته وتقدم الوزير الى أمير دار العسكر باقامة السياسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفى

محمود * لطفا من الله تعالى بيتيم له غنائم الاموال * حتى يسوق اليه بهائم الاقبال * لاجرم انها سميت خداى آورد شكرا لله على الهام مالا يمسك الا بالمقامع * ولا يملك فى المراتع * الا بالحبل الخوادع * أن يأتى طوعا فيهجر الاصنام * ويخدم الدين والاسلام * ولقد أحسن من قال

قل للامير عبدت حتى
قد أتاك الفضل عبدا
سبحان من جمع الحما
سن عنده قربا وبعدا
لو مس أعطاف النجو
م جرين فى الترييع سعدا
أو سار فى أفق السما
ء لانبتت زهرا وورد
وبلغ مارد من خزائن
السارب ذهبا وفضه
ويواقيت محمرة وفرائد
مبيضه * قرابة ثلاثة آلاف ألف درهم فأما السبى فالشاهد على كثرة عدده ووفور مدده * وقوع الاستيام على الواحد منهم بما بين درهمين الى عشرة دراهم

حمل وما بقي حمل وشغب الغلمان الاتراك الصغار لينهبوا المال فمنعهم الوزير والامراء الكبار من المماليك وهو صوبخ صهر الدز وغيره وأمروا كل من له اقطاع عند قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود اليه وفرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا وسار الوزير ومعه من له اقطاع وأهل بغزنة وعلموا انه يكون بين غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين الاكبر وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة وكان ميل الوزير والاتراك وغيرهم الى غياث الدين محمود وكان الامراء الغورية يميلون الى بهاء الدين سام صاحب باميان فارسل كل طائفة الى من يميلون اليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الامور وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة فقال للمماليك ان فخر الدين الرازي قتل مولاكم لانه هو أوصل من قتله فوضع من خوارزمشاه فثار وابه ليقتلوه فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير فاعلمه الحال فسيره سرا الى مأمنه ولما وصل العسكر والوزير الى فرشاور اختلفوا فالغورية يقولون نسير الى غزنة على طريق مكرهان وكان غرضهم ان يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة قال الاتراك بل نسير على طريق سوران وكان مقصودهم ان يكونوا قريبا من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولها وور وليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة ويرسلون من كرمان الى غياث الدين يستدعونه الى غزنة ويملكونه وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون فتوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى اذنوا له وللاتراك بأخذ الخزانة والحفنة التي فيها شهاب الدين والمسير على كرمان وساروا هم على طريق مكرهان ولقي الوزير ومن معه مشقة عظيمة وخرج عليهم الاعم الذين في تلك الجبال التيراهية واوغان وغيرهم فنالوا من أطراف العسكر الى ان وصلوا الى كرمان فخرج اليهم تاج الدين الدز يستقبلهم فلما عاين الحفنة وفيها شهاب الدين ميتا نزل وقبل الارض على عادته في حياة شهاب الدين وكشف عنه فلما رآه ميتا مزق ثيابه وصاح وبكى فبكى الناس وكان يوما مشهودا

(ذكر ما فعله الدز)

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلا عنده بحيث ان أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه في أشغالهم فلما قتل صاحبه طمع ان يملك غزنة فاول ما عمل انه سأل الوزير مؤيد الملك عن الاموال والسلاح والدواب فاخبره بما خرج من ذلك وبالباقي معه فانكر الحال وأساء أدبه في الجواب وقال ان الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملكوه غزنة وقد كتب الى غياث الدين محمود وهو مولاي يأمرني انني لا أترك أحدا يقرب من غزنة وقد جعلني نائبه فيها وفي سائر الولاية المجاورة لها لانه مشتغل بأمر خراسان وقال للوزير انه قد أمرني أيضا أن أتسلم الخزانة منك فلم يقدر على الامتناع لميل الاتراك اليه فسلمها اليه وسار بالحفنة والمماليك والوزير الى غزنة فدفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها ودفن ابنته فيها وكان وصوله اليها في الثاني والعشرين من شعبان من السنة

(ذكر بعض سيرة شهاب الدين)

وذلك فضل الله الذي ذخره لايام السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * وهو الملي له بتمام الثواب * يوم قيام الحساب * فالحمد لله خير معبود ومحمود * وله الشكر على ما أقر به عين محمد صلى الله عليه وسلم بمحمود

(ذكر المسجد الجامع بغزنة)

ولما عاد السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * على تفيئة النصر الموكل بقمع الكافر المفتري * المكلل بسعدى السماء الزهرة والمشتري * الى دار الملك بغزنة وقد كاد أن يغيض سيحها على عدد الارقا * من العبيد والاماء * حتى استفرغت عليها أكياس التجار * الضاربين اليها عن نوازح الديار * ونوازع الامصار * فحص ما وراء النهر الى مرابع العراق * ومبادي الاشراق * منها ما خلط بياضهم بالسود * وعدل في القليك بين المسود والمسود * أحب أن ينفق ما أفاءه الله عليه من أنفال * أولئك الغلف الاغفال * في عمل بر يشيع جدواه * ويربع الى أجر الاحتساب صداه * وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة

كان رحمه الله شجاعا مقداما كثيرا الغزو الى بلاد الهند عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر وكان القاضى بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والاحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة فيحكم القاضى وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع وان طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه وأمضى عليه أو له حكم الشرع فكانت الامور جارية على أحسن نظام (حكى عنه) انه لقيه صبى علوى عمره نحو خمس سنين فدعاله وقال لى خمسة أيام ما كانت شيأ فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبى فنزل فى داره وأطعم العلوى أطيب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد ان أحضر أباه وسلمه اليه وفرق فى سائر العلويين مالا عظيما (وحكى) ان تاجرا من مراغة كان بغزنة وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار فقتل المملوك فى حرب كانت له فرفع التاجر حاله فامر بأن يقتر اقطاع المملوك بيد التاجر الى ان يستوفى دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) انه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان فخر الدين الرازى يعظ فى داره فحضر يوما فوعظ وقال فى آخر كلامه يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى وأن مردنا الى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعى المذهب مثل أخيه قيل وكان حنفيا والله أعلم

(ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته)

لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه اخته فاتاه منها ولد اسمه سام فبقى فيها الى ان توفى وملك بعده ابنه الاكبر واسمه عباس وأمه تركية فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين فى ذلك وأرسلا من أحضر عباسا عندهما فاخذا الملك منه وجعلا ابن أخته ماسام ملكا على باميان وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحله وجمع الاموال لمملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الامراء الغورية الى بهاء الدين سام فاخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب الى من بغزنة من الامراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد ويعرفهم انه على الطريق سائر اليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بامير دار قد أرسل ولده الى بهاء الدين سام يستدعيه الى غزنة فاعاد جوابه انه يتجهز ويصل اليه ويعده الجميل والاحسان وكتب بهاء الدين الى علاء الدين محمد بن على ملك الغور يستدعيه اليه والى غياث الدين محمود بن غياث الدين والى ابن خرميل والى هراة يأمرهما باقامة الخطبة له وحفظ ما بايديهما من الاعمال ولم يظن ان أحدا يخالفه فاقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والاتراك يقولون لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل الى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان الى غزنة فى عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فنزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد الصداع وعظم الامر عليه فايقن بالموت فاحضر ولديه وعهد الى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الاموال وأمرهما ان يصالحا غياث الدين على ان يكون له خراسان

وبلاد

للمسجد الجامع اذ كان ما اختط قديما على قدرها حيث عدت من زمعات البلاد شطوط دار * وشطون مزار * فوافق عوده من مضربه حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه * واقامة الجدران على ترابيعه * فصب بدر المال على الصناع * كما صب دماء الابطال يوم القراع * ونصب لمشارفتهم أحد الزعماء بحضرته فهو يطوف عليهم مطالبا بصدق العمل * ومعاتبا على رمز الخلل * حتى اذا توسدت الشمس قلة الجبل * اقام ألسن الموازين ناطقة بالانصاف * وازنة بالجزاف * فيمون بين أجرين تعجل على السلطان منقود * وآجل على الرحمن موعود * ونقل اليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدودا ورصانة * وتناسبت تدويرا وتحسانة * كأنها استودعت أرحام الارض لامر معلوم * وجمعت بأعمارها اليوم محتوم * فجاءت ولا الحق كمالا * والعدل استقامة واعتدالا * يثنى عليها الملاسة والسداد *

وبلاد الغور ويكون لهما غزنة وبلاد الهند

(ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه)

لما فرغ بهاء الدين من وصيته توفي فسار ولداه الى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما وخرج الاتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا في ضر وقلة من العسكر وأراد الاتراك منعهم فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والى هراة على ما ذكرناه فلم يرجعوا ولما استقروا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راسلهما الاتراك بأن يخرجا من الدار ويلاقاتلوهما ففرق فيهم أموالا كثيرة واستمالهم فخلفوا واستدعوا غياث الدين محمودا وافقد خلعا الى تاج الدين الدزوهو قطاعه مع رسول وطيباه الى طاعتهما ووعداه بالاموال والزيادة في الاقطاع وامارة الجيش والحكم في جميع الممالك فاتاه الرسول فلقيه وقد سار عن كرمان في جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم فابلغه الرسالة فلم يلتفت اليه وقال قل لهما يعودان الى باميان وفيها كفاية فاني قد أمرني مولاي غياث الدين ان أسير الى غزنة وأمنعهما عنها فان عادا الى بلادهما والا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ورد ما معه من الهدايا والخلع ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وانما أراد ان يجعل هذا طريقا الى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فارسل وزيره وكان قبله وزير أبيه الى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود اليه فارسل الدز الى الاتراك الذين بغزنة يعرفهم ان غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير الى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيأ وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وانكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد ما منه الترك جميعه لانه كان مطاعا فيهم ووصل الدز الى غزنة فاخرج اليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الاتراك وفيهم صوبجي صهر الدز فاشار عليه اصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما القوه خدعه الاتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن علي بن خردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والباماتية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها في عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزئ به الى أين تمضي خذ الجتر والشعشعة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها انك سترين ذلك اليوم وافعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لي وكان قد قال لاخيه احفظ القلعة الى ان آتيك بالعساكر فبقي الدز يحاصرها وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك وأرسل الى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده ان لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما في ذلك فاجاب الى مفارقتها والعود الى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض اليه ولا الى أحد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل الى تربة شهاب الدين ونزل اليها ونهب الاتراك ما كان مع علاء الدين والقوه عن فرسه واخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسراويله فلما سمع الدز ذلك ارسل اليه بدواب وثياب ومال واعتذر اليه فاخذ ما بعثه

وكأن بها صمما فهي لا تصغي
ولا تكاد * وقد فرشت
ساحتها بالرمر منقولا من
كل فج عميق * ومضرب سحيق
* على قطيع التربيع أشد
ملاسة من راحة الفتاة *
وصفحة المرآة * وعقدت عند
منتهى الابصار طاقات كما
تقطع الدوائر على نقط
المراكز * فلو عاش سمنار اعتد
في جنبها صومعة الواهن
العاجز * فاما الاصباغ فطالع
روضة الربيع ضاحكة
الثغور باكية الجفون
تستوقف الابصار * وتقيد
النظار * وأما التذهيب
فحسبك به ان صناع الرصافة
قد عزت عليهم الحقاق *
وصح لهم تكليف ما لا يطاق *
وليس بصفائح الزرياب فقط
لكنه ضبات الذهب الاحمر
افرغت عن صور الاصنام
المجذوذة * والبددة المأخوذة *
فطفقت تعرض على النار *
بعد ان كانت آلهة للكفار *
وتضرب بالمطارق * بعد أن
عبدت بالخدود والعناق *
أوليس الذي يتفق على
جدران مساجد الله عبرة
للموحدين * وعيظا على

وترك الباقى فلما وصل الى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فاخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال اريد أن يرانى الناس وما صنع بى اهل غزنة حتى اذا عدت اليها وخربتها ونهبتها لا يلومنى احد ودخل دار الامارة وشرع فى جمع العساكر

(ذكر ملك الدز غزنة)

قد ذكرنا استيلاء الدز على الاموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الاتراك والخلج والغز وغيرهم وسار الى غزنة وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين الا انه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وانما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان فى اليوم الرابع أحضر مقدمى الغورية والاتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير داروا الى غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين ابو على بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد الى غزنة رسولا الى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فارسل اليه والى قاضى غزنة يقول له انى أريد أن انتقل الى الدار السلطانية وان اخاطب بالملك ولا بد من حضورك والمقصود من هذا ان تستقر امور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس فى خدمته وعليه ثياب الحزن وجلس فى الدار فى غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الاتراك لانهم كانوا يطيعونه ظنا منهم انه يريد الملك لغياث الدين فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى ان بعضهم بكى غيظا من فعله واقطع الاقطاعات الكثيرة وفرق الاموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من اولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم فانفوا من خدمة الدز وطلبوا منه ان يقصدوا خدمة غياث الدين واخيه صاحب باميان وارسل غياث الدين الى الدز يشكره ويثنى عليه لاخراج أولاد بهاء الدين من غزنة وسيره الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل واعاد الجواب فغالطه وطلب منه ان يخاطبه بالملك وان يعتقه من الرق لان غياث الدين ابن اخى سيده لا وارث له سواه وان يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه الى ذلك واتفق ان جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على اعمال كرمان وسوران وهى اقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فارسل صهره صوبخ فى عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وانفذ رؤسهم الى غزنة فنصبت بها واجرى الدز فى غزنة رسوم شهاب الدين وفرق فى اهلها اموالا جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك ان يكون وزيره فامتنع من ذلك فالح عليه فاجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه فقال بماذا تهنئنى من بعد ركوب الجواد بالحمار وانشد

ومن ركب الثور بعد الجوا * دانكر اطلاقه والغبب

بينما الدز يأتى الى باب الف مرة حتى آذن له فى الدخول أصبح على بابه ولو حفظ النفس مع هؤلاء الاتراك لكان لى حكم آخر

(ذكر حال غياث الدين بعد قتل ابن اخيه)

واما غياث الدين محمود بن غياث الدين فانه كان فى اقطاعه وهو بست واسفزار وكان الملك علاء

الدين

الملحدين * أتم سعادة * واكرم راحة * ممن يشرع معبودا * ويتصيد للنفع والضر مقصودا * نعوذ بالله من رب شواره عار * وهو محتاج الى شعاره * وجزى الله عن الاسلام ملكا هذه أفعاله * وأعماله * وامتهان الروح * والممنوح * فى سبيل الله دأبه * وآدابه * نعم وقد أفرد السلطان لخاصته بيتا فى المسجد مشرفا عليه مكعب البناء * موسع الفناء * متناسب الزوايا والارجاء * فرشه وازاره من الرخام كدت عليه الظهور * حتى نقل من أرض نيسابور * وقد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الاحمر مكملا باللازورد * فى تعاريج من ألوان المنشور والورد * هى من يراها بعينه يقل بلسانه * لاستحسانه * لا زال هذا الاستاذ نعتما ببنانه * ألا من رأى مسجد دمشق فراعه مرآه * وشاقه النظر حتى ثناه * وقضى بأن ليس يوجد شرواه * دونك هذا البيت يلزمك المثنوية * وتنعكس عليك القضية * ويثبت ان الحسن بعض صفاته * والابداع أحد سماته * وأنفال الهند

الدين بن محمد بن ابى على قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من ارض الراون فلما بلغه قتله سار الى فيروزكوه خوفا ان يسبقه اليها غياث الدين فيملك البلاد ويأخذ الخزائن التى بها وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية الا ان الناس كرهوه لميلهم الى غياث الدين وأبى الامراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولانه كان كراميا مغاليا فى مذهبه واهل فيروزكوه شافعية وألزمهم ان يجعلوا الاقامة مثنى فلما وصل الى فيروزكوه أحضر جماعة من الامراء منهم محمد المرغنى وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الامراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له فحلفوا له ولولده من بعده وكان غياث الدين ببدينة بست لم يتحرك فى شئ انتظارا لما يكون من صاحب باميان لانهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين ان تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيأ فلما بلغه خبر موت بهاء الدين جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان وحلف الامراء الذين قصدوه وهم اسمعيل الخلجى وسونج أمير اشكار وزنكى بن خرجوم وحسين الغورى صاحب تيكاباذ وغيرهم وتلقب بالقاب أبيه غياث الدين وكتب الى علاء الدين محمد بن أبى على وهو بفيروزكوه يستدعيه اليه ويستعطفه ليصده عن رأيه ويسلم مملكته اليه وكتب الى الحسين بن خرميل والى هراة مثل ذلك ايضا ووعده الزيادة فى الاقطاع فاما علاء الدين فأغلظ له فى الجواب وكتب الى الامراء الذين معه يتهددهم فرحل غياث الدين الى فيروزكوه فارسل علاء الدين عسكرا مع ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريبا من فيروزكوه فلما تراءى الجمعان كشف اسمعيل الخلجى المغفر عن وجهه وقال الحمد لله ان الاتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وانتم مشايخ الغورية الذين انعم عليكم والد هذا السلطان وربا كم واحسن اليكم كفرتم الاحسان وجئتم تقاتلون ولده اهذا فعل الاحرار فقال محمد المرغنى وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه لا والله ثم ترجل عن فرسه والقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الارض بين يديه وبكى بصوت عال وفعل سائر الامراء كذلك فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هاربا نحو الغور وهو يقول انا امشى اجاور بمكة فانفذ غياث الدين خلفه من ردّه اليه فاخذه وحبسه وملك فيروزكوه وفرح به اهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع فصلى فيه ثم ركب الى دار ابيه فسكنها واعاد رسوم ابيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيرانى وزير ابيه واستوزره وسلك طريق ابيه فى الاحسان والعدل ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة الا ابن خرميل بهراة واجتذابه الى طاعته فكاتبه وراسله واتخذه اباه واستدعاه اليه وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع اعيان الناس منهم قاضى هراة صاعد ابن الفضل النيسابورى وعلى بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الاسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمى المحال وقال لهم قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين وانا فى بحر خوارزمشاه واخاف الحصار واريد ان تحلفوا لى على المساعدة على كل من نازعنى

من خدم نقوشه * والهمة العلياء قد سمت بعروشه * نعم وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف غلام متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفا * وأقبلوا على انتظار الاذان عكوفا * وأضيف الى المسجد مدرسة فيحاء تشتمل بيوتها من بساط الارض الى مناط السقوف على تصانيف الائمة الماضين * من علوم الاولين والآخرين * منقولة من خزائن الملوك لصيد نقروا عن ديار العراق * ورباع الآفاق * حتى اقتنوها بخطوط * كفرائد سموط * مصححة بشهادات التقييد * وعلامات التخفيف والتشديد * فتنابها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس والنظر فى علوم الدين على كفاية ذوى الحاجة منهم ما يهمهم جراية وافرة * ومعيشة حاضرة * وقد اقتطع من دار الامارة الى البيت الموصوف طريق تفضى اليه فى أمن من ابتذال العيون اللوامح * واعتراض الرجال من بين صالح وطالح *

فاجابه القاضي وابن زياد بأنا نحلف على كل الناس الا ولد غياث الدين فحقد عليهما فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس اليه فغالطه في الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه ان يرسل اليه عسكرا يصير في طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه انفاذ ولده رهينة ويرسل اليه عسكرا فسير ولده الى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه الى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه الى هراة وان يكونوا يتصرفون بامر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا وغياث الدين يتابع الكتب الى ابن خرميل وهو يحتج بشيء بعد شيء انتظار العسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويطيعه طاعة غير مستوية ثم ان الامير علي بن ابي علي صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل فعزم غياث الدين على التوجه الى هراة فثبطه بعض الامراء الذين معه وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين فقال له علي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولي وقوف خراسان التي بيده للغورية جميعها ينبغي ان تخطب للسلطان غياث الدين وتترك المغالطة اني اخاف على نفسي فامض أنت وتوثق لي منه وكان قصده ان يبعده عن نفسه فمضى برسالته الى غياث الدين وأطلعه على ما يريد ابن خرميل بفعله من الغدر به والميل الى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له انا أسلمها اليك ساعة تصل اليها ووافقه بعض الامراء وخالفه غيرهم وقال ينبغي ان لا تترك له حجة فترسل اليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ثم ان غياث الدين كاتب امير ان بن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه اليه فتوقف وارسل الى صاحب مرو يسير اليه فتوقف أيضا فقال له اهل البلد ان لم تسلم البلد الى غياث الدين وتتوجه والا سلمناك وقيدناك وارسلناك اليه فاضطر الى المجيء الى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين واقطعه اقطاعات شتى واقطع الطالقان سوبخ مملوك ابيه المعروف بامير اشكار

(ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان)

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والى هراة خوارزمشاه ومراسلته في الانتماء اليه والطاعة له وترك طاعة الغورية وخداعه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظار الوصول عسكر خوارزمشاه ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة فقال نحن في شغل اهم منها بوصول هذا العدو فطالت المجادلات بينهم في ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل عسكر خوارزمشاه فلقيهم ابن خرميل وانزلهم على باب البلد فقالوا له قد امرنا خوارزمشاه ان لا نخالف له امرا فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم واقام لهم الوظائف الكثيرة واتاه الخبر ان خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها فنزل على اربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد اخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فانني اراه عاجزا وشرع في اعادة العسكر فقال للامراء ان خوارزمشاه قد ارسل الى غياث الدين يقول له انني على العهد الذي بيننا وانا اترك ما كان لا يبك بخراسان والمصلحة ان ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وارسل اليهم الهدايا الكثيرة

فيركب اليه على وفور سكينة * وشمول طمأنينة * حتى يقضي المكتوبة * ويقتضي الاجر والمثوبة * فأما سائر دور الحجاب وقصور القواد فما يثق بحقائق الانفاق عليها الا من أتاها اعتبارا * وشاهدها اختبارا * فيرى ملء الاباطح أبنية تشرف على الهضاب شرفاتها * وتكاد تغترف من نهر المجرة غرفاتها * وناهيك من بلد يحتوي على مرابض ألف فيل يشغل كل منها بساسته ومارنه دارا كبيرة وخطة وسيعة ان الله تعالى اذا أراد عمر البلاد * وكثر العباد * وهو على ما يشاء قدير

(ذكر الافغانية)

ولما قضى السلطان وطره من القيظ بغزنة وأقبل الخريف بسقيفه * وسمح الوقت بحاضر ريفه * وقد كان طوائف من الافغانية المستوطنين قلل تلك الجبال الشوامخ * والربعان البواذخ * تعرضوا فعل القطاع لذنابي عسكره منصرفه من غزوة قنوج اغترارا بمناعة أماكنهم * وحصانة مساكنهم * أو تظنيا لخفاء أفعالهم * والتباسها

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه الى هراة أخذ اقطاع ابن خرميل وارسل الى كرزبان واخذ كل ماله بها من مال واولاد ودواب وغير ذلك واخذ أصحابه فى القيود وأتاه كتب من يميل اليه من الغورية يقولون له ان رأى غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين باهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة الى غياث الدين بانفاذ من يتسلم البلد وكتب القاضى صاعد قاضى هراة وابن زياد الى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين باهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف ان يعاجله بالقبض فحضر عند القاضى وأحضر اعيان البلد وألان لهم القول وتقرب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد ارسل رسولا الى غياث الدين بطاعتى والذى اوثره منكم ان تكتبوا معه كتابا بطاعتى فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله الى فيروزكوه وأمره اذا جنه الليل ان يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ويجد السير فاذا لحقهم رد هم اليه ففعل الرسول ما امره ولحق العسكر على يومين من هراة فامرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا الى هراة والرسول بين ايديهم فلقيهم ابن خرميل وادخلهم البلد والطبول تضرب بين ايديهم فلما دخلوا اخذ ابن زياد الفقيه فسمله واخرج القاضى صاعدا من البلد فسار الى غياث الدين بفيروزكوه واخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم انه يريدهم وسلم ابواب البلد الى الخوارزمية واما غياث الدين فانه برز من فيروزكوه نحو هراة وارسل عسكرا فاخذوا حشيرا كان لاهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الرزدوغيره فامر غياث الدين عسكره بالتقدم الى هراة وجعل المقدم عليهم على بن ابى على واقام هو بفيروزكوه لما بلغه ان خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يزكه الامير امير ان بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان فارسل الى ابن خرميل يعرفه انه على اليزك ويأمره بالمجىء اليه فانه لا يمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفا ان يهلكوا وغنم واسر اسمعيل الخلجى واقام بمكانه وارسل عسكره فشنوا الغارة على ابلاد باذغيس وغيرها وعظم الامر على غياث الدين فعزم على المسير الى هراة بنفسه فاتاه الخبر ان علاء الدين صاحب باميان قد عاد الى غزنة على ما ذكره فاقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدزوا ما بلغ فان خوارزمشاه لما بلغه قتل شهاب الدين اخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان اسرهم فى المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم واحسن اليهم واعطاهم الاموال وقال ان غياث الدين اخى ولا فرق بينى وبينه فمن احب منكم المقام عندى فليقم ومن احب ان يسير اليه فانى اسيره ولو اراد منى مهما اراد نزلت له عنه وعهد الى محمد بن على بن بشير وهو من اكابر الامراء الغورية فاحسن اليه واقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير اخاه على شاه بين يديه فى عسكره الى بلخ فلما قارب اخرج اليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى اميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على اربعة فراسخ منها فارسل الى اخيه خوارزمشاه يعلمه قوتهم فسار اليها فى ذى القعدة من السنة فلما وصل الى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم فنزلوا فسار يوقع بهم ليلا فكانوا معه على اقبح صورة فاقام صاحب بلخ محاصرا وهو

بعساكر أمثالهم * رأى أن ينقم منهم بركضة تبيح عليهم أوكارهم * وملاجئهم * وتخضب بدماء النحور رجاجئهم * فعزم على ما دبر * وصمم على ما قدر * وورى بهضبته * فحوا حدى أقطار بيضته * ثم ركض عليهم فى خاصته وركضا صبحهم فى مراقدهم فلم يشعروا الا بحر الصفاح * على برد الصباح * ضربات تقطف الرؤس على النحور * وتفرغ البحور على الجحور * صرعى الى صرعى كان جلودهم طليت بها الشيان والعلام فيالها نبهة أتمت عليهم الرقود * وآلت حافة أن لا تعود * أو تشهد اليوم الموعود * بكم من جيش فوق الاعلام * ورؤس تحت الاقدام * حتى اذا استلحمت السيوف أجسامهم * ولم تستبق الا أياما هم وأيامهم * كفت كف الاقتدار * وعلا ذروة العز بالانحدار * وعادت تلك الوعور سهولا * وكان أمر الله مفعولا * وعطف الى غزنة عميلا للرأى بين أن يشتو ببلخ مستجما * ولغابر السنة فى القرار مستقما * وبين أن يركب نية يمينية

ينتظر المدد من أصحابه اولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ما ذكرناه وعلى ما نذكره ان شاء الله تعالى فاقام خوارزمشاه على بلخ اربعين يوما كل يوم يركب الى الحرب فيقتل من اصحابه كثير ولا يظفر بشئ فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن علي بن بشير الغوري وبذل له بذلا كثيرا ليسلم اليه البلد فلم يجبه الى ذلك وقال لا أسلم البلد الا الى أصحابه فعزم على المسير الى هراة فلما سار اصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان الى غزنة المرة الثانية على ما نذكره ان شاء الله تعالى واسرهم تاج الدين الدزعاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن علي بن بشير الى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم وانه لا يبقى عليه حجة ولا له في التأخر عنه عذر فدخل اليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب الى طاعة خوارزمشاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال انا اعلم انه لا يفي له وارسل من يستحلفه على ما اراد فتم الصلح وخرج الى خوارزمشاه فخلع عليه وأعاده الى بلده وكان سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزمشاه الى كرزيان ليحاصرها وبها علي بن أبي علي وارسل الى غياث الدين يقول ان هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال بيني وبينكم السيف فارسل اليه خوارزمشاه مع محمد بن علي بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد الى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الامراء فتركه وسلم خوارزمشاه كرزيان الى ابن خرميل ثم أرسل الى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه اليه ويقول قد حضر مهم ولا غنى عن حضورك فانت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره الى خوارزم ومضى هو الى بلخ فاخذها واستناب بها جعفرا التركي

(ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا)

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها الى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد عماد الدين الذي كان صاحب بلخ فارسل اليه محمد بن علي بن بشير يقول له ان أباك قد صار من أخص أصحابي وأكابر أمرائي وقد سلم الى بلخ وانما ظهر لي منه ما انكرته فسيرته الى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندي أخا ووعده واقطعه الكثير فخدعه محمد بن علي فرأى صاحبها ان خوارزمشاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر واصحابه قد اسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وارسل من يستحلف له خوارزمشاه فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها الى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكرا قبيحا في عاجل الامر ثم ظهر للناس بعد ذلك انه انما سلمها اليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود اليهم فيأخذها وغيرها منهم لانه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا واخذها وافناهم ظهر على الناس انه فعل ذلك خديعة ومكرا غفر الله له

(ذكر عود اصحاب باميان الى غزنة)

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي الى غزنة واخراجه علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين سام صاحب باميان منها بعد ان ملكها واقام هو في غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة الى خامس ذي القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل في الرعية واقطع البلاد للاجناد فبعضهم اقام وبعضهم سار الى غياث الدين ولم يخطب لاحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن

في غزوة تقشع باقي ضبابات * الكنود * عن ديارات الهنود * مجهزا على من كان يضرب بذنبه * في مهربه * كالوزغة المضغة لا تلبث أن تموت قابت عليه حمية الاسلام أن يسيغ على القعود جريضه * أو يستبقي في محابر الاغماد بيضه * وثنى عنانه نحو الهند في رجال يرون منتهى الشهوات صهوات الخيول * وقصوى اللذات ملاقاة الفحول * ويجتزؤن بالظهور أسرة مرفوعة * وبالاكوار وسائد موضوعة * وبالسموم رياحين مقطوفة * وبالاجن الطرق ضهباء مرشوفة * وبالعرق السائل ماء ورد * وبالقسطل الثائر مشار عبير فتات مسك وند * ويجتزؤن بالليل سكنا وقرارا * وبالنجوم نداما وسمارا * فمن ينهه نسب فان آباءهم المشرفيات البواتك * والزاعبيات الفواتك * وأعمامهم القسي الجوازع * وأخوالهم النبال القوازع *

رسولى عند مولاى غياث الدين فاذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرا وخديعة بهم وبغياث الدين لانه لو لم يظهر ذلك لفارقه اكثر الاتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم الاتراك وغيرهم بهذا القول واشباهه فلما ظفر بصاحب باميان على ما ذكرته اظهر ما كان يضمره فبينما هو فى هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين صاحب باميان فى العساكر الكثيرة وانهم قد عزموا على نهب غزنة واستباحة الاموال والانفس فخاف الناس خوفا شديدا وجهز الدز كثيرا من عسكره وسيرهم الى طريقهم فلقوا اوائل العسكر فقتل من الاتراك وادركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون فوصل المنهزمون الى غزنة فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالا شديدا فردهم عنه وأحضر من كرمان مالا كثيرا وسلاحا ففرقه فى العسكر وأما علاء الدين وأخوه فانهما تركا غزنة لم يدخلاها وسارا فى اثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضا وملك علاء الدين كرمان وأمنوا اهلها وعزموا على العود الى غزنة ونهبها فسمع اهلها بذلك فقصدوا القاضى سعيد بن مسعود وشكوا اليه حالهم فمشى الى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب واخبره بحال الناس فطيب قلوبهم واخبرهم غيره ممن يثقون اليه انهم مجموعون على النهب فاستعدوا وضيقوا ابواب الدروب والشوارع واعدوا العرادات والاحجار وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا الى اصحاب السلطان فلم يسكنهم احد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع رسول الخليفة واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفى اهل البلد فأرسل الى امير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سيسر وكان شيخا كبيرا يرجعون الى قوله يعرفه الحال ويقول له يكتب الى علاء الدين واخيه يتشفع فى الناس ففعل وبالغ فى الشفاعة وخوفهم من اهل البلد ان اصروا على النهب فأجابوه الى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد العسكر الى غزنة اواخر ذى القعدة ومعهم الخزانة التى اخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلا فكانت مع ما اضيف اليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب اثنا عشر الف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فمنع اخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيات الناس واختلفوا ثم ان علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة فى القسمة ما لا يجرى بين التجار فاستدل بذلك الناس على انهما لا يستقيم لهما حال لاختلافهما واختلافهما وندم الامراء على ميلهم اليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه واحسانه ثم ان جلال الدين وعمه عباسا سارا فى بعض العسكر الى باميان وبقى علاء الدين بغزنة فاساء وزيره عماد الملك السيرة مع الاجناد والرعية ونهب اموال الاتراك حتى انهم باعوا أمهات اولادهم وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت اليهن

ومازال يخوض آنهارا هائجة * ودوافع مائجة * وأودية هادية * لم تضمن قط عن غرقاها دية * وعين الله ترعاه * فى كل حى يسعاه * حتى اقتحم مغارات أولئك المغاوير * بل ديارات اولئك المدابير * فظلت رذايا القتل يضجون بالويل والثبور * ضجيج النوق رواجع بيت الله المعمور * ومازال السلطان يسمح بمن آمن وأطاع * ويفضح من أظهر الامتناع * بعد ان أصاب غنائم لا يضبطها حساب * ولا يطعمها ماء ولا تراب * حتى انتهى به المسير الى ماء يعرف براهب غائر المخاض * حتى القرارة كالحضاض * يبتلع الخف والحافر * ويقتلع الدارع كما يقتلع الحاسر * فاذا هو ببر وجبال من تلك الجبرة فى رجال كالصريم * وأقيال تحت الأديم * قد أخذهن فاجئ لركضة حذره * وأسند الى زاخر النهر ظهره * وراام ان يمنع السلطان عبوره * ويشغل

عن اقتحام الغمرة جمهوره * حتى اذا اكتحل الليل بقاره * مر في ذمة استاره * مرور مروان على حماره * فلما علم السلطان ذلك من قصده * ورأى استعداده واحتشاده لصده * امر بالاطواف فهيئت للعبور واهاب بعدته من عمائه للركوب فامتثل الامر ثمانية منهم يبتدرون العدوة القصوى * ويلتزمون كلمة التقوى * فلما رأى بروجيبال استقلال الماء بهم رماهم بخمسة من فيلته الجفنة * وفوج من رجاله المصفة * فأراد الله سبحانه وتعالى ان يحقق قول نبيه الأمي الأمين * ورسوله المؤيد بالتمكين * حيث قال صلى الله عليه وسلم زويت لي الارض فاريت مشارقها ومغاربها * وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها * فألهم تلك العدة ان استوقفوها على أماكنها خوزا لاطراف هاتيك الاخفاف بالنبال * وغرزا لها بعد في وجنات

(ذكر عود الدز الى غزنة)

لما سار جلال الدين عن غزنة واقام بها اخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الاتراك عسكرا كثيرا وعادوا الى غزنة فوصلوا الى كلواذكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المنهزمون الى كرمان فسار الدز اليهم وجعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين اسمه اى دكز التتر في ألفي فارس من الخلج والاتراك والغز والغورية وغيرهم وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الامراء منهم أبو علي بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من أعيان الغورية وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران عن ذلك فقيل لهما ان عسكر الاتراك قد قربوا منكم فلم يلتفتا الى ذلك ولا تركا ما كانا عليه فهجم عليهم اى دكز التتر ومن معه من الاتراك فلم يمهلهم يركبون خيولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل في المعركة ومنهم من قتل صبرا ولم ينج الا من تركه الاتراك عمدا واما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال اى دكز التتر لا بل قتلناهم صبرا فلامه على ذلك وبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فسجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان بن سيسر ووصل الخبر الى غزنة في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج فضج الناس الى علاء الدين بانزال المصلوب فانزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن الى اهلها وكانوا في ضر شديد مع أولئك وما صح الخبر عند علاء الدين ارسل وزيره الصاحب الى اخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدز ويستنجده وكان قد أعد العساكر ليسير الى بلخ يرحل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار الى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين فلما كان أواخر ذي الحجة وصل الدز الى غزنة ونزل هو وعسكره بازاء قلعة غزنة وحصر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد وأمر الدز فنودي في البلد بالامان وتسكين الناس من أهل البلد والغورية وعسكر باميان واقام الدز محاصرا للقلعة فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز الى طريقهم وكان مقامه الى ان سار اليهم أربعين يوما فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر الغوري الى غياث الدين بفيروزكوه فلما وصل اكرمه وعظمه وجعله اميرا رفيروزكوه وكان ذلك في صفر سنة ثلاث وستمائة وأما الدز فانه سار الى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالا صبر وافيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين اسيرا واتي به الى الدز فلما رآه ترجل وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد الى غزنة وجلال الدين معه أسير والف اسير من الباميانية وغنم اصحابه اموالهم ولما عاد الى غزنة ارسل الى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة اليه والا قتل من عنده من الاسرى فلم يسلمها فقتل منهم اربعمائة اسير بازاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك ارسل مؤيد الملك يطلب الامان فامنه الدز فلما خرج قبض عليه ووكل به

وباخيه

وباخيه من يحفظهما وقبض على وزيره لسوء سيرته وكان هندوخان بن ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب الى غياث الدين بالفتح وارسل اليه الاعلام وبعض الاسرى

(ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان)

فى هذه السنة اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب اربل على قصد اذربيجان وأخذها من صاحبها ابى بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر فى احوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب اربل الى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل الى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد وهو مملوك أبيه البهلوان وهو فى طاعة أبى بكر الا انه قد غلب على البلاد فلا يلتفت الى أبى بكر فأرسل اليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال وكان حينئذ ببلد الاسماعيلية فلما أتاه الخبر سار اليه فى العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل الى صاحب اربل يقول له انا كنا نسمع عنك انك تحب اهل العلم والخير وتحسن اليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة فاذا كنت كذلك فما لك عقل يجىء الينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل واحسب انك هزمت هذا أما تعلم ان له مماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية نفسا او من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له اضعاف عسكرك فالمصلحة انك ترجع الى بلدك وانما أقول لك هذا ابقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه ويسلم عسكره اليه وقال له انى قد كاتبنى جميع امرائه ليكونوا معى اذا قصدتهم فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد الى بلده وسلك الطريق الشاقة والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفا من الطلب ثم ان ابا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه الى أبى بكر هى كانت سبب الاختلاف واقطعه أبو بكر مدينتى استوا وارمية وعاد عنه

(ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية)

وفى هذه السنة سار ايتغمش الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب اربل واستدعاه الامير ابو بكر ففارق بلادهم وسار الى ابى بكر كما ذكرناه

(ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم)

وفى هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس باهليهم واولادهم فوصلوا الى زنكان وكان ايتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب اربل وصاحب مراغة واعتقدوا خلو البلاد فلما عاد مظفر الدين الى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار ايتغمش نحو الخوارزمية فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم

اولئك الضلال * معجزة لم يسمع بمثلها قبلها ثمانية تجزع سيلا * وتدفع فيلة وخيلا * وبدر من لفظ السلطان * عند عيان ذلك البرهان * ان قال من قدر على السباحة * فليتعب اليوم للراحة * فاذا هو بخاصته * ومعظم عامته * خائضين * ولصعب الماء رائضين * فتارة يسبحون بالاطواف * واخرى يستريحون الى الاعراف * حتى لفظهم النهر سالمين * لم تنصب لهم جنيبه * ولم تعطب لهم حريبه * ولم تذهب بحمد الله سليبه * وحمل السلطان بهم وقد نزلوا الى الظهور حملة توزعتهم بين عقير سكران * من عقار الحدود * وأسير حيران * من اسر القدود * وطريد يخاف وقع القواضب * وقتيل يمر أى النجوم الثواقب * فصار ما حصل فى الوقعة من عدد الفيلة مائتين وسبعين فيلا تثقال الاجسام * كثقال الغمام * وطار الكافر هزيعا * لا يلتفت عزيما * ولا يقدر تأخيرا

الخوارزميون واخذهم السيف فقتل منهم واسر خلق كثير ولم ينج منهم الا الشريد وسبى نساؤهم وغنمت اموالهم وكانوا قد افسدوا فى البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم

(ذكر الغارة من ابن ليون على اعمال حلب)

وفى هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الارمنى صاحب الدروب على ولاية حلب فنهب وحرق وأسر وسبى فجمع الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان ابن ليون قد نزل فى طرف بلاده مما يلى بلد حلب فليس اليه طريق لان جميع بلاده لا طريق اليها الا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لا سيما من ناحية حلب فان الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصرى ينسب الى قصر الخلفاء العلويين بمصر لان أباه منهم أخذه فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا الى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك وأنفذ الى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده الى طريق هذه الذخيرة ليسير معها الى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى فى قلة فبلغ الخبر الى ابن ليون فجد فوافاه وهو مختف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون الى الظاهر يعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحمى ميمون نفسه واثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الارمن فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر وكذلك أيضا فعل المسلمون بالارمن من كثرة القتل وظفر الارمن باثقال المسلمين فغنموها وساروا بها فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر الى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم الا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم المسلمون أيضا وعاد الارمن الى بلادهم بما غنموا واعتصم ابجبالهم وحصونهم

(ذكر نهب الكرج ارمينية)

فى هذه السنة قصدت الكرج فى جموعها ولاية خلاط من ارمينية ونهبوا وقتلوا واسروا وسبوا أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمنين ولم يخرج اليهم من خلاط من يمنعهم فبقوا متصرفين فى النهب والسبى والبلاد شاغرة لا مانع لها لان صاحبها صبى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الاسلامية التى بتلك الولاية بجميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خانقون فرأى بعض الصوفية الاخيار الشيخ محمدا البستى وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفى أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بحمل البستى من الاسلام وأتى الى مدبر العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرج وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الاخبار الى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادى الى اعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين اذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادى واسفله وهو واد ليس اليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك

ولا تقديما * وقد كان السلطان قبل ان لقى الكافر * ولبس جيوشه الدروع والمغافر * اخذ فألا من كتاب الله تعالى يهديه * عاقبة ما ينويه * فخرج له قوله تعالى عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون * فلما حقق الله وعده * ونصر بفضله جنده * ضمن على نفسه ان يفى بواجب حمده عدلا يرفه الانام * وغزوا يزيد الاسلام * وشكرا يقيد الانعام * لا جرم ان الله حافظه وحاميه * وصيب به اغراض آماله وامانيه * والذى يدخره له من ثواب المعاد ارجح مقاديره وارجح مكاييل ومعاييره

*(ذكر ابى بكر محمد بن اسحق ابن محمشاد والقاضى شيخ الاسلام ابى العلاء صاعد ابن محمد وما انتهى اليه امرهما بنيسابور)

قد كان ابو بكر مرموقا بعين النباهة فى صدر هذه الدولة لمكانة ابيه من الزعامة * وضمه الاطراف على

وسقط ما في أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا واسروا مثلهم ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد ان كانوا أشرفوا على الهلاك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الامير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتشتر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين زوج ابنته وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله انه سعى بأبيه مقلد الى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على أبيه فبقي مدة ثم أطلقه الخليفة ثم ان سنجرا قتل أخاله اسمه ٣ فأوغر بهذه الاسباب صدور أهله واخوته فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق وركب في بعض الايام ومعه اخوته وغيرهم من أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف فسقط الى الارض فنزل اخوته اليه فقتلوه وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم الى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لانه كان قد خرج عن طاعته فضيق عليه فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد الى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم يتفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد الى رأس ماله وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان وارّان بابنة ملك الكرج وسبب ذلك ان الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه في الشرب واللعب وما جانسهما واعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ذلك ولم يكن عنده من الحمية والانفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه وانه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل الى الذب عنها بأيره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والاغارة والقتل فكان كما قيل أغمد سيفه وسل أيره وفيها حمل الى ازبك خروف وجهه صورة آدمي وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد المانداي الواسطي بها وفيها في شوال توفي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المرورذي وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب وشطرنج فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج وفيها في ذي الحجة توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد وبقي مدة طويلة معيدا بالنظامية وصار مدرسا بالمدرسة التي احدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحا طلب للنيابة في القضاء ببغداد فامتنع فألزم بذلك فوليه يسيرا ثم في بعض الايام مشى الى جامع ابن المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به حتى سكن الطلب عنه وعاد الى داره بغير ولاية وفيها وقع الشيخ ابو موسى المكي المقيم بقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة وفيها

٣ هكذا بياض بالاصل

العبادة واقتفاده نهج ابيه * فيما كان ينتحله ويتحيه * وكان الامير ناصر الدين ابو منصور سبكتكين يرى من عصابته في التزهد والتعفف * والترهب والتقشف * ما قل وجود مثله في كثير من فقهاء الدين * واعيان المتعبدين * فحلى ذلك بقلبه * كما حلى بعينه والمجاهد في الله محبوب * وقد يكرم أهل الشفاعات من له ذنوب * واستقر السلطان بعده على وتيرته في ملاحظتهم بعين الاحترام * وايثار طوائف الكرامية بالاكرام * حتى قال ابو الفتح البستي فيما شاهد من نفاق أسواقهم الفقه فقه ابي حنيفة وحده

والد الدين بن محمد بن كرام ان الذين أراهم لم يؤمنوا

بمحمد بن كرام غير كرام وانضاف الى هذه الوسيلة القوية * والذريعة الالهية * انه لما ورد جيوش الخانية خراسان * عند غزوة السلطان ناحية الملتان * قبضوا بنيسابور على أبي بكر احتياطا لانفسهم من شيعته * واحتراسا من غوائل

أيضا توفى العفيف أبو المكارم عرفة بن على بن بصلا البندنيجى ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعا الى العبادة رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة)

(ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن أخيه)

فى هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين وسبب ذلك ان عسكر باميان لما انهزموا من الدزو عادوا اليها أخبروا ان علاء الدين وجلال الدين أسروا وان الدزو من معه غنموا ما فى أيديهما فأخذ وزيرأبيهما المعروف بالصاحب من الاموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف واخذ فيلا وسار الى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيه فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلوا البلد منه ومن ابنى أخيه جمع أصحابه وقام فى البلد فملكه وصعد الى القلعة فملكها وأخرج أصحاب ابنى أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر الى الوزير السائر الى خوارزم شاه فعاد الى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا فى القلعة وكان مطاعا فى جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا الا انه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج اليه انما كان معه ما أخذه ليحمله الى خوارزم شاه فلما خلص جلال الدين من أسر الدز على ما نذكره وسار الى باميان فوصل الى أرصف وهى مدينة باميان وجاءه اليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار الى القلاع وراسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع الى جلال الدين وقال انما حفظتها خوفا ان يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد الى ملكه

(ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان)

لما سلم خوارزم شاه ترمذ الى الخطا سار عنها الى ميهنة واندخوى وكتب الى سونج أمير اشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج الى ما اراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجردا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فالقى نفسه الى الارض ورمى سلاحه عنه وقبل الارض وسأل العفو فظن خوارزم شاه انه سكران فلما علم انه صاح ذمه وسبه وقال من يثق الى هذا واشباهه ولم يلتفت اليه واخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه الى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب اليه والملاطفة له واستناب بالطالقان بعض أصحابه وسار الى قلاع كالوين وبيوار فخرج اليه حسام الدين على ابن أبى على صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فأرسل اليه خوارزم شاه يتهدده ان لم يسلم اليه فقال اما أنا فمملوك وهذه الحصون فهى أمانة بيدى ولا أسلمها الا الى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا واثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان الى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهونوا الامر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار الى هراة فنزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل احدا من الخوارزميين ان يتطرق بالاذى الى أهلها وانما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة فيقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين الى خوارزم شاه

مكيدته * ونقلوا فى جملتهم حين طلعت رايات السلطان من مغاربها * وأومضت سيوف الحق عن مضاربها * الى ان وجد منهم فرصة الافلات * والسلامة على مس تلك الآفات * فاعتد السلطان ذلك فى سائر مواته * واوجب له حقا يلحظه بعين مراعاته * ونبغت من أرباب البدع الباطنية على ما تنامست به البلاغات * والله اعلم بما تجنه الضمائر والنيات * فتام وافقت تصليا من السلطان فى استئصالهم * وتعصبا لدين الله تعالى فى احتنائه أمثالهم * فحشروا من اطراف البلاد * وصلبوا عبرة للعباد * وكان أبو بكر هذا احد أعوان السلطان على رأيه حشرا اليه * وتصويبا للرأى عليه * فصار البرىء كالسقيم مذعورا * وعاد الملائم عارض الخطب شورى * ورأى الناس ان ريقته السم القاتل * ومدته السيف القاصل * فبخعوا له بالطاعة * وفرشوا له خدود الضراعة * وانعقدت له الرياسة فى لبسة الصوف * ولحظته الخاصة والعامة

بالهدايا ورأى الناس عجبا وذلك ان الخوارزميين لايذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولايذكرون أيضا شهاب الدين أخاه وهما حيان الا بالغورى وصاحب غزنة وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة هذا غياث الدين لايذكره الا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده وأما ابن خرميل فانه سار من هراة فى جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفرار فى صفر وكان صاحبها قد توجه الى غياث الدين فحصرها وأرسل الى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم وان امتنعوا أقام عليهم الى أن يأخذهم فاذا أخذهم قهرا لايبقى على كثير ولا صغير فخافوا فسلموها فى ربيع الاول فامنهم ولم يتعرض الى أهلها بسوء فلما أخذها ارسل الى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه الى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فأجابه الى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك فى الخطبة والدخول فى طاعته فغالطه ولم يجبه الى ماطلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد اليها القاضى صاعد بن الفضل الذى كان بن خرميل قد أخرجه من هراة فى العام الماضى وسار الى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه ان هذا يميل الى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصفى أبا بكر بن محمد السرخسى وكان ينوب عن صاعد وابنه فى القضاء بهراة

(ذكر حال غياث الدين مع الدز وايبك)

لما عاد الدز الى غزنة واسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كما ذكرناه وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه فى هذه المدة أشد منه فيما تقدم فأعاد غياث الدين اليه يقول اما ان تخطب لنا واما ان تعرفنا مافى نفسك فلما وصل الرسول بهذا احضر خطيب غزنة وأمره بخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الدز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءهم وتغيرت نياتهم وبنات الاتراك الذين معه ولم يروا هلا ان يخدموه وانما كان يطيعونه ظنا منهم انه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل الى غياث الدين يقول له بماذا اشترطت على وتحكم هذه الخزانة نحن جمعناها ياسيافنا وهذا الملك قد أخذته وانت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة واقطعتهم الاقطاعات ووعدتنى بأمور لم تف بها فان أنت اعتقتنى خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين الى عتق الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على مايريد وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه الى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل الى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسبوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل الى كل واحد منهما رسولا فقبل الدز الخلع وردا لجتر وقال نحن عبيد وعمالیك والجتر له أصحاب وسار رسول أيبك اليه وكان بفرشابور وقد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والاذى والناس معه فى أمن فلما قرب الرسول منه ألقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال اما الجتر فلا يصلح للمماليك واما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الابد وأما خوارزم شاه فانه أرسل الى غياث الدين يطلب منه ان يتصاهر او يطلب منه ابن خرميل صاحب هراة الى طاعته ويسير معه

تعين المرجو والمخوف * ووجدت خاصته سوقا للاطماع * بعلة الابتداع * فاستزبنوا الناس * واستفضوا الاكياس * فمن الطمنهم بمكاس * رمى بفساد معتقده * أو يعطى الجزية عن يده * وغبرت على هذه الجملة سنون لامطمع لاحد فى تبديل شكلها * وتحويل فادح الحال عن اهلها * ولا علم لهم بأن الزمان بتغيير الاحوال ضمين * وبالخلاف عن صورة المعتاد رهين * ومن صبر على الايام رأى الرفيع وضيعا * والضليع ضريعا * وشاهد عن سموم القيظ صرا كالحا وصقيعا * واتفق للقاضى ابى العلاء صاعد بن محمد ان حج بيت الله الحرام سنة اثنتين واربعمائة وهو الامام المرموق * والزاهد الموموق * والفاضل الجزل * والبازل الفجل * قضى اكثر عمره على الحظ النفيس * من نشر الدرس والتدريس * تتطفل عليه الاعمال فيأباها * وتصب اليه الاعراض فيرى الخيار فيما عداها * ومن حاز شرف العلم لم يشتره ثمنا قليلا * ولم يعدل به حظا وان كان جليلا * فلما حصل بدار السلام وانهى الى

في العساكر الى غزنة فاذا ملكها من الدز اقتسموا المال اثلاثا ثلثا لخوارزمشاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجابه الى ذلك ولم يبق الا الصلح فوصل الخبر الى خوارزمشاه بموت صاحب مازندران فسار عن هراة الى مرو وسمع الدز بالصلح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل الى غياث الدين يقول له ما حملك على هذا فقال حملني عليه عصيانك وخلافك علي فسار الدز الى تكيناباذ فأخذها والى بست وتلك الاعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل الى صاحب سجستان يأمره باعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزمشاه وأرسل الى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما فخافه الناس ثم ان الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسيره معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التتر مملوك شهاب الدين الى باميان ليعيدوه الى ملكه ويزيلون بن عمه عنه وزوجها بنته وسار وسعه ايدكز فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز وقال أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سنا منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعني الدز ودعاه الى العود معه الى غزنة واعلمه ان الاتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز فلم يجبه الى ذلك فقال ايدكز فانى لا أسير معك وعاد الى كابل وهي اقطاعه فلما وصل ايدكز الى كابل لقيه رسول من قطب الدين ايبك الى الدز يقبح له فعله ويأمره باقامة خطبة غياث الدين ويخبره انه قد خطب له في بلاده ويقول له ان لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود الى طاعته والا قصده وحاربه فلما علم ايدكز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل ايضا رسول ايبك الى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير باجابة خوارزمشاه الى ما طلب الآن وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزمشاه وغيره وأنفذ له ذهبا عليه اسمه فكتب ايدكز الى ايبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وانه على عزم مشاقة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد ايبك جوابه يأمره بقصد غزنة فان حصلت له القلعة أقام بها الى أن يأتيه وان لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز اليه او الى غياث الدين او يعود الى كابل فسار الى غزنة وكان جلال الدين قد كتب الى الدز يخبره خبر ايدكز وما عزم عليه فكتب الدز الى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها أيدكز أول رجب من السنة وقد حذروه فلم يسلموا اليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضي الحال بأن سلم اليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيأ آخر وخطب ايدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيدا الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر الى الدز بوصول ايدكز الى غزنة ووصول رسول ايبك اليه فقت في عضده وخطب لغياث الدين في تكيناباذ واسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل الى غزنة فلما قاربها رحل ايدكز عنها الى بلد الغور فاقام في تران وكتب الى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ اليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن اموال الناس فارسل اليه خلعا واعتقه وخاطبه بملك الامراء ورد عليه المال الذي كان اخذه من الخزانة وقال له اما مال الخزانة فقد أعدناه اليك لتخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد فقد ارسلته مع رسولي ليعاد الى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس الى غزنة الى قاضي غزنة وأمره ان

القادر بالله امير المؤمنين خبره في حج بيت الله الحرام * قوبل بمقتضى حقه في الاسلام * من واجب الاثرة والاكرام * وظاهر التوقير والاعظام * وعضد بالكتاب الى السلطان فيما تقرر من حاله * وفي مهمات أوجب الاحتياط شرحها على لسان مقاله * فلما عاد من وجهه * شخص الى حضرة السلطان بغزنة فعرض ما صحبه وقرر ما تحمله * وادى من حق الامانة ما لزمه * وبهر الاستاذ ابو بكر محمد بن اسحق بجرى في مجلسه ذكر الكرامية واطلاقهم القول بالتجسيم * وتعريض الله تعالى لما لا يليق بذاته الكريم * فأنف السلطان لهذه الشنعاء من مقالهم * والعوراء من فحوى جدالهم * ودعا السلطان أبا بكر سائلا عنه * وباحثا صورة الحال منه * فأنكر أبو بكر اعتقاد ما نسب اليه * وأظهر البراءة مما احيل به عليه * فسلم مع الانكار * عن مس العتب والانكار * فأما الباقون فان الكتب من السلطان نفذت الى العمال في تقديم الاستقصاء عليهم فمن اظهر البراءة عن قوله الشنيع * واعتقاده الموجب للتبديع * ترك وشأنه من

يرد المال المنفذ على اربابه فانهى القاضى الحال الى الدز وأشار عليه بانخطبة لغياث الدين وقال أنا اسعى فى الوصلة بينكما والصلح فاخبره بذلك فبلغ الخبر الى غياث الدين فارسل الى القاضى ينهاه عن المجىء اليه وقال لا تسأل فى عبد أبق قد بان فساده وانضح عناده فاقام بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكرا الى اى دكز الترفاقاموا معه وسير الدز عسكرا الى روين كان وهى لغياث الدين وقد أقطعها البعض الامراء فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده فنجا وحده الى غياث الدين فاقتضى الحال ان سار غياث الدين الى بست وتلك الولاية فاستردها وأحسن الى أهلها واطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الاذى

﴿ذكر وفاة صاحب مازندران والخلاف بين أولاده﴾

فى هذه السنة توفى حسام الدين اردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة اولاد فملك بعده ابنه الاكبر واخرج أخاه الاوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا اليه ما صنع به اخوه من اخراجه من البلاد وطلب منه أن ينجده عليه ويأخذ له البلاد ليكون فى طاعته فكتب على شاه الى أخيه خوارزم شاه فى ذلك فامره بالمسير معه الى مازندران وأخذ البلاد واقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها فساروا عن جرجان فاتفق ان حسام الدين صاحب مازندران مات فى ذلك الوقت فملك البلاد بعده أخوه الاصغر واستولى على القلاع والاموال فوصل على شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها وامتنع منهم الاخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعة كوار وهى التى فيها الاموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا اسامة البلاد منل سارية وآمل وغيرها من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت فى طاعته وعاد على شاه الى جرجان واقام ابن ملك مازندران فى البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التى فيها أخوه الاصغر وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جوابا ولا ينزل عن حصنه

﴿ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية﴾

فى هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة انطاكية بالامان وهى للروم على ساحل البحر وسبب ذلك انه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال المقام عليها وهدم عدة ابراج من سورها ولم يبق الا فتحها عنوة فارسل من بها من الروم الى الفرنج الذين بجزيرة قبرص وهى قريبة منها فاستنجدوهم فوصل اليها جماعة منهم فعند ذلك يئس غياث الدين منها وارسل عنها وترك طائفة من عسكره بالقرب منها بالجبال التى بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق باهل البلد واشتد الامر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج ان الروم يريدون اخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلاف بينهم فاقتتلوا فارسل الروم الى المسلمين وطلبوهم ليسلموا اليهم البلد فوصلوا اليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فارسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار اليهم مجدا فى طائفة من عسكره فوصلها ثانى شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة ثالثه وحصر الحصن الذى فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج

عقد المجالس للتدريس وتشريف المنابر للتذكير ومن أصر على دعواه * ولم يختر لنفسه سواه * جعل مغناه عليه حصيرا * ورد لسانه دون الفضول قصيرا * وخلع السلطان على القاضى أبى العلاء * خلعة لائقة بجلالة قدره * وزخارة بحره * ورعاية أمير المؤمنين لحقه وايعازه بتمهيد أمره * وصرف كلا منهما على جملة الاستئناس * والتفخيم على أعين الناس * ولم تزل غصة القول بالتجسيم ناشبة فى صدر أبى بكر يصارع الايام على نهزة المكافأة بها الى أن استنب له الامر فى عقد محضر على انتحاله مذهب الاعتزال وتبرز خطوط قوم من الاعيان سلكوا فيه طريق المساعدة * وتنفسوا به عن وغرة المنافسة * فنفث مالا يطاق داء دخيل * وهتم على صرر النفوس نزيل * واحتيل فى عرض المحضر على السلطان استفسادا لصورته لديه * فوقع التدبير موقعه من الاغتباط عليه فرأى السلطان أن يبحث

عن صورة المرفوع اليه
في احقاق من صور * أو
ابطال من زور * فأنهض
قاضي قضاته * وأوحد
ثقاته * أبا محمد الناصحي من
لم يشركه أحد في اصطناعه *
والجذب الى العلياء بباعه *
فانه استخصه على طراءة
شبابه بخلتين قلما توجدان
في قرح الاسنان * فضلا
عن أحداث الفتيان
والشبان * وهما العلم
والورع اخوان دونهما الدرّ
بالياقوت * والصحة بكفاف
القوت * وأقعده بغرنة دار
الملك للتدريس والفتوى *
واصباح الناس من ساطع
نوره في التقوى * حتى اذا
بهر كماله * وطفح بالفضائل
بكماله * ولاه القضاء على
القضاة في عامة ديار ممالكه
ثقة بقوته وامانته * وورعه
ونزاهته * فتولاه بنفس
كصفحة الشمس طهارة
ونقاء * أو روضة الحزن ديمتها
السماء عشاء * وأمره ان
يستحضر القاضي أبا العلاء
صاعدا وأبا بكر الاستاذ في
وجوه الرتوت وأعيان
الشهود ويطالب باقامة
الشهادة على الدعوى

﴿ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده﴾

وفي هذه السنة قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان وكتب اهل خلاط الى ناصر الدين ارتق بن ايلغازي بن أبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق يستدعونه اليها وسبب ذلك ان ولد بكتمر كان صبيا جاهلا فقبض على الامير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان أتابكه ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعية فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة واشتغل هو باللهو واللعب وادمان الشرب فكاتب جماعة من اهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه اليهم وانما كاتبوه دون غيره من الملوك لان اباه قطب الدين ايلغازي كان ابن أخت شاه ارمن ابن سكمان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس في حياته لانه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذاكروا تلك الايمان وقالوا نستدعيه ونملكه فانه من أهل شاه أرمن فكاتبوه وطلبوه اليهم ثم ان بعض مماليك شاه ارمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط الى بلاد ملازكرد وملكها واجتمع الاجناد عليه وكثر جمعه وسار الى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين اليها وهو يظن ان أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون اليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة ايام فارسل اليه بلبان يقول له ان اهل خلاط قد اتهموني بالميل اليك وهم ينفرون من العرب والرأي انك ترحل عائدا مرحلة واحدة وتقيم فاذا تسلمت البلد سلمته اليك لانني لا يمكنني ان أملكك انا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعد عن خلاط ارسل اليه يقول له تعود الى بلدك والا جئت اليك وأوقعت بك وبمن معك وكان في قلة من الجيش فعاد الى ماردين وكان الملك الاشرف موسى بن العادل ابي بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد ارسل الى صاحب ماردين لما سمع انه يريد قصد خلاط يقول له ان سرت الى خلاط قصدت بلدك وانما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار الى خلاط جمع الاشرف العساكر وسار الى ولاية ماردين فاخذ خلها وأقام بديار بكر حتى تجبى الاموال اليه فلما فرغ منه عاد الى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل خرجت تطلب قرنين عادت بلا أذنين وأما بلبان فانه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط وضيق على اهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الاجناد والعامة وخرج اليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد الى الذي بيده من البلاد وهو ملازكرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطرهم الى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه في القلعة وأرسلوا الى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا اليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وحبس ابن بكتمر في قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من اذا أراد امرا هيأ اسبابه بالامس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر احدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والاموال فيملكها صفوا عفوا ثم ان نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها منها حصن موسى ومدينته فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته فطمع

وأوغل فى الهرب فاخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يقتل من أصحابه الا القليل وهم بجرحى وعاد الى صيافارقين

﴿ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج﴾

فى هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه وأخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا يقصدهم ولا يسعى فى راحة تصل اليهم وكان الوالى بها يواصل رسله فى طلب النجدة وازاحة من عليه من الكرج فلا يجاب لدعاء فلما طال الامر عليه ورأى ان لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير واقطاع يأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فانا لله وانا اليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للاسلام وأهله نصرا من عنده فان ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد ثم ان الله تعالى نظر الى قلة ناصر الاسلام فتولاه فأماتت ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم الى آخر السنة

﴿ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان﴾

فى هذه السنة فى رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولى لتلك الاعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لانه زوج ابنة طاشتكين الى جبال كرستان وصاحبها يعرف بابى طاهر وهى جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين وسبب ذلك ان مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من اكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوى الرازى واحتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ولحق بابى طاهر صاحب كرستان فاكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفى أبو طاهر فقوى أمر قشتمر واطاعه اهل تلك الولاية فامر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار اليه فارسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ويخرج الى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الاعمال ونزل الى العسكر فالقيهم فهزمهم وأرسل الى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين اينغمش صاحب أصبهان وهمذان والرى يعرفهما الحال ويقول انى لا قوة لى بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا الى حربى وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة ان ملك تلك الجبال فاجاباه الى ما طلب فقوى جنانه واستمر على حاله

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قتل صبى صبيا آخر ببغداد وكانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال أحدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت فى جوفه فمات فهرب القاتل ثم اخذ وأمر به ليقتل فلما أراد قتله طلب دواة وبياضا وكتب فيها من قوله

قدمت على الكريم بغير زاد * من الاعمال بل قلب سليم
وسوء الظن ان تعتد زادا * اذا كان القدوم على كريم

وفيها عزل برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة البخارى رئيس الحنفية

المذكورة على رؤس الملا من غير محاشاة * أو جنوح الى مداهنة ومحاباة * فقابل الامر بالامتثال * وتجافى من حرمة العلم لحشمة الملك وهيبة الجلال * وسأل ارباب الخطوط عما عندهم من قضية الحال * وجلية المقال * فأما أبو بكر فانه اراد أن يتلافى بانى الخطاب فزعم أن الاشتراك فى رتبة العلم أحدث بينهما منافسة تنازعا معها مذهبى التجسيم والاعتزال فلا صح ما نسبق اليه * ولا تقرر ما ادعيته عليه * وأما الآخرون فمن جار على حكم المساعدة * فى المحاباة والمهاودة * ومن حاد لئام الاحتشام فى التصريح * واطلاق الدعوى باللفظ الفصيح * مكاشفة عدت الشهادة الى التعصب * وجاوزت حد المعلوم الى التغضب * وفى ذلك وجوه اهل الرأى حتى كادت تثور فتنة لولا أن هيبة السلطان أجرت الالسن الطوال * وضربت على النفوس التطامن والانخزال * وتلطف قاضى القضاة

بخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدى الخراج الى الخطا وينوب عنهم فى البلد فلما جاج لم تحمد سيرته فى الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد اكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم يلتفت اليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم وفيها فى شوال مات شيخنا أبو الحرم مكى بن ريان بن شبة الصوى المقرى بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقراآت لم يكن فى زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحيهم كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة الى الليل وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرخوم ومضى فى طائفة من أصحابه الى الشام وسار الحاج ومعهم الجند فوصلوا سالمين ووصل هو الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب فاقطعه اقطاعا كثيرا بمصر وأقام عنده الى أن عاد الى بغداد سنة ثمان وستمائة فى جمادى الاولى فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب اليه فلما وصل اكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة وفيها فى جمادى الآخرة توفى أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرانى المعروف بابن النطرونى فى مارستان بغداد وكان قد مضى الى المابورقى فى رسالة بافريقية فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية نفرقها جميعها فى بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نم الرجل رحمه الله وله شعر حسن وكان قيما بعلم الادب وأقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ أبى الحرم واجتمعت به كثيرا عند الشيخ ابى الحرم رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة اربع وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ماوراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها﴾

فى هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك ان الخطا كانوا قد طالت ايامهم ببلاد تركستان وماوراء النهر وثقلت وطأتهم على اهلها ولهم فى كل مدينة نائب يجبى اليهم الاموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان مقامهم بنواحى اوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحى فاتفق ان سلطان سمرقند وبخارا ويلقب خان خانان يعنى سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عريق النسب فى الاسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فارسل الى خوارزم شاه يقول له ان الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم فى الاموال والابشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل اليك ما نحمله اليهم ونذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة فاجابه الى ذلك وقال أخاف انكم لا توفون لى فسير اليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل وجعلوا عنده رهائن فشرع فى اصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه على شاه طبرستان مضافة الى جرجان وأمره بالحفظ والاحتياط وولى الامير كزلك خان وهو من اقارب أمه واعيان دولته بنيسابور وجعل معه عسكرا وولى الامير جلدك مدينة الخام وولى الامير أمين الدين ابا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين حالا ثم صار اكبر الامراء وهو الذى ملك

لعرض الحال * وتقرير صورة المحال * واتفق أن تعين الامير أبو المظفر نصير ابن ناصر الدين فى مجلس السلطان فرصة القول فى باب القاضى أبى العلاء صاعد فنبه على سمته وسيماه وأنبأ عن ورعه وتقواه * والتمس على سبيل التلطف أن يقع تلاف للغضاضة به وتدارك للمهانة لطارئة عليه يعرف من تصدى لمكاشفته * وتعرض لاستفزار مكانته * فوثق به السلطان فيما قال * وحدث ان صاعدا اجل من أن يعتقد الاعتزال * وأمر باشخاص من انتدب لمراغمته * ومقابلته بما لقتضاه حكم وقاحته * واستحلس القاضى قرارة بيته * فلم يكن يبرز الا لفرض يقضيه * أو علم يمليه * مجتزئا بالله تعالى جده عن غيره * ومقتنعا بما ادره عليه من خيره * ورأى ان بقية العمر أعز من ان تضاع على القيل والقال * وخدمة فضول الآمال * ومزاولة ما يصم قدر العلم بالابتذال * واستناب والدين له كالفرقدين

كرمان

كرمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأقر الامير الحسين على هراة وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور وكرمسير واستناب في مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار الى خوارزم ويجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤا اليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه

﴿ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه﴾

ثم ان ابن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم الى الاموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا الى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا فعظم عليه ولم يمكنه مكاشفته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب اليه يستحسن فعله ويأمره باتفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته اليهم وقال له انني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل صاحب الخام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته وأرسل الى جلدك يأمره بالمسير الى هراة وأسر اليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل ولو أول ساعة يلقاه فسار جلدك في ألفي فارس وكان أبوه طغرل ايام السلطان سنجر والي بهراة فهو اليها بالاشواق يختارها على جميع خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حنكته التجارب فقال لابن خرميل لا تخرج الى لقائه ودعه يدخل اليك منفردا فانني أخاف ان يغدر بك وان يكون خوارزمشاه أمره بذلك فقال لا يجوز أن يقدم مثل هذا الامير ولا التفيه وأخاف ان يضطغن ذلك علي خوارزمشاه وما اظنه يتجاسر علي فخرج اليه الحسين بن خرميل فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء وكان جلدك قد أمر اصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم اصحابه ودخلوا المدينة واخبروا الوزير بالحال فامر باغلاق الباب والطلوع الى الاسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل الى الوزير يبذل له الامان ويتهدده ان لم يسلم البلد يقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري وقال لجلدك لا أسلم البلد اليك ولا الى الغادر ابن خرميل وانما هو لغياث الدين ولابيه قبله فقدموا ابن خرميل الى السور وخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره وكفرانه الاحسان ممن أحسن اليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك الى خوارزمشاه بجلية الحال فانفذ خوارزمشاه الى كزلك خان والي نيسابور والى أمين الدين ابي بكر صاحب زوزن يأمرهما بالمسير الى هراة وحصارها وأخذها فسارا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت اليهم وقال ليس لكم من الحمل ما يسلم اليكم مثل هراة لكن اذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها اليه فقاتلوه وجدوا في قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن خرميل قد حصن هراة وعمل لها أربعة اسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من كل ما أراد قال بقيت اخاف على هذه المدينة شيأ واحدا وهو ان تسكر المياه التي لها اياما كثيرة ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق اسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا

أو الشعريين * أبا الحسن
واباسعيد شريكي عنان في
المروءة والفتوة * ورضيعي
لبان في أوامر النبوة *
وأحكام آيات الله المتلوة * في
قضاء المواجب * واحتمال
النوائب * فعما له عن
حقوق الناس * وفرغ لعلم
النظر والقياس * وحظي
بمثل ما أنبأ عنه ابو الفتح
البستي من حاله
قد جمع الله أربعا الى
فيمن عزى وحسن حالي
بلاغ علم مساغ شرب
ورفاغ عيش فراغ بالي
نعم واطلق عادي الايام على
نباهة أبي بكر وارتفاع
مكانته * واتساع حشمته
ومهابته * وانبساط أيدي
حاشيته * في اموال واعراض
اهل ناحيته * واستمرار
العناد بينه وبين أعيان
الاشراف في جيرته * ألسن
الجمهور بحضرة السلطان
بما طغى من حاله * وبغى من
جرح خباله * ادلالا بأفاعيله
واعتمادا بزعمه على ما سبق
العلم به من خلوص ضميره
ورشاد سعيه * فتداركه
الاحتمال * مدة من الزمان

المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فاحاطت بها ولم تصل الى السور لان ارض المدينة مرتفعة فامتلأ الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلئ الخندق ماء ويمنع الوصل من القرب من المدينة فاقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود الى قتال خوارزمشاه الخطا وأسره واما خوارزمشاه فانه دام القتال بينه وبين الخطائي بعض الايام اقتتلوا واشتد القتال ودام بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير وكان من جملة الاسرى خوارزمشاه وأسر معه امير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود أسرهما رجل واحد ووصلت العساكر الاسلامية الى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فارسلت اخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال فلما اتاه الخبر سار عن هراة ليلا الى نيسابور واحس به الامير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فاراد هو ومن عنده من الامراء منعه مخافة أن يجرى بينهم حرب يطمع بسببها اهل هراة فيهم فيخرجون اليهم فيبلغون منهم ما يريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمره وادخل اليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان ان صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان الى أخيه على شاه وهو بطبرستان فدعا الى نفسه وقطع خطبة اخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان اختلاطا عظيما وأما السلطان خوارزمشاه فانه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب ان تدع السلطنة في هذه الايام وتصير خادما لعلى احتال في خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه ويخفه ويعظمه فقال الرجل الذى اسرهما لابن مسعود أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت فقال أنا فلان وهذا غلامى فقام اليه واكرمه وقال لولا ان القوم عرفوا بمكانك عندى لاطلقتك ثم تركه اياما فقال له ابن مسعود انى أخاف ان يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون انى قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فاهلك واحب أن تقترض على شيأ من المال حتى احمله اليك فقترض عليه مالا وقال له اريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابى الى اهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معه من يحمل المال ثم قال ان اصحابكم لا يعرفون اهلنا ولكن هذا غلامى اثق به ويصدقه اهلى فاذن له الخطائى بانفاذه فسيره وأرسل معه الخطائى فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فسار واحتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه الى خوارزم فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الاخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان

﴿ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان﴾

لما وصل خوارزمشاه الى خوارزم اتته الاخبار بما فعله كزلك خان وأخوه على شاه وغيرهم فسار الى خراسان وتبعته العساكر فقطعت ووصل هو اليها في اليوم السادس ومعه ستة فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فاخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ اخاه على شاه فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئا الى غياث الدين محمود الغورى صاحب فيروزكوه

مدينة محافظة على الصنيعة من الانتزاع * والعارفة من الارتجاع * وابقاء على المحل المرموق في الله من ان يلبه الحطاط * أو يحل له رباط * حتى اذا جاوز الاحتمال حده * وامتنع المستزاد بعده * عقد السلطان ولاية نيسابور لابي على الحسن بن محمد بن العباس وقد كان جده في ملوك آل سامان مجدودا * وفي جملة الاعيان والثناء معدودا * وأثره فيما بين آثار الرجال محمودا * ووافق أبوه ايام السلطان * أول مقدمه خراسان * وانتصابه منصب اصحاب الجيوش بها لآل سامان * فانجبل خلقاهما على مناسبة الاشتراك ومبعة الشباب * وعرف السلطان له حق الخدمة والاصطحاب * غير انه اعتبط في شبابه فعاد كما بدا

كل امرئ يوما مداه الى الردى
وكان يضرب أبا نصر احمد ابن مكال بقرابة * واواصر مستجابة * فنشأ في بعلته نشأة المقبل * وخرج يزوج

فتلقاه واكرمه وانزله عنده وأما خوارزمشاه فانه دخل نيسابور وأصلح امرها وجعل فيها نائبا وسار الى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه واحسن الى أولئك الامراء ووثق بهم لانهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير فارسل خوارزمشاه الى الوزير يقول له انك وعدت عسكرى انك تسلم المدينة اذا حضرت وقد حضرت فسلم فقال لا أفعل لانى اعرف انكم غدارون لا تبقون على احد ولا أسلم البلد الا الى غياث الدين محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف اليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من اهل هراة وقالوا اهلك الناس من الجوع والقلة وقد تعطلت علينا معايشنا وقد مضى سنة وشهر وكان الوزير بعد تسليم البلد الى خوارزمشاه اذا وصل اليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ويجب ان نحتال فى تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فانتهى ذلك الى الوزير فبعث اليهم جماعة من عسكره وامرهم بالقبض عليهم فمضى الجند اليهم فثارت فتنة فى البلد عظم خطبها فاحتاج الوزير الى تداركها بنفسه فمضى لذلك فكتب من البلد الى خوارزمشاه بالخبر وزحف الى البلد واهله مختلطون فخربوا برجين من السور ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمائة واصلح حاله وسلمه الى خاله امير ملك وهو من اعيان امرائه فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه واما ابن شهاب الدين مسعود فانه اقام عند الخطا مدة فقال له الذى استأسره يوما ان خوارزمشاه قد عدم فايش عندك من خبره فقال له اما تعرفه قال لا قال هو اسيرك الذى كان عندك فقال لم لا عرفتنى حتى كنت اخدمه واسير بين يديه الى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطائى سرينا اليه فسار اليه فأكرمهما واحسن اليهما وبالغ فى ذلك

(ذكر قتل غياث الدين محمود)

لما سلم خوارزمشاه هراة الى خاله أمير ملك وسار الى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد بن سام الغورى صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فسار أمير ملك الى فيروزكوه وبلغ ذلك الى محمود فارسل يبذل الطاعة ويطلب الامان فأعطاه ذلك فنزل اليه محمود فقبض عليه أمير ملك وعلى على شاه أخى خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما الى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه فأرسل الى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمائة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة واعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حليما كريما من اكرم الملوك اخلاقا رحمه الله تعالى

(ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا)

لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا اليه والمقدم عليهم شيخ دوانهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطايشكو وكان عمره قد جاوز مائة سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهزم

القدح قدح ابن مقبل * واحدث له شكر النعمة حشمه * وصفوا لخدمة أدبا وهمه * فلما مضى أبو نصر لسبيله * أنهى الى السلطان حاله فى كيسه وذلاقته * وظرفه ولباقته * فاستحضره ليخبره * فوافق أولى النظرة قبولا * وطرفا بمرود الاعجاب منه مكحولا * وازداد على طول الخبرة وفاقا * وعلى سوق الخدمة نفاقا * فنماء الاشياء اصلها التدبير * ولقمها التابير * والماء الغير * حتى سمت به المراتب * وتوجهت اليه الرغائب * وقابلت حشمته حشمة ارباب الجنود * وسادات الاقلام والحدود * وكان غرض السلطان فى عقد الرياسة له أن يقمع به من انعقدت له بداله التأله والتعبد * وسابقة الترهب والتزهد * فقدر ان الذى حظى به معقود بالدين فلا سبيل الى حله * ولا محاق أبدا المستهله * ويرجع به الى ما يوجبه حكم التقية * من رفض المراتب العلية والمطامع

الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى وكان فيمن اسر طايبكو مقدمهم وجيء به الى خوارزمشاه فاكرمه واجلسه على سريره وسيره الى خوارزم ثم قصده خوارزمشاه الى بلاد ماوراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد الى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا اليه فزوجه خوارزمشاه بابنته وردّه الى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا

(ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين)

لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه واقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل الى ملك الخطا يدعوه الى سمرقند ليسلمها اليه ويعود الى طاعته وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الاسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الاساءة ومضى الى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الابواب ووقفت بجواريها تمنعه وارسلت اليه تقول أنا امرأة وقتل مثلي قبيح ولم يكن مني اليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركي أحد عاقبة فاتق الله في فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف في نفسها ووصل الخبر الى خوارزمشاه فقامت قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك وقالت ان هذا البلد قد أتاه الناس من اقطار الارض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى وأمر عساكره بالتجهيز الى ماوراء النهر وسيرهم ارسالا كلما تجهز جماعة عبروا جيحون فعبر منهم خلق كثير لا يحصى ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ونزل على سمرقند وانفذ الى صاحبها يقول له قد فعلت ما لم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت فقال لا أخرج وافعل ما بدا لك فامر عساكره بالزحف فأشار عليه بعض من معه بان يأمر بعض الامراء اذا فتحوا البلد ان يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار فيمنع من نهبه والتطرق اليهم بسوء فانهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الامراء بذلك وزحف ونصب السلاليم على السور فلم يكن باسرع من أن أخذوا البلد واذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من اهل سمرقند فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال انهم قتلوا منهم مائتي ألف انسان وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمي الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف الى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفا فارسل يطلب الامان فقال لا أمان لك عندي فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الارض فطلب العفو فلم يعف عنه وأمر بقتله فقتل صبرا وقتل معه جماعة من اقاربه ولم يترك أحدا ممن ينسب الى الخانية ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه ولم يبق لاحد معه في البلاد حكم

(ذكر الوقعة التي أفنت الخطا)

لما فعل خوارزمشاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم الى ملكهم فانه لم يحضر الحرب فاجتمعوا

الدنيوية * فلما ورد هاساس اهلها اساسة لو عاش اليها زياد لعاد الى سياسته * بعين استزادته * تخفت عليه حتى صرير الجنادب * وسكن حتى دبيب العقارب وهد أحق شغب المراتب * وسكت حتى دوى المذاهب فكأنما اقبل به شفيف الشتاء

فلكل سامة أو هامة في الوجار انجحار * وبالمغار استتار * وقد بث عبد الله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدب عقاربه ها ان هيبة السلطان هي التي خطمت الاهاصيم * وحطمت الاقالسيم * فلو وكل بعض همه برواسي الجبال لاصبحت منسوفة * أو بطوامي البحار لعادت منزوفة * فاخطر خطة يتنبه بها عن الرشد تائه * ويعمى عندها من قصد الصواب نبه أو نابه * ومن احسن في جنب مثاله * فعن عون القدر وحكم الفلك الدوار على البشر * أبى الله ان يحمد على درء المريد شهاب * أو يمدح على سق الصول ذهاب

عنده وكان طائفة عظيمة من الترك قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلي خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل الى خوارزمشاه يقول له أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفونا عنه وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وانهم ان انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة ان تسير الينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ونحن نحلف لك اننا اذا ظفرنا بهم لا نتعرض الى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في ايدينا وأرسل اليه كشلي خان ملك الترك يقول ان هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ونحلف أننا اذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها فأجاب كلا منهما الذي معك ومعاضدك على خصمك وسار بعساكره الى ان نزل قريبا من الموضع الذي تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها انه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن انه معها ووقع الخطا والترك فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم الا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال ليس اليه طريق الا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم الى خوارزمشاه منهم طائفة وسار وافى عسكره وأنفذ خوارزمشاه الى كشلي خان بذلك مدة ثم أرسل اليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما اننا اتفقنا على ابادتهم ينبغي أن نقتسم بلادهم فقال ليس لك عندي غير السيف ولست بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا فان قنعت بالمساكنة والا سرت اليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه انه لا طاقة له به فكان يراوغه فاذا سار الى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها واذا سمع ان طائفة سارت عن موطنهم سار اليها فأوقع بها فأرسل اليه كشلي خان يقول له ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص والا ان كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقي فاما ان تهزمني وتملك البلاد التي بيدي واما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه الى ما طلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أحسن عمارة بالجلاء منها والملحاق ببلاد الاسلام ثم خرج بها جميعها خوفا من الترك أن يملكوها ثم اتفق خروج هؤلاء الترك الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان النهرجي على كشلي خان التركي الاول فاشتغل بهم كشلي خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبر النهر الى خراسان

(ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلاط)

في هذه السنة ملك الملك الاوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مدينة خلاط وسبب ذلك انه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلاط ما ذكرناه قصد هو مدينة موش وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه فلما ملك ما طمع في خلاط فسار اليها فانهزم بلبان كما ذكرناه أيضا فعاد الى بلده وجمع وحشد وسير اليه أبوه جيشا فقصد خلاط فسار اليه بلبان فتصافوا واقتتلوا فانهزم بلبان وتمكن نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولا الى مغيث الدين

وتطرف الرئيس أبو علي حواشي المقصود ينتزع منهم بعض ما أخذوه رشى * واحتسوه ثروبا وكشى * ثم نقلهم الى بعض القلاع عبرة لمن أكل بالله * وأظهر الزهد في الدنيا ثم لم يتوكل على الله * وهتم بصاحبهم فأخذ حذره * وأرخى من دونه ستره * ولم يقصد السلطان قصد استئصاله * ولا نفضه عن فضول ماله * فترك من وراء الحجاب على قدم الزهادة * وخصص الغلام عن العادة * وعطف من بعد الى جماعة الاشراف العلوية * ذوي الاقدار العلية * فأشعرهم أن حشمتهم بالطاعة موصولة * وحرمتهم بلزوم القصد وترك تعدي الحد مكفولة * فتلقوه بالاجلال * وقابلوا أمره بالامتثال * علما بأنه ظل الله في أرضه فما يغني عنه غير الانقياد * والميل على الغلو للاقتصاد * واستخلف أبو علي علي الرياسة عند الشخوص الى الحضرة أبا نصر منصور بن رامش وهو يضربه بقرابة أبي السلطان الاقطعها عليه صيانة له

طغرل شاه بن قلج أرسلان وهو صاحب ارزن الروم يستنجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصراموش فأشرف الحصار على أن يملك فغدر ابن قلج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعا في البلاد فلما قتله سار الى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار الى ملازكرد فردّه أهلها أيضا وامتنعوا عليه فلم يجد في شئ من البلاد مطمعا فعاد الى بلاده فأرسل أهل خلاط الى نجم الدين يستدعونه اليهم ليملكوه فحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى البيرمنها وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على اعمال خلاط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها فاشتد المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان وهو من أعظم الحصون وأمنعها وعصوا على نجم الدين واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة ارجيش فأرسل نجم الدين الى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه نجدة وان يمده بعسكر فسير اليه أخاه الملك الاشرف موسى بن العادل في عسكر فاجتمعا في عسكر كثير وحصرا قلعة وان وبها الخلاطية وجدّوا في قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين واستقرّ ملكه بخلاط وأعمالها وعاد أخوه الاشرف الى بلاده حرّان والرها

(ذكر غارات الفرنج بالشام)

وفي هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرّت من اطلاق اسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص فنزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة فدخل الى بلاد طرابلس وحاصر موضعا يسمى القليعات وأخذه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخرّبه وتقدّم الى طرابلس فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد الى بحيرة قدس وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم تستقرّ قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادهم قبل البرد فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار الجزيرة الى أماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر ان أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من اسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في ردّما أخذوا ويقول نحن صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم تعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا وأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حال لخروج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحبها الى ما طلب وأرسل الاسرى

(ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها)

لما تم ملك خلاط واعمالها للملك الأوحد نجم الدين بن العادل سار عنها الى ملازكرد ليقرّر

من تعيير الكرام * وتثريب الرجال عند ذكر الارحام * وطوع له قياد الاحرار * والاشراف الكبار * والزمهم أن يخدموه بكرة وأصيلا * ويختصوا بطاعته جملة وتفصيلا * فمن ورم أنفه شريفا كان أو مشروفا نفى عن بلده * وعرى عما تحت يده * فشخصت اليه الاعناق * وأحدقت بفنائه الاحداق * واستتب له رياسة لا عهد لأحد بمثلها من رؤساء خراسان الا لأبا عبد الله الصمي فانه بلغ منلها ولكن على عرصديد * وعز عتيد * وبأس شديد * وخدم وعبيد * ومال ينادي على العفاة هل من مزيد * وفرش في زمانه ببساط العدل بقواعد الاحفاش * كرجالات الثروة والرياش * اشتراكا في الانصاف * ونفقت سوق الاحتساب بالدرر فوق الاكتاف * فمن بدعة مرفوضة * وريبة مخفوضة وحدود على الحق مقامة * وعيون على الفضول صمامة * وبطلت معها الخانات والمواخير * وخرست العيدان

قواعدها أيضا ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الاوحدوناد وابتشعارشاه ارمن وان كان ميتا يعنون بذلك رد الملك الى أصحابه ومماليكه فبلغ الخبر الى الملك الاوحد فعاد اليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فمال اليه بعضهم حسدا للآخرين فملكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الاعيان فسيرهم الى ميافارقين وكان كل يوم يرسل اليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم الا القليل وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليهم

(ذكر ملك ابي بكر بن البهلوان مراغة)

في هذه السنة ملك الامير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك ان صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولي بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لابيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعا كثيرا فأرسل اليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الامير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين الا انه لم تطل أيامه حتى توفي في أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد فلما توفي سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين دز فانها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر فامتنع بها على الامير أبي بكر

(ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة)

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري ولقي من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله انه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجع السبع فانه هرب من يده الى الشام سنة ثلاث وستمائة فارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول ان الوزير يريد أن لا يبقى في خدمة الخليفة أحدا من مماليكه ولا شك انه يريد أن يدعي الخلافة وقال الناس في ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم

ألا مبلغ عني الخليفة أحمدا * بوقي وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما * فعالك يا خير البرية ضائع
فان كان حقا من سلالة أحمد * فهذا وزير في الخلافة طامع
وان كان فيما يدعي غير صادق * فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله وقيل في سبب ذلك غيره ولما عزل أرسل الى الخليفة يقول اني قدمت الى ههنا وليس لي دينار ولا درهم وقد حصل لي من الاموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد اسوة ببعض العلويين فأجابه انا

والزامير * وركدت ألحان النائحات والسكارى * واستوت في الانجحار واللاذ بما وراء الاستار عون النساء والعذارى * فأما شوارع أسواق البلد فقد كانت منذ بنيت نيسابور فضاء لا يكنها غطاء * ولا يظلها دون السماء سماء * تخرقها الاعاصير تارة وتردغها الاهاضيب أخرى فاما التراب مثارا * واما الانداء ثلوجا وأمطارا * لم يفطن أحد من ملوك خراسان وأصحاب الجيوش بها * لالحاقها بأخواتها من ديار خراسان تسقيفا لها وتستيرا * وتنظيفا عن الاقذاء وتطهيرا * حتى ورد الرئيس أبو علي وطالب أهلها به فلم يمض شهران حتى سقفت نحو السكالك سقوفها * وقامت على ركائز الأعواد حروفها * فمن بين منقش ومزخرف * ومدبج بالاصباغ ومفوف * تنفتح منها فروج بمقدار ما يملى ضياء النهار * على الابصار * دون ما وسع لدرور الغبار * وتمكن لدرور القطار * ومن البصراء

ما أنعمنا عليك بشئ فنويناه عادته ولو كان ملء الارض ذهبا ونفسك في أمان الله وأماننا ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك غير أن الاعداء قد أكثروا فيك فاخترانفسك موضعا فنتقل اليه موقرا محترما فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه ففعل به ذلك وكان حسن السيرة قريبا الى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفا عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد اميرا لحاج من مصر في الخدمة العادلية وعاد ايضا فتقرر وأقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطي الا انه لم يكن متحكما

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ليلة الاربعاء خمس بقين من رجب زلزلت الارض وقت السحر وكنت حينئذ بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الاخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية وفيها اطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من ارباب الامتعة من المكوس من سائر المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بنتا لعز الدين نجاح شرابي الخليفة توفيت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فرفعوا في حساب ثمنها مؤنة البقرة فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر باطلاق المؤنة جميعها وفيها في شهر رمضان امر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد عمل ذلك في جانبي بغداد وجعل في كل دار من يوثق بأمانته وكان يعطى كل انسان قدحا مملوأ من الطبيخ واللحم ومنا من الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابي ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سد الخندق وفيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله ابن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان عالي الاسناد روى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل وله اسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها

(ثم دخلت سنة خمس وستمائة)

(ذكر ملك الكرج ازجيش وعودهم عنها)

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها الى ولاية خلاط وقصدوا مدينة ازجيش فحصروها وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الاموال والامتعة وغيرها وأسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها بالكلية ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان نجم الدين أيوب صاحب ارمينية بمدينة خلاط وعنده كثير من العساكر فلم يقدم على الكرج لاسباب منها كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف اليهم من القتل والاذى وخاف ان يخرج منها فلا يمكن من العود اليها فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا الى بلادهم سالمين لم يذعرهم ذاعر وهذا جميعه وان كان عظيما شديدا على الاسلام وأهله فانه يسير بالنسبة الى ما كان مما نذكره سنة أربع عشرة الى سنة سبع عشرة وستمائة

(ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود)

استغراق قدر العمارة مائة ألف دينار عن طيب النفوس وفضل الكسوب لم يكلف أحد عليها * ولم يستكره دون المنال فيها * بل عمتهم المباهاة * وشملتهم المباراة * فأنفقوا موفرين ومستبصرين * ولا نفسهم على العجز دون المراد مستقصرين * فمن تسوق تاسعا أو عاشرا ليس بادئا أو ثانيا رادا الى الكاهل قذاله * وترك على شغل النظر أشغاله * فيالها من سمك شاخص نحو السماك * وزائد فلكا ناطنا على الافلاك * ولما عاد الرئيس الى الحضرة وقرر حال مأموله * ومن عزله وولاه * وافق هوى السلطان ورضاه * فصادف تقريرا وتمكينا * واجتهادا واسعا مستبينا * وسنورد شرح ما يتجدد من هذه الاحوال ان أراد الله تعالى ذلك ويسره

(ذكر الامير صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين)

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة لما ملك خراسان

في هذه السنة قتل سنجرشاه ابن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازي ولقد سلك ابنه في قتله طريقا عجيبا يدل على مكر ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سيئ السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم والاولاد وبلغ من قبيح فعله مع اولاده أنه سير ابنيه محمودا ومودودا الى قلعة فرح من بلد الزوزان وأخرج ابنه هذا الى داربا المدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت الدار الى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل اليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذي ففي بعض الايام اصطاد حية وسيرها في منديل الى أبيه لعله يرق له فلم يعطف عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها واختفى ووضع انسانا كان يخدمه فخرج من الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غازي بن سنجر فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا وخيلا وأمره بالعود وقال ان أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعملها ويقبح ذكرنا فاذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونفع معه في صداع لاينادى وليده فسار الى الشام وأما غازي بن سنجر فانه تسلق الى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار فسترت عليه بغضا لابيه وتوقعا للخلاص منه لشدته عليهن فبقي كذلك وترك أبوه الطلب له ظنا منه انه بالشام فاتفق ان أباه في بعض الايام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على المغنين ان يغنوا في الفراق وماشاكل ذلك ويبكي ويظهر في قوله قرب الاجل ودنو الموت وزوال ماهو فيه فلم يزل كذلك الى آخر النهار وعاد الى داره وسكر عند بعض حظاياه ففي الليل دخل الخلاء وكان ابنه عند تلك الحظية فدخل اليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجواري فلما فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن ولم يشك في الملك فاتفق ان بعض الخدم الصغار خرج الى الباب واعلم استاذدار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الابواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجرشاه وأرسل اليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي ودخلوا عليه ليأخذوه فمانعهم عن نفسه فقتلوه وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود الى البلد وملكه ولقب بعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجواري اللواتي لابيه فغرقهن في دجلة ولقد حدثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جواري مغرقات منهن ثلاث قد احرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه ان محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار فاذا احترقت ألقاها في دجلة وباع من لم يغرقه منهن فتفرق أهل تلك الدار أيدي سبا وكان سنجرشاه قبيح السيرة ظالما لماشاشما كثير المخاتلة والمواربة والنظر في دقيق الامور وجليلها لايمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم من أخذ الاموال والاملاك والقتل والاهانة وسلك معهم طريقا وعرا من قطع الالسنة والانوف والآذان وأما اللحى فانه حلق منها مالايحصى وكان جل فكره في ظلم يفعله وبلغ من شدة ظلمه انه كان اذا استدعى انسانا ليحسن اليه لايصل الا وقد قارب الموت من شدة الخوف واستعلى في أيامه السفهاء ونفقت سوق الاشرار والساعين بالناس فخرب البلد وتفرق

وأخلاها من شر ذمة آل سامان * عرف له موالاته اياه وهجرته فيها اسمعيل بن ناصر الدين أخاه اعظاما لحق الكبر واعترافا بواجب الفرض فولاه نيسابور مظنة أصحاب الجيوش الاكابر على وجه الزمان الغابر ساد به مكانه من قبل اذهو سائس الجمهور * ومدبر هاتيك الامور * ومن وضع أخاه موضعا قد سدده قبيل بنفسه * ورآه أهلا لبعض قدره * فقد بالغ في البر والتوقير * وخرج من عهدة التقصير * فوليها سنين عدة حميد السيرة في الخبرة كريم الفعال * في سياسة الرجال وجرى على يده من حميد الآثار في مطاردة أبي ابراهيم المنتصر عند ركضاته وكفاية ما كان يطرأ من معرته وشذاته * ماتقدم شرحه ثم رأى السلطان بعد ذلك أن يجمع به شمله ويصل به شاهد ته حبله فاستدعاه * وأهل به مستجمه ومغزاه * فلم يزايله بعد بحال ولم يفاصله في حالق حل وترحال * وكان يراه

أهله لاجرم سلط الله عليه أقرب الخلق اليه فقتله ثم قتل ولده غازى وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودودا وجرى فى داره من التحريق والتغريق والتفريق ماذكرنا بعضه ولو رمنا شرح قبح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ثانى المحرم توفى أبو الحسن ورام بن أبى فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها وكان صالحا وفى صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوى وهو من أهل واسط وفى شعبان توفى القاضى محمد بن أحمد بن المنداى الواسطى بها وكان كثير الرواية للحديث وله اسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على بن الحصين وفيه توفى القوام أبو فراس نصر بن ناصر بن مكى المدائنى صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروأة يحب الادب واهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ولما توفى ولى بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقى متوليا الى سابع ذى القعدة وعزل لعجزه وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها الى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا الى مساكنهم

(ثم دخلت سنة ست وستمائة)

(ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلان شاه ومظفر الدين)

فى هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين وحصر مدينة سنجار والجميع من أعمال الجزيرة وهى بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود وسبب ذلك ان قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل فان ولد العادل تزوج بابنة لنور الدين وكان لنور الدين وزراء يحبون ان يشتغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما البلاد التى لقطب الدين وبالولاية التى لولد سنجر شاه بن غازى بن مودود وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب الدين للعادل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل الى العادل فى المعنى فأجابه الى ذلك مستبشرا وجاءه مالم يكن يرجوه لانه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد اذا ملكها الولد الذى هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه فى خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل الى المسير من دمشق الى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع الى رأيهم وقولهم ومعرفتهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فاما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال فعظم الامر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر ومايحتاج اليه فقال نور الدين نحن فعلنا ذلك وخبره الخبر فقال بأى رأى تجىء الى عدو لك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك لقصدك تعلم به فلا يصل الا وقد فرغت من جميع ماتريده تسهى حتى يصير قريبا

فى مقاماته أول من سمح بروحه فى الحماة على دين الله * والمراماة من دون حق الله * وواقيا أثناءها بمهجته نفسه ان كثف زحام * أو عظم على جيوش حق الله استطام * شفقة تجيش بها لحمة القربى * وشجنة من الرحم الدنيا * وكان ينصر مذهب الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى اعتقادا ويرى الاستمالة به رشادا فأمر بمدرسة بنيسابور فى جوار القاضى أبى العلاء صاعد بن محمد وأنفق مالا حتى ابتناها * وحبس حبائس على من أواها * ودارس بأمالى العلم فى ذراها * فبقيت تذكرة عنه تغدى بالعلم وتراح * ويثنى عليها الامساء والاصباح * ولم ينقم السلطان منه طول أيامه قولا محالا * ولا فظا دون الصواب مستحالا * ولا شكا أحدا من الكبار له جانبا ونعلا لاشفاق الرؤس على الاتباع مجانبا * وقضى الله أن خانه الشباب ولما استولى أمده * ونقض بياق الامل فيه يده * فلحق بالواحد

منك ويزداد قوة الى قوته ثم ان الذى استقر بينكما انه يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك ان تفارق الموصل الى الجزيرة وتحصرها والعادل ههنا هذا ان وفى لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز ان تفارق الموصل وان عاد الى الشام لانه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع بيد أولاده فتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك وقد فات الامر وليس يجوز الا ان تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويقتدى بك هذا والعادل قد ملك الخابور وتصيبين وسار الى سنجار فحصرها وكان فى عزم صاحبها قطب الدين ان يسلمها الى العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن برنقش مملوك أبيه زنكى وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا الى الملك العادل فبينما الامر على ذلك اذ جاءهم أمر لم يكن لهم فى حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل أرسل وزيره الى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وان الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلا فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فعبر اليه سفينة عبر فيها واجتمع بنور الدين ليلا وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين الى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين ان صاحب سنجار أرسل ولده الى مظفر الدين يستشفع به الى العادل ليبقى عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن انه لو شفع فى نصف ملك العادل لشفعه لاثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع اليه فلم يشفعه العادل ظنا منه انه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين فلما رده العادل فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه ولما وصل الى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين وهو صاحب حلب والى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب الى ذلك وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل ان امتنع من الصلح والابقاء على صاحب سنجار وأرسلا أيضا الى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا الى العادل فى الصلح ايضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك استاذ الدار والامير آق باش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا الى الموصل وسارا منها الى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا ينامحونه فى القتال لا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه كان يدخل اليها الاغنام وغيرها من الاقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة الى العادل أجاب أولا الى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الامر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمله وأجاب الى الصلح على ان له ما أخذ وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى ان يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار الى حران وعاد مظفر الدين الى اربل وبقى كل واحد من الملوك فى بلاده وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكى

الغفار
ان الكرام قليلة الاعمار
وكتبت فى مرثيته رسالة
سئلت اثباتها فى ذكره
ففعلت اذ كان فى ضمنها
ما ينبى بشرح حاله * وتقرير
بعض خصاله * وهى
بسم الله الرحمن الرحيم
آه من سفرة بغير اياب
آه من حسرة على الاحباب
آه من مضجع الامير المفدى
فوق فرش من الحصى والتراب
نصر بن الامير ناصر دين الله
صدر الحروب والحراب
صاحب الجيش درة الشرق
تاج الـ * ـفخر غوث الكرام
والكتاب
نعاه يا ساسة الرجال * يا سادة
الفعال * يا أعيان العلوم
يا اخوان النجوم * يا شيوخ
الاسلام * يا عيون الكرام
يا أحرار الزمان * يا أنصار
السلطان
نعاه الى كل حى نعاه
فى الكرم احتل ربع الفناء
أتدرون أى ركن انهدم
وأى حد انثلم * وأى عقد
انفصم * وأى سوار انقصم
وأى روض ذبل * وأى بحر
أفل * وأى بحر نضب * وأى
طود تحصب * وأى خطب

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول عزل فخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل الى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولى بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمى كاتب الانشاء ولقب مؤيد الدين ونقل الى دار الوزارة مقابل باب النوبى وفيها فى شوال توفى مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وفيها توفى فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الرى الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة فى الفقه والاصولين وغيرهما وكان امام الدنيا فى عصره وبلغنى ان مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها فى سلخ ذى الحجة توفى اخى مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما فى عدة علوم منها الفقه والاصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة فى التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتبا مفلقا يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضى عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ومن عرفه من اهل عصرنا يعلم أنى مقصر وفيها توفى المجد المطرزى النحوى الخوارزمى وكان اماما فى النحو له فيه تصانيف حسنة وفيها توفى المؤيد بن عبد الرحيم ابن الاخوة باصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستمائة)

(ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه)

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فورسل فى القدوم الى بغداد فغالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقى الامر كذلك الى ربيع الاول من هذه السنة فتقدم الخليفة الى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابى خاص الخليفة بالمسير بالعساكر اليه بخوزستان واخراجه عنها فسارا فى عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدهم اليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو اتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئا اليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة الى خوزستان فى ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا فى البلاد راسلوا سنجر يدعونه الى الطاعة فلم يجب الى ذلك فساروا الى أرجان عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجبهم الى تسليمه فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها الى الوزير والشرابى يشفع فيه ويطلب العهد له على ان لا يؤذى فأجيب الى ذلك وسلمه اليهم هو وماله وأهله فعادوا الى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا أمير الحاج ووصل الوزير الى بغداد فى المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابى والعساكر وخرج أهل بغداد الى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل باكاف وفى رجله سلسلتان فى يدكل جندى سلسلة وبقى محبوسا الى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الامراء والاعيان الى دار مؤيد الدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بامور

نسخة

نزل *واى نصر رحل *رحل والله نصر بن الامير الجليل ناصر الدين الامير ابن الامير والشهاب ابن الاثير *والبحر ابن الصبير *والخير ابن النحرير *والعنبر ابن العبير مرخ الملك أوعفاره *وسور الدين أوسواره *وركن العز أوغراره *ونور المجد أوعراره غارت به بحيرة الادب التى استعذبتها الشفاه *وضلت قبلة العلم التى وليت شطرها الجباه *وعريت دوحة الكرم التى خبطتها العفاه وجفت طينة الفضل التى خدمتها الكفاه *وطلقت كريمة البر التى درس عليها التوحيد *وغذى بها اليافع والوليد *وأحيت عليها فواصل النهار *وحليت بها عواطل الاسحار وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها *وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها *فلا نار ولا ماء ولا خوف ولا رجاء *فأضحى به جيب الزمان مشقوقا وسكر الحدثان مبنوقا وبناء العز منقوضا *ولواء المجد مخفوضا *ودمع الدين مسفوحا *وطرف

نسبت اليه منكرة فأقر بها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد الى داره فعجب الناس من ذلك وقيل ان أتابك سعد نهب مال سنجر وخزائنه ودوابه وكل ماله ولاصحابه وسيرهم فلما وصل سنجر الى الوزير والشرابي طلبوا المال فأرسل شيأ يسيرا والله أعلم

(ذكر وفاة نور الدين أرسلانشاه وشئ من سيرته)

في هذه السنة أو اخر رجب توفي نور الدين أرسلانشاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا شديدا وكان ذلك مانعا من تعدي بعضهم على بعض وكان له همة عالية أعادت ناموس البيت الاتابكي وجاهه وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة في طلب الملك الا انه لم يكن له صبر فلهذا لم يتسع ملكه ولو لم يكن له من الفضيلة الا انه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين كما ذكرنا سنة خمس وتسعين وخمسمائة عف عنها وأبقاها على صاحبها ولو قصدها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لان من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا ولم يبق لهم رمق فأبقاها على صاحبها وانما ملك استغاث اليه انسان من التجار فسأل عن حاله فقيل انه قد أدخل قماشه الى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد اخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه فقيل ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز وهو الى جانبه فسأله عن العادة كيف هي فقال ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة بأخذه فقال والله ان هذه العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاى شئ يؤخذ منه ماله فقال مجاهد الدين لاشك في فساد هذه العادة فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقدم باخراج مال الرجل وأن لا يؤخذ الا ممن باع وسمعت أخي مجد الدين أبا السعادات رحمه الله وكان من اكثر الناس اختصاصا به يقول ما قلت له يوما في فعل خير فامتنع منه بل بادر اليه بفرح واستبشار واستدعى في بعض الايام أخي المذكور فركب الى داره فلما كان بباب الدار راقيته امرأة وبيدها رقعة وهي تشكو وتطلب عرضها على نور الدين فأخذها فلما دخل اليه جاراه في مهم له فقال قبل كل شئ تقف على هذه الرقعة وتقضي شغل صاحبتها فقال لا حاجة الى الوقوف عليها عرفنا ايش فيها فقال والله لا أعلم الا انني رأيت امرأة بباب الدار وهي متظلمة شاكية فقال ثم عرفت حالها ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بامور دولته فقال لاخي ابصر الى أي شئ قد دفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقدمات في الموصل وهو غريب وخلف قماشا ومملوكين فاحتاطا نواب بيت المال على القماش واحضروا المملوكين الينا فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمي بان المال الذي مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم ماله اليها وقلت لهذين اشتريا المملوكين منها وانصفاها في الثمن فعادا وقالا لم يبق بيننا بيع لانها طلبت ثمنا كثيرا فأمرتهما باعادة المملوكين اليها من مدة شهرين وأكثر والى الآن ما عدت سمعت لها حديثا وظننت انها أخذت مالها

الاسلام مجرورا وأقبل العلم في صورة المجموع * وبزة الخشوع * يقرط خطوه * وينفث الى أهله شكوه * مغرقا في صعداء تذوب لها جوامد الدموع * وتنقد عليها الواحب الضلوع * فلو غير المنون أناة أهوى اليه أخوه بالبيض البواتر يمين الدولة الملك المرجى صباح الدين مصباح المفاخر ولكن القضاء له مضاء تذل العز مضربه المناخر الا ياصاحبي سعيكما الى أن كنتما سعدين * وجامعين الى كلتا اليدين الما على نصر وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا فيا قبر نصر أنت أول حفرة من الارض خطت للسماحة مضجعا ويا قبر نصر كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا بلى قد وسعت الجود والجود ميت

ولاشك انهم لم يسلما المملوكين اليها وقد استغاثت اليهما فلم ينصفاها فجاءت الملك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن انى أنا منعتها من مالها فيذمنى وينسبنى الى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين اشتهى أن تسلم أنت المملوكين وتسلمهما اليها فأخذت المرأة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لانطول بذكره

﴿ذكر ولاية ابنه الملك القاهر﴾

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب فى الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأحلف له الجند واعيان الناس وكان قد عهد اليه قبل موته بمدة فجدد العهد له عند وفاته وأعطى ولده الاصغر عماد الدين زنكى قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها وسيره الى العقر وأمر ان يتولى تدبير مملكتها ويقوم بحفظها والنظر فى مصالحها فتاه الامير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتدبيره وكمال خلال السيادة فيه وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين ولما اشتد مرضه وايس من نفسه أمره الاطباء بالانحدار الى الحامة المعروفة بعين القيارة وهى بالقرب من الموصل فانحدر اليها فلم يجد بها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدر الدين واصعده فى الشبارة الى الموصل فتوفى فى الطريق ليلا ومعه الملاحون والاطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوك فلما توفى نور الدين قال لهما لا يسمع أحد بموته وقال للاطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا الى الموصل فى الليل فأمر الاطباء والملاحين بمفارقة الشبارة ثلا يروه ميتا وأبعدوا فحمله هو والمملوك وأدخله الدار وتركه فى الموضع الذى كان فيه ومعه المملوك ونزل على بابه من يشق اليه لا يمكن أحدا من الدخول والخروج وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج الى امضائها فلما فرغ من جميع ما يريده أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى انشأها مقابل داره وضبط البلد تلك الليلة ضبطا جيدا بحيث ان الناس فى البلد لم يزالوا متر ددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر فى مصالحها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر درس القاضى أبو زكريا بن القاسم بن المقرح قاضى تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعى من تكريت اليها وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا حتى كان يجرى الماء ببغداد فى نحو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة فجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيأ عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يعهد مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الامير مجاهد الدين بازوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لانه كان صبيا وفيها فى العشرين من ربيع الآخر توفى ضياء الدين احمد عبد الوهاب بن على بن عبد الله الامير البغدادى ببغداد وهو سبط صدر الدين اسمعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور وكان صوفيا فقيها محدثا سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح وفيها توفى شيخنا ابو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى وكان عالى الاسناد

ولو كان حبا ضقت حتى تصدعا
يكى الجود لما مات نصر فلم يدع
لعينيه لما أن بكى الجود مدمعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجرا ومرتعا
ولما مضى نصر مضى الجود وانقضى
وأصبح عرنين السماحة أجدعا
اتى جاز للموت أن يغصب
الامير نصر القدساغ لى أن
أغصبها معنا وأين معن من
شقيق ملك الشرق * وسائس
جمهور الخلق * والقاعد من
قمة الفرقدين على الفرق *
سلطان الزمان يمين الدولة *
وأمين الملة * من دانت لعزه
القروم * واستكانت لهيبته
الترك والروم * ففى بعض
خصاله ألف معنى لم يرق اليه
معن بهمته * ولم يلق له
ذكرا فى ديوان نعمته * فال
حظوة من سلطان زمانه
باتفاق * اذا الحرب قامت
على ساق * ودارت كؤسها

﴿ثم دخلت سنة ثمان وستمائة﴾

﴿ذكر استيلاء منكلى على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش﴾

في هذه السنة في شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد الى بغداد هاربا من منكلى وسبب ذلك ان ايتغمش كان قد تمكن في البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى انه حصر صاحبه ابابكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد اذربيجان وارّان كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلى ونازعه في البلاد وكثر اتباعه وأطاعه الممالك البهلوانية فاستولى عليها وهرب منه شمس الدين ايتغمش الى بغداد فلما وصل اليها امر الخليفة بالاحتفال به في اللقاء فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهودا ثم قدمت زوجته في رمضان في محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد الى سنة عشر وستمائة فسار عنها فكان من امره ما نذكره

﴿ذكر نهب الحاج بمنى﴾

وفي هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك ان باطنيا وثب على بعض اهل الامير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظنا منه انه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الاشراف والعرب والعبيد واهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموهم بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان امير الحاج ولد الامير ياقوت المقدم ذكره وهو صبي لا يعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فنهبوا منهم من كان في الاطراف وأقاموا على حالهم الى الليل فاضطرب الحاج وباتوا باسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب فقال بعض الناس لامير الحاج لينتقل بالحاج الى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا الى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم أذن لهم في ذلك فدخلوها وتمموا حجهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه الى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والاكفان فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة أظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وأمر باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا الى الخليفة وغيره من ملوك الاسلام يخبرهم بذلك وأرسل ولده الى الحج فأكرمت ببغداد اكراما عظيما وكذلك بطريق مكة وفيها سلخ جمادى الآخرة توفي أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعي بمدينة الموصل وكان اماما فاضلا اليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن في زمانه مثله وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والاحسان اليهم رحمه الله وفيها في شهر ربيع الاول توفي القاضي أبو الفضائل علي بن يوسف بن أحمد بن الاسعدي الواسطي قاضيها وكان نعم الرجل وفيها في شعبان توفي المعين أبو الفتوح عبد الواحد بن أبي أحمد بن علي الامين شيخ الشيوخ ببغداد وكان موته بجزيرة كاس مضى اليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين

بين خاس وساق * وقد فضحه ابن بنان في جوده * وفضله بالسخاء عن موجوده * ثم لم يعترض له صيانة لفعاله * ولم يقترف عليه من بعده ذها بابعز حاله وجماله * هذا ان الامير نصر اورث العز أباه * ولم يخدم مدى العمر الا أخاه ولم يلنه غير فراغ الاكياس عن شغل المواهب * وفلول الاسياف عن قراع الكتائب * وقطيعة الدنيا في صلة الرحم * وعصيان الهوى في طاعة السلطان ولي النعم * نشأ بين القرآن والتفسير والايمان والتذكير * والعلم بالصلاة والصيام * والفرق بين الحلال والحرام * وسخر الورى بطرف العنان * وسن العلا بحد السنان * قد اقتسمت أيامه شرائط السلم باسمة الثغور * أو الحرب ظاهرة البسور * فاما المفاخر والبواتر * واما الدفاتر والمحابر واما المحاضر والمنابر

رحمه الله ورضى عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفى رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبي احمد وكان ناظرا على المارستان العضدى فتركه واقتصر على الرباط وفيها فى ذى الحجة توفى محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابورى الكاتب الحسن الخط وكان يؤدى طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفى عمر بن مسعود أبى العز أبو القاسم البزاز البغدادى بها وكان من الصالحين يجتمع اليه الفقراء كثيرا ويحسن اليهم وتوفى أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبى العذوى وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالما

﴿ثم دخلت سنة تسع وستمائة﴾

﴿ذكر قدوم ابن منكلى بغداد﴾

فى هذه السنة فى المحرم قدم محمد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل الى بغداد وسبب ذلك ان أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل وهرب ايتغمش صاحبها منها الى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الامر عليه لانه لم يكن قد تمكن فى البلاد فأرسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه وانزل وأكرم وبقى ببغداد الى أن قتل ايتغمش فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم الى أبيه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على أمير اسمه اسامة كان له اقطاع كثيرة من جملتها حصن كوكب من أعمال الاردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وبنى أثره ومن بعده بنى حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح وفيها توفى الفقيه محمد بن اسمعيل بن أبى الصيف اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكة

﴿ثم دخلت سنة عشر وستمائة﴾

﴿ذكر قتل ايتغمش﴾

فى هذه السنة فى المحرم قتل ايتغمش الذى كان صاحب همذان وقد ذكرنا سنة ثمان انه قدم الى بغداد وأقام بها فانعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج اليه وسيره الى همذان فسار فى جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا الى همذان فوصل الى بلاد ابن ترجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد اليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية وولى أخاه الاصغر فأرسل سليمان الى منكلى يعرفه بحال ايتغمش ومضى هو على وجهه فأخذوه فقتلوه وحملوا رأسه الى منكلى وتفرق من معه من أصحابه فى البلاد لا يلوى أخ على أخيه ووصل الخبر بقتله الى بغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل الى منكلى ينكر عليه ما فعل فأجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله

﴿ذكر عدة حوادث﴾

حج بالناس فى هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلى نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت

* واما القماطر والمساطر
* فيوما فى جحيم الغضب *
و يوما فى نعيم الادب * ويوم
بين ظلال السيوف * ويوما
بين معانى الطروف * رفيقه
اذا احتمى زج أو قبيعه *
* وند به اذا احتبى حكمة
أو شريعه * فكم له فى ديار
الهند من وقائع أنطقت
الحديد * وأخرست الوليد
* وسكرت البنوق * وفجرت
العروق * وغادرت بيض
الرباع فى فحمة الليل
* وخضبت الجرب عن
ثملة الكعيل * وكم فى نوادى
الفضل له من محاسن تلثم
أطرافها الكلم * وتعشق
أوصافها الامم * وتسجد
لاعقابها الحكم * ويأوى
الى برد ظلالها الكرم *
وقد غنيت بذوب العقول *
عن صفو الشمول * وبجلو
المقال * عن كعب الغزال
وبفرر البراهين * عن نزه
المرباحين * فالخليل على

ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج في ولايته وفيها في المحرم توفي الحكيم المهذب علي بن أحمد بن مقبل الطبيب المشهور وكان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقيما بالموصل وبها مات وكان كثير الصدقة حسن الاخلاق وله تصنيف حسن في الطب وفيها توفي اسمعيل بن علي البغدادي الفقيه الحنبلي صاحب ابن المنى وفيها توفي أيضا احمد بن مسعود التركستاني الفقيه الحنفي ببغداد وهو مدرس مشهد أبي حنيفة وفيها في جمادى الاولى توفي معز الدين أبو المعالي سعد بن علي المعروف بابن حديد الذي كان وزير الخليفة الناصر لدين الله وكان قد ألزم بيته ولما توفي حمل تابوته الى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة وكان حسن السيرة في وزارته كثير الخير والنفع للناس

﴿ثم دخلت سنة احدى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند﴾

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة اي سنة كانت انما هي اما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لان الذي اخبر بها كان من اجناد الموصل وسافر الى تلك البلاد واقام بها عدة سنين وسار مع الامير ابي بكر الذي فتح كرمان ثم عاد فاخبرني بها على شك من وقتها وقد حضرها فقال خوارزمشاه محمد بن تكش كان من جملة أمراء ابيه امير اسمه ابو بكر ولقبه تاج الدين وكان في ابتداء امره جمالا يكري الجمال في الاسفار ثم جاءته السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار سيروان جماله فرأى منه جلدا وامانة فقدمه الى أن صار من اعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذا رأي وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به اكثر من جميع امراء دولته فقال أبو بكر لخوارزمشاه ان بلاد كرمان مجاورة لبلادي فلو أضاف السلطان الى عسكرا لملكتها في اسرع وقت فسير معه عسكرا كثيرا فمضى الى كرمان وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان ايام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بكر بلاده في اسرع وقت وسار منها الى نواحي مكران فملكها كلها الى السند من حدود كابل وسار الى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فاطاعه صاحبها واسمه ملنك وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لان اصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم انهم يتقربون اليه بالطاعة ليأمن اصحاب المراكب التي تسير اليهم عنده فان هرمز مرسى عظيم ومجمع للتجار من اقاصي الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات وكل منهما ينهى أصحاب المراكب ان ترسي ببلد خصمه وهم كذلك الى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحي سمرقند لاجل التتر اصحاب كشلي خان لئلا يقصد بلاده وكان سريع السير اذا قصد جهة سبق خبره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشعري وكان قد وزر لشهاب الدين الغوري ولتاج الدين الدز بعده وكان حسن السيرة جميل الاعتقاد محسنا الى العلماء وأهل الخير يزورهم ويبرهم ويحضر الجمعة ماشيا وحده وكان سبب قتله ان بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم

ذكره محشور * وكان سيبويه من نشره منشور وأئمة الهدى عليه عكوف وملائكة العرش حوله صفوف * فمن صحيفة الذكر منشوره * وأخرى بأقلام العدل مسطوره * لا لغو فيها ولا تأثيم الا قيلا صوابا وحديثا كخالص التبر مذابا نقص عليه الدهر كانه من الدهر غيوره * وعلى عقائل الزمان جسوره * فصرعه كيادا للنظار * وأضجعه عناد الاحرار * شاغلا عن الجود يمينه * وعن الصعود جبينه * وعن الذكر لسانه * وعن الغزو

الى البلاد الحارة بين يدى الدز اول الشتاء فسار هذه السنة كعادته بخلاء أربعون نفرا اتراكا وقالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفرلهم تجدد فسار معهم جريدة فى عشرة عمالك فلما وصلوا الى نهر ميدبا القرب من ماء السند قتلوه وهربوا ثم انهم ظفر بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم وفيها فى رجب توفى الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلى البغدادى ببغداد وكان قد ولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى انه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريا فقال ما هذا القميص فقال بخارى فقال ابوه هذا عجب مازلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر والبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين وأظهرت فى ملا من الناس ورؤى فيها من تبخير النجوم ومخاطبة زحل بالالهية وغير ذلك من الكفريات ثم أحرقت بباب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه واستعمل بعد ذلك وفيها ايضا توفى ابو العباس احمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن البسل اللورى الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الاخضر وكان من فضلاء المحدثين وله سبع وثمانون سنة

﴿ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر قتل منكلى وولاية اعلمش ما كان بيده من الممالك﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى انهزم منكلى صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهم من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك انه كان قد ملك البلاد كما ذكرناه وقتل ايتغمش فأرسل اليه من الديوان الخليفى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الامير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وهو صاحبه ومخدومه فارسل الخليفة اليه يحرضه على منكلى ويعده النصرة وارسل ايضا الى جلال الدين الاسماعيلى صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم ألموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم على ان يكون للخليفة بعض البلاد ولاوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل الى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو اذ ذاك صاحب اربل وشهرزور واعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها واليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا الى همذان فاجتمعت العساكر كلها فانزاح منكلى من بين ايديهم وتعلق بالجبال وتبعوه فنزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج وضاقت الميرة والاقوات على العسكر الخليفى جميعه ومن معهم فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه اكثر من عشرة ايام لكنه طمع فنزل بعض عسكره من الجبل مقابل الامير اوزبك فحملوا عليه فلم يثبت اوزبك ومضى منهزما فعاد اصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعاد اوزبك الى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطفت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود اليه وكان قصارا هم العود عنه لكنه

سينه وسنانه * حتى اذا كاد يطمع فى انتعاشه واستمكانه وقد وزن على معيار الفداء باضعاف جثمانه * فجعه بروحه الطاهره * ونفسه التى لم تغذ الا للنعيم الاخره * فصفا عن العمر أنضر ما كان غصن شباب * وأنطقه فصل خطاب * واكرمه عود نضار * وأحفظه حق ذمار وأوثقه بالدنيا دار قرار * فكم هنالك من ستور مهتوكة * ودموع مسفوكة وجيوب مشقوقة * ورؤس محلوقة * وصدور مكلومة * وخدود بنعال السبت ملطومة * وهى الحدثان نسوة آل نصر

اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أيدي سبا واستولى عسكر الخليفة واوزبك على البلاد فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقي اوزبك فسلمه الى اعلمش مملوك اخيه وكان قد توجه الى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقي عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وابلى فيها فولاه اوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر الى بلادهم واما منكلي فانه مضى منهزما الى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فارسل اليه يستأذنه في الدخول الى البلد فاذن له ودخل اليه وخرج فلقيه وقبل الارض بين يديه وادخله البلد وأنزله في داره ثم اخذ سلاحه واراد أن يقيده ويرسله الى اعلمش فسأله ان يقتله هو ولا يرسله فقتله وارسل رأسه الى اوزبك وارسله اوزبك الى بغداد وكان يوم دخولها يوما مشهودا الا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فانه وصل ومات ولده في تلك الحال فاعيد ودفن

﴿ذكر وفاة ابن الخليفة﴾

في هذه السنة في العشرين من ذي القعدة توفي ولد الخليفة وهو الاصغر وكان يلقب الملك المعظم واسمه ابو الحسن علي وكان احب ولدي الخليفة اليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وعزل ولده الاكبر عن ولاية العهد واطرحه لاجل هذا الولد وكان رحمه الله كريما كثير الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوبا الى الخاص والعام وكان سبب موته انه أصابه اسهال فتوفي وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه أرسل الى اصحاب الاطراف ينهاهم عن انفاذ رسول اليه يعزيه بولده ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه واحزانه ورؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ولما توفي أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته الى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي فدفن عندها ولما أدخل التابوت اغلقت الابواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقيل ان ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجدا شديدا ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلي الى بغداد فان الموكب أمر بالخروج الى لقاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس الى رأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فاعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو ابدا فرحها من ترح وقد تخلص مصابها من شائبة الترح

﴿ذكر ملك خوارزمشاه غزنة واعمالها﴾

في هذه السنة في شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة واعمالها وسبب ذلك ان خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها ارسل الى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت اخباره حتى ملكها يطلب منه ان يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل اليه فيلا واحدا ليصالحه ويبذل غزنة ولا يعارضه فيها فاحضر الامراء واعيان دولته واستشارهم وكان فيهم اكبر امير اسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغوري ايضا واليه الحكم في دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأي ان تخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من

بعقد ارسلن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا
حتى اذا نشر رداء الردى
عليه * وقربت حولة البلى
اليه * تنازعته اكف الرجال
كما تنازعته من قبل ظماء
الآمال * فكأن الشمس
غبراء من حشو التراب *
والارض غرقى من دموع
السحاب * والآذان
موقورة من رفع العقائر
والابصار مخطوفة من
نقض الغدائر * وقد غدت
الوجوه مسفورة للنظار *
والجموع محشورة للاعتبار *
والعيون بين جوم تجري
سواقيه * وجود لا تندى
ماقيه * ووقت زهر
النجوم لوصادفن ليلا

الحرب والقتال وليس لنا بهذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فاجاب الى ما طلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وارسل اليه رسولا واعاد رسوله اليه ومضى الى الصيد فارسل قتلغ تكين من غزنة الى خوارزمشاه يطلبه ليسلم اليه غزنة فسار مجدا وسبق خبره فسلم اليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية لاسيما الاتراك فوصل الخبر الى الدز بذلك فقال ما فعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذى احضره وسلم اليه فمضى هاربا هو ومن معه الى لهاور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها احضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان عالما به وانما أراد ان تكون له الحجة عليه فقال كلانا مماليك شهاب الدين ولم يكن الدز يقيم بغزنة الا أربعة اشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع الى فى كل الامور فقال له خوارزمشاه اذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن احسن اليك صحبته واحسانه فكيف يكون حالى انا معك وما الذى تصنع مع ولدى اذا تركته عندك فقبض عليه وأخذ منه اموالا جمة حملها ثلاثون دابة من اصناف الاموال والامتعة واحضر أربعمائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل ان ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة

﴿ذكر استيلاء الدز على لهاور وقتله﴾

لما هرب الدز من غزنة الى لهاور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى ايضا وله من البلاد لهاور وملتان واوجه ودبيل وغير ذلك الى ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر الف فارس وكان قد بقى مع الدز نحو ألف وخمسمائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فانهزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق له غير فيلين معه فى القلب فقال الفيال اذا خاطر بسعادتك وأمر احد الفيلين أن يحمل على العلم الذى لقباجة يأخذه وامر الفيل الآخر الذى له ايضا أن يأخذ لحتر الذى له فاخذه ايضا والفيلة المعلمة تفهم ما يقال لها هذا رأيناه فحمل الفيلان وحمل معهما الدز فمن بقى عنده من العسكر وكشف رأسه وقال بالعجمية ما معناه اما مالك واما هلاك واختلط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيلان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والحتر فانهزم قباجة وعسكره وملك الدز مدينة لهاور ثم سار الى بلاد الهند لملك مدينة دهلى وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلى أميرا اسمه الترمش ولقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ايضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار اليه فى عساكره كلها فالتقيه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فانهزم الدز وعسكره وأخذ وقتل وكان الدز محمود السيرة فى ولايته كثير العدل والاحسان الى الرعية لاسيما التجار والغرباء ومن محاسن اعماله انه كان له أولاد وابهم معلم يعلمهم فضرب المعلم أحدهم فمات فاحضره الدز وقال له يا مسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت الا تأديبه فاتفق ان مات فقال صدقت واعطاه نفقة وقال له تغيب فان أمه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر امنع عنك فلما سمعت ام الصبى بموته طلبت الاستاذ لتقتله فلم تجده فسلم وكان هذا من أحسن ما يحكى عن احد من الناس

فدعون ويلا ﴿ وتناوحن على المصاب خميلا نخيلا ﴿
وأما الليل فقد أحسن فيه من قال ﴿ وان ركب الارتجال
لقد بكت الليالى فى دجاها
لموت القرم مصباح الانام
فأشخاص النجوم الزهر مما
تجسم من مدامعها السجام
ويظل هجيرى كل ثاكل سائر
وصائر الى موقف الوداع حائر
من كان مسرورا بموت أميرنا
فليأت نسوته بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه
بالصبح قبل تبلج الاسحار
يخمشن حر وجوههن على فتى
عف الشمائل طيب الاخبار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا
فاليوم حين برزن للنظار
ها انا لله وانا اليه راجعون من شعوب تركت القلوب شعوبا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى الوجيه المبارك بن أبى الازهر سعيد بن الدهان الواسطى النحوى الضرير كان نحويرا فاضلا قرأ على الكمال بن الانبارى وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتى

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة * وان كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعدا بن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى تدينا * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعمرا قليل أنت لاشك صائر * الى مالك فافطن لما انا قائل

(ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة الملك الظاهر)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه اسهالا وكان شديد السيرة ضابطا لامور كلها كثير الجمع للاموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجرى عليهم الجارى الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولده صغيرا اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين عمره ثلاث سنين وعدل عن ولده الكبير لان الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل ابى بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا الى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أى حاجة الى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى فقال الرسول قد طلب هذا واختاره ولا بد من اجابته اليه فقال العادل كم من كبش فى المرعى وخروف عند القصاب وحلف فاتفق فى تلك الايام أن توفى الملك الظاهر والرسول فى الطريق ولما عهد الظاهر الى ولده بالملك جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغربل ولقبه شهاب الدين وهو من خيار عباد الله كثير الصدقة والمعروف ولما توفى الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة فى الناس وعدل فيهم وأزال كثيرا من السنن الجارية وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الامور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض اليه فلما توفى ملكها كيكاوس ملك الروم كما نذكره ان شاء الله تعالى انتقلت الى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية وأقرب الى الخير منهم ولا أعلم اليوم فى ولاة امور المسلمين أحسن سيرة منه فالله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرته عظيم القدر قيل كان أصغره مثل

واوسعت الاكباد ثقوبا *
وكلمت النفوس كروبا *
وسفحت العيون غروبا *
ونضحت الوجوه قطوبا *
ونثرت قناة الاصلاب أنبوبا
فأنبوبا * وسار شخص العلا
الى فرضة البلى * فريدا
وحيدا * لم يغن عنه جوده *
ولم تجد عليه جنوده * ولم
تقاتل عنه فيوله * ولم
تناضل دونه مرده وكهوله
خلا انه فاح ذكا ما أثره *
كما فاح بكاء مجامره * ووهت
كما فاح بكاء مجامره * ووهت
على عرشه الرقاب * كما
وهت حين أثقلها النعم
الرغاب *
فليس نسيم المسك ريح
حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المطيب
وليس صرير العرش
ما تسمعونه
ولكنه أصلاب قوم تقصفت
أياويل العشاة من بعده
ما حالهم * وماذا علت بهم
آمالهم * لقد انقصم محالهم

النارنجة الكبيرة وقيل فى أكبره مايستحى الانسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخيل وفى المحرم ايضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على الى تستر وهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابى فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابى الى بغداد وأخر بيع الآخر وفيها فى صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام وأقلقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر فخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة الى ثلث الليل وانكشفت وفيها توفى التاج زيد بن الحسن ابن زيد الكندى أبو اليمن البغدادى المولد والمنشا انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان اماما فى النحو واللغة وله الاسناد العالى فى الحديث وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله

(ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه بلاد الجبل)

فى هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد الجبل فملكها وكان سبب حركته فى هذا الوقت أشياء أحدها انه كان قد استولى على ماوراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها انه كان يهوى ان يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الامر بالضد لانه كان لايجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله اذا ورد الى بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل فى عسكره مائة مثل الذى يقدم سبيله عليه فكان اذا سمع ذلك غضب ومنها ان اغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته فسار مجدا فى عساكر تطبق الارض فوصل الى الرى فملكها وكان أتابك سعد بن د كلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل اغلمش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا فى تملكها فملوها عن حام وممانع فوصل الى اصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الرى ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه فلقيه مقدمة خوارزم شاه فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد فى محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك واذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل الى بين يدى خوارزم شاه فأكرمه ووعده الاحسان والجميل وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد اليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا الى بلاد فارس ليسلم اليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على والده الاكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم الى أبيه ثم انه ملك البلاد كما ذكره وخطب فيها لخوارزم شاه وسار خوارزم شاه الى ساوة فملكها وأقطعها لعماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار الى قزوين وزنجان وابهر فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار الى همذان فملكها وأقطع البلاد لاصحابه وملك اصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وارّان بأن يخطب له أوزبك فى بلاده ويدخل فى طاعته ثم انه عزم على المسير الى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا فى خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فسار حتى وصل اليها ثم أتبعه بأمير آخر فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج مالم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم

وانقطع دون هاتيك الموات حقهم ومحالهم
كانى بهم غادين على سدة
كانت بالابواء تلتزم
وبالافواه تستلم * وبمشير
وركانها يتمسك * وبخدمة
أركانها يتنسك * قد أقفرت
فلا باب ولا بواب * ولا حجاب
ولا حجاب * يسألون أين
الامير * وما فعل السرير *
وأين الحاجب والوزير *
وأين المنادم والسمير * وما
هذه الوحشة المستطاره
والغيرة المثاره * والقلعة
الساجيه * والغمة
الشاجيه * يقولون ركب
الامير يزور أباه * ويحيى
بالسلام محياه * بقضى
نذر الاعتكاف على ثراه *
ويعتذر من هجرة طال
عليها مداه * أفن يركب
للسلام تخذل أبوابه
ويعدم بقرابه * ويعذل
جلبه * ويوحش منتابه

وطمع فيمن بقي بنو ترجم الاتراك وبنو هكار الاكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم الى خوارزم شاه الا اليسير فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود الى خراسان خوفا من التركمان انه ظن انه يقضي حاجته ويفرغ من ارادته في المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى هاربا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائبسي وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لامر دولته عماد الملك الساوي وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزم شاه الى خراسان فوصل الى مرو في المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه الى ماوراء النهر ولما قدم الى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال انه قدمات وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ وبخارا وسرخس وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها الا عن قصد تركها الان البلاد كانت لا تعارض من اشباه هذا ان أحبوا خطبوا وان أرادوا قطعوا فبقيت كذلك الى ان كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يتصده أحد بأذى الا ابصره فعل وخبث نيته لاجرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا

(ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده)

لما قتل اغلمش صاحب بلاد الجبل همذان واصفهان وما بينهما من البلاد جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاده الى اصفهان فملكها وأطاعه أهلها فطمع في تلك البلاد جميعها فسار عن اصفهان الى الري فلما وصل اليها لقي عساكر خوارزم شاه قد وصلت كما ذكرناه فعزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلها حتى كاد يهزمها فظهرت عساكر خوارزم شاه ورأى الجتر فسقط في يديه وألقى نفسه وضعفت قوته وقوة عسكره فولوا الادبار وأخذ أتابك سعد أسيرا وأحضر بين يدي خوارزم شاه فأكرمه وطيب نفسه ووعده الاحسان واستصحبه معه الى ان وصل الى اصفهان فسيره منها الى بلاده وهي تجاورها وسير معه عسكرا مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فانهما اتفقا على ان يكون لخوارزم شاه بعض البلاد ولاتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزم شاه في البلاد جميعها وكان أتابك سعد قد استخلف ابنه على البلاد فلما سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالملكة وقطع خطبة أبيه فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزم شاه امتنع الابن من تسليم البلاد الى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما التقى الجمعان انهزمت عساكر فارس الى صاحبهم أتابك سعد وتركوا ابنه في خاصته فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن انه لم يعرفه فقال له أنا فلان فقال اياك أردت فحينئذ امتنع منه وولى الابن منهزما ووصل أتابك سعد الى البلاد فدخلها واستكمالها وأخذ ابنه أسيرا فسجنه الى الآن الذي سمعت الآن وهو سنة عشرين وستمائة انه قد خفف حبسه ووسع عليه ولما عاد خوارزم شاه الى خراسان غدر سعد بالامير الذي عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وستمائة لان سعدا كفر احسان خوارزم شاه وكفر الاحسان ظيم العقوبة

هاانه الركوب فتى المعاد
يقولون ميعاده والله المعاد
ألم تروا عروشه بالامس
مهدومة * وغروسه
مخضودة * وجياده
مهلوبة * وسروجه
مقلوبة * وأياماه
مفجوعة * وأيدي يتاماه
فوق الهام موضوعة *
هنالك نادوا ثبورا * وعلموا
أنه الحق مقدورا * وعقدوا
دون حامة البيت مناحة
وندبوا عين الورى أدبا
وفصاحة * وكرما وسماحة
وأفعالا كما أسفر الصريح
وأبرز كفه الكليم * مغداه
ومراحه يعتبون على
الحجاب * وقد غدوا في بيض
الثياب * أينزع السواد
قد كذب الحداد * الآن
أخرج ما كنتم اليه تزعقون
هلا خالفتم الرسم للوجوب
ولبستم لبسة المنكوب
وهلا وقفتم وقفة الحجاب
للسيد المحجوب

(ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين)

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وانما ذكرناها ههنا لان ظهورهم كان فيها وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا فنقول فى هذه السنة وصلت امداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال الا أن المتولى لها كان صاحب رومية لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى الدور برز الفرنج من عكا اليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم انه فى قلة من العسكر لان العساكر كانت متفرقة فى البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان اهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا صاروا على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا فى القرى فوصلت الى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبى والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذى سلم من تلك البلاد كان مختفيا حتى قدر على النجاة ولقد بلغنى أن العادل لما سار الى مرج الصفر رأى فى طريقه رجلا يحمل شيأ وهو يمشى تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل فانا اذا رأيتك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا أعجل وبالجملة الذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر بالقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق فى قطعة صالحة من الجيش الى نابلس لمنع الفرنج عن البيت المقدس

(ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها)

لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق

يا قوم ليس بياض الثوب
زينتكم
وقد فعلتم بمولى كله كرم
ردوا عليكم جميعا فضل
لبستكم
ان الحداد على المفقود ملتزم
وطفقوا يتناشدون بينهم
عتبا على الزمان * وندبة
للفضل والاحسان
يا دهر ويلك ما فعلت فقد غدا
بك كل ما يخشى الرجال سلبا
من ذا الذى يرجو وفاءك
بعدما
غادرت نصرا فى التراب ورجبا
من كان أعذب شيمة وسجية
والمكرمة وأطيب خيما
ومن العجائب والعجائب جمة
أن لا تلام وقد غدوت ملاما
يا دهر مالك طول وقتك ترتمى
روض المعالى بارضا وجميا
يا دهر مالك والكرام
أولى النهى
ماذا يضرك لو تركت كريما
حتى يسر الامير أباه بلقياه

أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار مصر على ما نذكره ان شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى ان ألحقها بالارض لانها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها

(ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها)

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى ان دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا في البحر الى دمياط فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بنى في النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح ان تصعد في النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وما فيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمات وابراجا يحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشئ وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها حجارة وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق المراكب التي جعلت في النيل وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا اليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شئ لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله فضعفت نفوس الناس لانه السلطان حقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا انهم بحكمه والامر اليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون اليه ويطيعونه لاسيما الاكراد فاتفق هذا الامير

وشئ لوعة غلته وصداه
لقد ساء أخاه * بأن عدم
منواه * وافتقد مصحبه
ومساه * ووكل من بعده
الى نواهس الارض ولو
أحس التراب قراه * لكنه
ما يصنع وسيف القضاء
أحد * وحكم السماء حتم
لا يرد

ومن قبله ما قد أصيب نبيتنا
أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخير قيس بالجلية في ابنه
فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علي في التعازي
لاشعث

وخاف عليه بعض تلك المآتم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أو تسلو سلوة البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والاسى
وتلك الغواني للبكا والمآتم
لا در در الموت من واعظ
وقرن كفاح * ما انثنى نابه
الا افترس * ولا ألحج مخلبه
الا انتهس * سواء عليه

مع غيره من الامراء وأرادوا ان يخلعوا الملك الكامل من الملك و يملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الى الكامل ففارق المنزلة بالجريدة وسار الى قرية يقال لها اشمون طناح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على اخذ شئ من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من مير وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد لم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل بخارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر واذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يشق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده فلما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط أنهم لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لاجرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية على ما نذكره ان شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فملوا البلد الى الفرنج فى هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

(ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج)

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها بقيت لاتراع وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب البيت المقدس فى ذى القعدة من السنة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف فى شرق الارض وغربها

الملك المجيب * والسلطان المغلب * والمقتر المستضعف والسوقة المنصف
ألا تعس هذا الموت كيف ارتقى الى حمى قصره العالى المنيع الجوانب
فر على تلك القنابل والقنا وجاز على تلك القواضى القواضب
عجبت له والموت ليس بعجب وفيه اذا فكرت كل العجائب
لعمرى لقد جراه حين غزا على نهاب نفوس واغتيال الكتائب
وفهمه فتح الحصون وانها سوامى المراقى ساميات المراتب
وبصره بالفتك فى غزواته ورمى الزرايا وافتراص المضارب
فكر عليه شدة الليث واتحى كطوف فحول السوء حول القرائب

أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا الى نواحى العراق واذربيجان وأران وغيرها على ماذكره ان شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى اخويه المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وارمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار صاحب دمشق الى الاشرف بنفسه فرآه مشغولا عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة ان شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فمذره وعاد عنه وبقى الامر كذلك مع الفرنج وأما الملك الاشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور الى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم بزوال المانع للاشرف عن انجاده فارسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار صاحب دمشق يحثه على المسير ففعل وسار الى دمشق فيمن معه من العساكر وأمر الباقين باللحاق به الى دمشق وأقام بها ينتظرهم فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بانفاذ العساكر والعود الى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولا بد من اتمام ذلك العزم فسار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر اشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية وأما الاشرف فانه سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار أيضا الى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه ان اخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر فى الطريق ان الفرنج قد توجهوا الى دمياط فاتبعهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم واخواه من خلفهم والله أعلم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف بحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتقاتلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم هذا يجرى والرسل مترددة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لا بد من الكرك فبينما الامر فى هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر

ومن عجيب الامور * فى حكم المقدور * أن اختر الامير الماضى بر دالله ضريحه * ونور غرته * حتف أنفه * على اخطاره بنفسه * فى لجم الحتوف * واعتراضه للشهادة بين الاسنة والسيوف * كخالد بن الوليد حين وافى أجله اذ قال ثاورت الحروب منذ عقلت فما فى بدنى مغرز ابره * الا وفيه ضربة أو وخزة طعنه * وها انا أموت ميتة الحمار * ان الحكم الا لله الواحد القهار * أو كلاما شبيها به أما ان خالدا لم يدر أن سيف الله لا يقتل بالسيف * وكذا القتل يرتو الى موت الشباب من خصاص الحيف * وأن الله تعالى لما جعله أكرم النفوس مناقب * قيض له أحمد الامور عواقب * وقد فرغ ابن الروحى من

الاسلامية لاتقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال انه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف الى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن انيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والاشرف يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذ هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم ومقامصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط فى تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب ان المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولم يبق بها من أهلها الا آحاد وتفرقوا أيدى سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكنا هم شر التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

هذا المعنى مجود * وبيض وجه البرهان بما سود
ان لم يكن ظفرا فما منيته * كرم النبت يذوى غير مختضد
اما ترى الغرس لا تذوى كرائمه * الا على سوقها فى آخر الابد
لم تتة السيف قوم يشرفون بها * ايسوا من المجد فى غاياته البعد
عز الحياة وعز الموت ما اجتمعا * أسنى وأبنى لبيت العز ذى العمد
موت السلامة للانسان نعمته * وانما القتلة الشنعاء للاسد
لم يعمل السيف ظلما فى ضرائبه * فلم يسلط عليه كف ذى قود
ولعمرى ان الرزية به * قدس الله روحه لقاطرة الغدوم * مشاطرة بين الرجال على العموم * غير ان القاضى أبا العلاء

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الازج بسبب قتل

سبع وزاد الشر بينهم واقتتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا ذلك وأسمعوه ما يكره فأرسل من الديوان أمير من مماليك الخليفة فردّ أهل كل محلة الى محلتهم وسكنت الفتنة وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد فكان الانسان لا يقدر أن يجلس الا ومعه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد فى قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقى وغرق كثير منه وغرق مشهد أبى حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدى وقرية الملكية والكسك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان واما الجانب الغربى فتقدم اكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الظاهرى وبعض باب البصرة والدور التى على نهر عيسى واكثر محلة قطفتا وفيها توفى أحمد بن ابى الفضائل عبد المنعم بن ابى البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبى الخير الميهنى الصوفى أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح

﴿ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى أن استقرت الامور﴾

فى هذه السنة توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن آق سنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الاول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته انه أخذته حمى ثم فارقته الغدو بقى يومين موعوكا ثم عاودته الحمى معى كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقى كذلك الى وسط الليل ثم توفى وكان كريما حليما قليل الطمع فى أموال الرعية كافا عن اذى يوصله اليهم مقبلا على لذاته كانما ينهبها ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت * حكى لى بعض من كان يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لى قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا نتمشى الى الباب العمادى قال فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادى فوصل التربة التى عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لى والله ما نحن فى شئ أليس مصيرنا الى ههنا وندفن تحت الارض وأطال الحديث فى هذا ونحوه ثم عاد الى الدار فقلت له الا تمشى الى الباب العمادى فقال ما بقى عندى نشاط الى هذا ولا الى غيره ودخل داره وتوفى بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محبوبا اليهم قريبا من قلوبهم فى كل دار لاجلهم رنة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الاكبر نور الدين ارسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذى كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من اخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضا ما يزيد الناظر بصيرة

صاعد بن محمد وسائر شيعته الشاربين من زلال شريعته أوفر من الاحزان اقساطا وأشد على صروف الاشجان ارتباطا * فقد كان عرف الله تربته لهم ظلا ممدودا وشرابا موردودا * وكوثرا مقصودا * ولواء على نصرة الدين معقودا * ولولا ان الله سد ثلمة المصاب * وخلة الاكتئاب * بملك الشرق وسيد الغرب وحجة الله فى الارض سلطان الزمان يمين الدولة * وأمين الملة * أطال الله تعالى بقاءه * وحفظ على الدين والدنيا بهاءه وسناءه فنى بقائه عوض من كل شاجب * وخلف من كل غارب أو عازب * لا تسع القول فى عظم هذا النعى وفقد ذلك الشهاب المضىء والنقاب الالمعى * غير ان النعمة بحمد الله فيما بقى ضافية اللباس * نامية الغراس * ناضرة الاكناف

فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين وأجلسه فى مملكة أبيه وأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل الى الملوك وأصحاب الاطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح الا وقد فرغ من كل ما يحتاج اليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى الملك فانه كان معه فى البلد أعمام أبيه وكان عمه عماد الدين زنكى بن ارسلان شاه بولايته وهى قلعة عقر الحيدية يحدث نفسه بالملك لا يشك فى أن الملك يصير اليه بعد أخيه فرفع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتابع الاحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وانصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر فى أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لهما

﴿ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان﴾

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه أعطى ولده الاصغر زنكى قلعتى العقر وشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل انه جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية اليه فمتى اخبر بذلك الى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة الى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن الناهر لا يزال مريضا من جروح كانت به وغيرها من الامراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكى الى من بالعمادية من الجند يقول ان ابن أخى توفى ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبض على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر الى بدر الدين ليلا فجد فى الامر ونادى فى العسكر لوقته بالرحيل فساروا وجدين الى العمادية وبها زنكى ليحصروه فيها فلم يطلع الصبح الا وقد فرغ من تسيير العساكر فساروا الى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من قتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب اربل فى نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود التى من جملتها انه لا يتعرض الى شئ من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكى فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكى بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم من الموصل وأعمالها الا ان العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكى ثم ان بعض الامراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعا وهو جديد الامارة أراد أن يظهر شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من

حافلة الاخلاف * فلا زال فضل الله عليه عظيما وصنعه اليه جسيما * ولطفه كريما * ولا خلف عنه الزمان يتيما * وألهمه فيما عراه راجحة الصبر * وعرفه فيما غزاه فاتحة النصر * ولقاه على الوهم مواهب تخرط الدنيا فى سلك ملكه وتقررها بحق الوجوب فى قبضة ملكه * ورحم الله ذلك الامير العديم النظير والجليل * الفقيد المثل والبديل رحمة تبرد ضريحه وتقدس روحه وريحه * وعرف له مساعيه فى الذب عن دين الله * والسعى فى سبيل الله * والقرض من ماله لاولياء الله * وعوض الله المشايخ السادة عما دهاهم فأوهاهم ثوابا يحفظ عليهم دينهم * ويثقل فى موقف العدل موازينهم * وجعلنا من المستعدين ليوم الدين ان حكم الله

العسكر بالتقدم الى العمادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيأ يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وقبحوا رأيه فتركهم ورحل متقدما اليهم ليلا فاضطروا الى اتباعه خوفا عليه من اذى يصيبه ومن معه فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسلك ولانه أعجلهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكى ومن معه فنزلوا وقاتلوا أوائل الناس وأهل مكة أخبر بشعابها ثم ثبتوا لهم وانهزموا وعادوا الى منازلهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا الى العود فلما عادوا راسل زنكى باقى قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم الى طاعته فأجابوه وسلموا اليه فجعل فيها الولاة وتسلمها وحكم فيها

﴿ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف﴾

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة وانهما لا يزالان يسعيان فى أخذ بلاده ويتعرضان الى اطرافها بالنهب والاذى أرسل الى الملك الاشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة وافتى اليه وصار فى طاعته مضطرا فى سلك موافقته فأجابه الاشرف بالقبول والفرح به والاستبشار وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له وكان الملك الاشرف حينئذ بحلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التى بيد المسلمين قونية وغيرها الى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل الى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له ان هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك وانت تكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ولا بد من اعادة ما أخذ من بلاد الموصل لنلزم على اليمين التى استقرت بيننا فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته فانا اجيء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها واسترد ما اخذتموه واعيده الى اصحابه والمصلحة انك توافق وتعود الى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم ويستطير شرهم فلم تحصل الاجابة منه الى شيء من ذلك وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف وقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظفر الدين فلما رأى الاشرف ذلك جهز عسكرا وسيره الى نصيبين لنجدة بدر الدين ان احتاج اليهم

﴿ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى﴾

لما عاد العسكر البدرى من حصار العمادية وبها زنكى كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد الى قلعة العقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فان بلاد الجبل كان قد فرغ منه وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره الى اطراف بلاد الموصل يحمونها فاقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ثم انهم اتفقوا بينهم على المسير الى زنكى وهو عند العقر فى عسكره ومحاربته ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم الا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها فساروا اليهم وصبحوا زنكى بكرة الاحد لاربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقر وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى فانهزم عماد الدين وعسكره وسار الى

على العباد بالموت يقرى الجفلى * والخلق فيها شرع * والآخر للاول تبع * والحمد لله على كل حال * والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله خير آل

*(ذكر ما انتهى اليه أمرى بعد بلوغ هذا المكان من شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة * من قصد الوزير شمس الكفاه * واقتضائه حق الخدمة والموالاة)

قد سبق فى أول الكتاب ما سلف لى الى الامير ناصر الدين * أبى منصور سبكتكين أثار الله برهانه من خدمه * وتمهد عنده من الى وذمه وغرست أثناء ذلك فى التقرب الى الوزير شمس الكفاه * والتكفل بما رآه والتجرد لما أرضاه ما رسخت على الايام ايراق شجره وايناق نوره وثمره * بعد أن

اربل منهزما وعاد العسكر البدرى الى منزلته التى كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الاشرف فى تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه)

ولما تقرر الصلح توفى نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا بعدة امراض فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم يكن للقاهر ولد غيره وحلف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس لان نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه فلما ركبوا هذا علموا ان لهم سلطانا من البيت الاتابكى فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشغب بسببه

(ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين)

لما توفى نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد وكان بدر الدين قد سير ولده الاكبر فى جمع صالح من العسكر الى الملك الاشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام ينهبها ويخرب بها ليعود بعض من بدمياط الى بلادهم فيخف الامر على الملك الكامل صاحب مصر فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وان بعض عسكره بالشام أرسل الى عسكر الملك الاشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم وكان المقدم عليهم مملوك الاشرف اسمه ايبك فسار الى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رآهم بدر الدين استقلهم لانهم كانوا أقل من العسكر الذى له بالشام أو مثلهم فالح ايبك على عبور دجلة وقصد بلاد اربل فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وأصر على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقى دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار اليهم ومعه زنكى فعبر الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل ايبك فى الجالشية ومعه شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه الا اليسير وجعل فى ميسرته أميرا كبيرا وطلب الانتقال عنها الى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الامير الطلب بالانتقال من الميمنة الى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن معك فى هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو فى جمع كبير من العسكر فلما انتصف الليل سار ايبك فأمره بدر الدين بالمقام الى الصبح لقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا فى الليل والظلمة والتقوا هم والخصم فى العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل فأما عز الدين فانه تيامن والتحق بالميمنة وحمل فى اطلابه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى وكان الامير الذى انتقل الى الميمنة قد أبعد عنها فلم يقاتل فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم اليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد الى الموصل وعبر دجلة الى القلعة ونزل منها الى البلد فلما رآه الناس فر حوا به وسار وا معه وقصد باب الجسر والعدو بازائه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وزايل حصن كيفا فاقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى

بالموصل

صادفت من آثار رعايته
ما لم يكن يليق الا بهمته
وما نشأ من كريمة المجد فى
ضمان ذمته * فرأى عند
وصولى اليه * وعرضى
موضوع الكتاب ومجموعه
عليه * أن يسمى بالتقليد
ويسير فى الى كنج رستاق
على البريد * وعليها فرعون
يون ابو الحسن البغوى
الغوى شيخ ظاهره نور
وباطنه ديجور * ومنظره متن
السيف * ومخبره رد الزيف
وأول مشوره العاسل * وآخره
قرون السنابل * فافتتح
موفدى عليه باستهانة لم
تناسب حشمة الامر اعولا
حرمة الاقلام والمحابر
يوهم من جانب انه مبعوث
ومن آخران الحقد موروث
وقد كذب ان الزعاق
من منبع الشريب محال
ووراثة محبات الاولاد حلال
* ومن علمنا ان موالاة الابناء
معاداة الآباء وان والدا

بالموصل وانهم لم يفقد منهم الا اليسير وبلغه الخبر ان بدر الدين يريد العبور اليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كاسا أو بوقا وعادوا نحو اربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شئ هو له وتقررت العهود والايمان على ذلك

(ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار)

كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل واعلاها وامنعها وكان الجند الذين بها لمار أوا ما فعل اهل العمادية وغيرهم من التسليم الى زنكى وانهم قد تحكموا فى القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدر الدين ويبطنون المخالفة فتردد الرسل فى عودهم الى الطاعة فلم يفعلوا وراسلوا زنكى فى المجئ اليهم وتسلم القلعة واقام عندهم فرسل مظفر الدين يذكر بالايمان القريبة العهد ويطلب منه اعادة كواشى فلم تقع الاجابة الى ذلك فأرسل حينئذ بدر الدين الى الملك الاشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات الى حران واختلفت عليه الامور من عدة جهات منعته من سرعة السير وسبب هذا الاختلاف ان مظفر الدين كان يراسل الملوك اصحاب الاطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الاشرف ويخوفهم منه اذا خلى وجهه فأجابه الى ذلك عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له فى بلادهم ونحن نذكر ما كان بينه وبين الاشرف عند منهج لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق ان كيكاوس مات فى ذلك الوقت وكفى الاشرف وبدر الدين شره ولا جد الا ما أقعص عنك الرجال وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الامراء الذين مع الاشرف واستمالهم فاجابوه منهم أحمد بن على بن المشطوب الذى ذكرنا انه فعل على دمياط ما فعل وهو اكبر امير معه ووافقه غيره منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما وفارقوا الاشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الاشرف من العبور الى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد الى موافقة الاشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم اليه الاشرف مدينة حاني وجبل جور وضمن له أخذ دارا وتسليمها اليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم فاضطرب بعض أولئك الامراء الى العود الى طاعة الاشرف وبقى ابن المشطوب وحده فسار الى نصيبين ليسير الى اربل فخرج اليه شحنة نصيبين فمن عنده من الجند فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع ومضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجار فسير اليه صاحبها فروخ شاه بن زنكى بن مودود بن زنكى عسكرا فهزموه وأخذوه اسيرا وحملوه الى سنجار وكان صاحبها موافقا للاشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الاشرف فاجابه الى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا الى سنجار ثم ساروا وهو معهم الى تل يعفر وهى لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا فى تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير اليه عسكرا فقاتلوهم فمضى منهزما وصعد الى تل يعفر واحتمى بها منهم ونازلوه وحصروه فيها فسار

يكاشح ولده * ويطوى على الداء الدفين معتقده * حتى يباغض من وافقه وعاهده * وضرب على وجوب عقد الموالاة يده * وسامنى خيانة الدين بمواطأته * على كأن تغلق الرقاب * وتوجب فى عواقبها العقاب * حتى اذا علم ان مثلى لا يقر على الباطل * ولا يرضى باستعمال الاباطيل والارامل * رام ان يغرقنى فى دردور * ويتيه بى فى تيهور * فاستمال واكتال وحرش على الامراء الاشبال * وأبى الله لعلمه بعباده الا أن يحيق به مكيدته * ويكشف عن أقواء الزور وايطاء الغرور تصيدته * ولما أيس مما رامه * وأبلس دون ما جر له اهتمامه واعتزامه * عرج على استنزال شمس الكفاة بسحر التمويه * وعرض صورتى عليه فى

بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الاول سنة سبع عشرة وستمائة وجد في حصره وزحف اليها مرة بعد أخرى فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه الى الموصل فسجنه بها ثم أخذه منه الاشرف فسجن بحران الى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط وأما الملك الاشرف فانه لما اطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الامراء كما ذكرناه رحل من حران الى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن عليه واقطعه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وتردّدت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الاشرف رأس العين وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين ويأخذ منه ايضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح سار الاشرف من دنيسر الى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها اليه ويطلب العوض عنها مدينة الرقة وكان السبب في ذلك أخذ تل يعفر منه فانخلع قلبه وانضاف الى ذلك ان ثقاته ونصحاءه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لانهم تهددوه فتغذ وابه قبل أن يتعشى بهم ولانه قطع رحمه وقتل أخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله كما ذكره ان شاء الله وملكها فلقاه الله سوء فعله ولم يمتعه بها فلما تيقن رحيل الاشرف تحير في أمره فارسل في التسليم اليه فاجابه الاشرف الى العوض وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الاولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها واخوته باهليهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الاتابكي بسنجار فسبحان الحي الدائم الذي ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بابنائها فتعسا لها من دار ما أغدرها باهلها

﴿ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين﴾

لما ملك الملك الاشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية فانها تبقى بيد زنكي وان المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث في ذلك نحو شهرين ثم رحل الاشرف يريد مظفر الدين صاحب اربل فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب اربل فاعاد الرسل وكان العسكر قد طال بكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه الى مظفر الدين فاشار بالاجابة الى ما بذل واعانه عليه غيره فوقعت الاجابة اليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها اجل وحمل زنكي الى الملك الاشرف يكون عنده رهينة الى حين تسليم القلاع وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكي الى نواب الاشرف رهنا على تسليم ما استقر من القلاع فاذا سلمت اطلق زنكي وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الاشرف الى زنكي القلعتين وعاد الى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فارسلوا الى القلاع لتسلم الى نواب بدر الدين فلم يسلم اليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكارية وأما باقي

معرض التشويه * موهما اياه ان لي صغوا في بعض من ناظره يوما على رتبة المقابلة * أو وزانه بعيار الموازنة والمماثلة * علما منه بان حلمه لا يستخف الا بهذا التأويل * وان رأيه لا يستنزل الا على مثل هذا التخييل * حتى نفذت فيه رقيته * وعملت في استنزاله دخيته * فتشرب حقدا ولا الارض من صوب العهاد * والكف من وشم السواد * والثوب من لون الجساد * أو صبغ الفرصاد وعلم الله اني لم اكن لاضمر كدرا على صفاء * أو اسر حسوا في ارتغاء * أو استجيز نجما اصنعه * أو طمعا على عين شريعه * غيري من نكب عن نهج الوفاء * وغيب دون فرض النعماء * ووتع حق المنعم المثيب *

القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك ومضى الاجل ولم يسلم الاجل صوروا ولزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي بن الملك العادل وخدمه وتقرب اليه فاستعطف الله أشاه الملك الاشرف فمال اليه وأطلقه وازال نوابه من قلعة العقر وشوش وسلمها اليه وبلغ بدر الدين عن الملك الاشرف ميل الى قلعة تل يعفر وانها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث في ذلك فسلمها اليه بدر الدين

﴿ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان الى بدر الدين﴾

لما ملك زنكي قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع اهلها ما ظنوه من الاحسان والانعام بل فعل ضده وضيق عليهم وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه واحسانه اليهم وبذله الاموال لهم وكانوا يريدون العود اليه ويمنعهم الخوف منه لما اسلفوه من ذلك فلما كان الآن اعلنوا بما فعل معهم فارسلوا الى بدر الدين في المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة في التسليم اليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم وذكروا شيأ من أقطاع تكون لهم فاجابهم الى ذلك وارسل الى الملك الاشرف يستأذنه في ذلك فلم يأذن له وعاد زنكي من عند الاشرف فجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضا وأعاد وامراسلة بدر الدين في التسليم اليه فكتب الى الملك الاشرف في المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له في اخذها فاذن له فارسل اليها النواب وتسلموها وأحسن الى اهلها ورحل زنكي عنها ووفى له بدر الدين بما بذله له فلما سمع جند باقي القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم في التسليم فسير اليهم النواب واتفقت كلمة اهلها على طاعته والانقياد اليه والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها في استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم فعادت صفوا عفوا بغير منة ولقد أحسن من قال

لا سهل الا ما جعلت سهلا * وان تشأ تجعل بحزن وحلا

فتبارك الله الفعال لما يريد لا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع وهو على كل شئ قدير

﴿ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس﴾

في هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم الى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ومعه الافضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان الى صاحبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين عن رعيته فاوغروا صدره فلقي الناس منهما شدة فلما توفي الظاهر وولي الامر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق اليه أحد من اهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر فخافا فنارقا حلب وقصدا كيكاوس فاطمعاه فيها وقررا في نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من اصحابه وقالوا له لا يتم لك هذا الا بان يكون معك أحد من بيت ايوب ليسهل على اهل البلاد وجندها الانقياد اليه وهذا الافضل ابن صلاح الدين هو في طاعتك والمصلحة

ورد الخبر على قرارة القليب ونزعني عما قلدنيه بقدم من أهل جرجان لا يعرف الرشد من الغي * ولا الظل من الفي * ولا النشر من الطي * ولا النقد من اللي ولا الاثبات من النفي * ولا جرجان من الري * شوهة بوهة قد صيغ من طول القناء * وزرقة السماء * ولبقة الدواء * وصفاقة الصفاء * وتجدير الصدف بالعشرات طالما خر على العثون تشمما التراب * وتكففا للاصافي الجراب * وتصرفا على المكس بالصروف وتهجيا للالف بنقطتين من بين الحروف * وطفق من بعد يرتضخ لكنة عجمية في شعر كشعره الموصوف بوثارة الصوف * مستميحا كل صراف واسكاف * وعطار وبيطار * على سعر

انك تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتصانه من البلاد فحيثما كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد فاحضر الافضل من سميساط اليه واكرمه وحمل اليه شيأ كثيرا من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك واستقرت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للافضل وهو فى طاعة كيكاوس والخطبة له فى ذلك أجمع ثم يقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه مما يد الملك الاشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس وجرت الايمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الافضل فقال الناس حينئذ اليهما ثم سارا الى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم اليارقى فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فاخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلمها الى الافضل فاستشعر الافضل من ذلك وقال هذا اول الغدر وخاف انه ان ملك حلب يفعل به هكذا فلا يحصل الا أن يكون قد قلع بيته غيره ففترت نيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك ايضا أهل البلاد فكانوا يظنون ان الافضل يملكها فيسهل عليهم الامر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما شهاب الدين اتابك ولد الظاهر صاحب حلب فانه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الامر خاف ان يحصروه وربما سلم اهل البلد والجند المدينة الى الافضل ليملكهم اليه فارسل الى الملك الاشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه ليكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من اعمال حلب ما اختار ولان ولد الظاهر هو ابن أخته فاجاب الى ذلك وسار اليهم فى عساكره التى عنده وأرسل الى الباقين يطلبهم اليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر اليه العرب من طى وغيرهم ونزل بظاهر حلب ولما أخذ كيكاوس تل باشر كان الافضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا ويتجهزوا فعاد عن ذلك وصار يقول الرأى اننا نقصد منبج وغيرها اثلا يبقى لهم وراءظهورنا شئ قصدا للتمادى ومرور الزمان فى لاشئ فتوجهوا من تل باشر الى جهة منبج وتقدم الاشرف نحوهم وسارت العرب فى مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قد سبقت مقدمته له فالتقواهم والعرب ومن معهم من العسكر الاشرفى فاقتتلوا فانهزم عسكر كيكاوس وعادوا اليه منهزمين واكثر العرب الاسر منهم والنهب بجودة خيلهم وبرخيل الروم فلما وصل اليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوى المراحل الى بلاده خائفا يترقب فلما وصل الى أطرافها اقام وانما فعل هذا لانه صبى وغر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الاشرف ذلك رعبان وحصر تل باشر وبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا فاخذت القلعة منهم وأطلقهم الاشرف فلما وصلوا الى كيكاوس جعلهم فى دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للوم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة فى قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الاشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب الى شهاب الدين اتابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فاتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العود الى حلب لان الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان

صفته الاولى اذا السلعة قائمه * والجلة رائمه * والسبخة عطوره * والنخلة مأبوره * وغبر زمانا على هذه الجلة فى الوتاحة والوقاحة * ثم انتجع خراسان بيضاعته المزجاة فوافقت على النظرة الخرقاء قبولا * ولبست من عز العطاء غرة وحجولا * فلما تعقبها التأمل * علم ان خرق الانتقاد ضيع المال * وأورث الوبال * فأهمل مخذولا * وغودر فى قدر شعره مرذولا * الى أن غر شمس الكفاة عن نفسه فاختاره على * ونفذه معه مكيدة البغوى الغوى فى * فقصدت من المكروه فى الروح * دون سائر الممنوح * بما لولا مكان الامير السيد أبى سعيد مسعود بن يمين الدولة وامين الملة * وفضل

العظيم اذا توفى ربما جرى خلل فى البلاد لا تعرف العاقبة فيه فعاد اليها وكنى كل منهما اذى صاحبه

﴿ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده﴾

توفى الملك العادل أبو بكر بن ايوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار الى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه وعلما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة فلما توفى أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقى مالكا للبلاد الى الآن فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة اربع عشرة وستمائة قصد هو مرج الصفر فلما سار الفرنج الى ديار مصر انتقل هو الى عالقين فاقام به ومرض وتوفى وحمل الى دمشق فدفن بالتربة التى له وكان عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما ذا أناة يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الطرح وقت الحاجة لا يقف فى شئ واذا لم تكن حاجة فلا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لان مولده كان فى المحرم من سنة أربعين وخمسمائة وملك دمشق فى شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الافضل ابن أخيه وملك مصر فى ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه ايضا ومن أعجب ما رأيت من مناقاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قط الا وأخذها منه عمه العادل فاول ذلك ان صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل ابوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة ابيه مدينة دمشق فاخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فاخذها ايضا منه ثم ملك صرخد فاخذها منه وأعجب من هذا انى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذى بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الافضل طلبها منه فاخذها وهذا غاية وهو من أعجب ما يحكى وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه اياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يشق الى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره أبوهم ولعمرى انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام وفى نوبة دمياط كفاية وأما الملك الاشرف فليس للمال عنده محل بل يمطره مطرا كثيرا كعفته عن أموال الرعية دائم الاحسان لا يسمع سعاية ساع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لانه بلغه ان جماعة

احسانه * واستنقاذه اياى من فجوات أشداقهما بأحد غلمانه * لتدافق الخطب الى مايزلقه فيه * ولغلق رهن الحياة بما فيه * ولو كنت عرفت من سيرة البغوى قبل ما عرفته بعد لاستعفيت من جواره * واسترست من مساقط أجاره * لكن السرائر بيد الله تعالى لا يكشفها الا الاختبار والظلم فى خلق النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقد كتبت الى جماعة الافاضل فى ذكر المذكور وشكوا * وتقرير سجاياه * ما هذه نسخته بسم الله الرحمن الرحيم لجماعة أرباب الصناعة * وعصابة أعلام الاصابة * من مبادى الاشراق * الى أقاصى العراق * من محمد بن عبد

من الامراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الغائر عوضه نخافهم ففارق منزلته فانتقل الفرنج اليها وحصروا حينئذ مياطر برا وبحرا وتمكنوا من ذلك وقد تقدم مستقصى سنة أربع عشرة وستمائة وفيها في المحرم توفي شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعي وكان مدرسا في عدة مدارس بالموصل وكان صالحا كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله وفيها توفي عز الدين نجاح الشرابي خاص الخليفة وأقرب الناس اليه وكان الحاكم في دولته كثير العدل والاحسان والمعروف والوصية للناس وأما عقله وتدبيره فاليه كانت النهاية وبه يضرب المثل وفيها توفي علي بن نصر بن هرون أبو الحسن الحلي الضوي الملقب بالحجة قرأ على ابن الخشاب وغيره

(ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه)

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم وكان قد جمع عساكره وحشد وسار الى ملطية على قصد بلاد الملك الاشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب اربل وكانوا قد خطبوا له وضربوا اسمه على السكة في بلادهم واتفقوا على الملك الاشرف وبدر الدين بالموصل فسار كيكاوس الى ملطية ليمنع الملك الاشرف عن المسير الى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعلل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضا وكان قد علق به السل فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفي وملك بعده أخوه كيقباذ وكان محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد وأشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل فلما توفي لم يخلف ولدا يصلح للملك لصغرهم فأخرج الجند كيقباذ وملكوه ومن بغى عليه اينصرنه الله وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتد مرضه فاحضره عنده من السجن ووصى له بالملك وحلف الناس له فلما ملك خالفه عمه صاحب ارزن الروم وخاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده فارسل الى الملك الاشرف وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد وتصاهرا وكفى الاشرف شر تلك الجهة وتفرغ بالله لاصلاح ما بين يديه واقد صدق القائل وجدك طعان بغير سنان وهذا ثمرة حسن النية فانه حسن النية لرعيته وأصحابه كافا عن أذى يتطرق اليهم منه غير قاصد الى البلاد المجاورة لبلاده باذى وملك مع ضعف أصحابها وقوته لاجرم تأتيه البلاد صفوا عفوا

(ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه)

وفي هذه السنة ثامن صفر توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وكان كريما حسن السيرة في رعيته حسن المعاملة مع التجار كثير الاحسان اليهم وأما أصحابه فكانوا معه في أرغد عيش يعمهم باحسانه ولا يخافون أذاه وكان عاجزا عن حفظ بلده مسلما الامور الى نوابه ولما توفي ملك بعده ابنه عماد الدين شاهانشاه وركب الناس معه وبقي مالكا لسنجار عدة شهور وسار الى تل أعفر وهي له فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكي ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده فبقي كذلك الى أن سلم سنجار الى الملك الاشرف على ما نذكره ان شاء الله تعالى ولم يتمتع بملكه الذي قطع رحمه وأراق الدم الحرام لاجله ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة ثم أخذت منه عن قريب وتوفي بعد اخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه

الجبار المعروف بأبي النصر العتبي رسالة تخص كل حاضر وجود * وتعم كل لاحق مولود * ما سمع للحق أذان * وأطلق على الكفر عنان * وشيم في سبيل الله حسام * وأقيم على كتاب الله تقط واعجام * سلام عليكم ما راق شارق مهضوب * وأراق بارق سكوب * ودرت على الابساس حلوب * وكرت في حومة الباس قارح يغبوب * سلاما تمد على نفحات السحر قضبانه * وتنم على فتات المسك والعنبر أردانه * أما بعد فان لله تعالى جنده بازاء نعمه التي يتبلج للسارين صباحها * ويتبرج للناظرين وشاحها * معدلة القدود * موردة الخدود * مضفرة القرون * منورة الشؤن * مغالقة العوارض مدبجة

وهذه عاقبة قطيعة الرحم فان صلتها تزيد فى العمر وقطيعتها تهدم العمر

(ذكر اجلاء بنى معروف عن البطائح وقتلهم)

فى هذه السنة فى ذى القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولى بلاد واسط أن يسير الى قتال بنى معروف فتجهز وجمع معه من الرجالة من تكريت وهيت والحديثة والانبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيرا وسار اليهم ومقدمهم حينئذ على بن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم غربى الفرات تحت سوراء وما يتصل بذلك من البطائح وكثر فسادهم وأذاهم لمن يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وافسدوا فى النواحى المقاربة لبطيحة الغراف فشكا أهل تلك البلاد الى الديوان منهم فأمر معدا أن يسير اليهم فى الجموع فسار اليهم فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والاسر والغرق وأخذت أموالهم وحملت رؤس كثيرة من القتلى الى بغداد فى ذى الحجة من السنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم عماد الدين زنكى من عسكر بدر الدين وفيها فى العشرين من رجب انهزم بدر الدين من مظفر الدين صاحب اربل وعاد مظفر الدين الى بلده وقد تقدم ذلك مستوفى فى سنة خمس عشرة وستمائة وفيها فى السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة دمياط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحا وفيها توفى افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمى العباسى الفقيه الحنفى رئيس الحنفية بحلب روى الحديث عن عمر البطامى نزيل بلخ وعن أبى سعد السمعانى وغيرهما وفيها توفى أبو البقاء عبد الله بن الحسين ابن عبد الله العكبرى الضرير النحوى وفيها توفى أبو الحسن على بن أبى محمد القاسم بن على بن الحسن بن عبد الله الدمشقى الحافظ بن الحافظ المعروف بابن عساكر وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد الى بغداد فوقع على القفل حرامية فجرح وبقى ببغداد وتوفى فى جمادى الاولى رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة)

(ذكر خروج التتر الى بلاد الاسلام)

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا الا انى حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن تركى ذلك لا يجدى نفعا فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الايام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس وبنا البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت

المعارض * مخضبة الاطراف معطرة الاردان والاعطاف * منامنه على عباده ابتداء بمقتضى حكم كرمه * أو ابتلاء لاختبارهم فى جنب نعمه * نقسما فائدها شؤم الخذلان * وسائقها لؤم الكنود والكفران * تخالط أبناءها مشوهة المطالع * منفشة القنازع * مروقة المكامن * مقلصة المشافر * مغولة المعارى والمحاسر * تصرفهم بين أخلاق مذمومة * وأخطار مشاومة * وأعراض مكاومة * وأفعال بعاجل العار * وآجل النار * محتومة * وقد تستحيل النعم بأعيانها نقما منكورة * كما تستحيل المحن على أربابها منحا مشكورة * تطبعا على خلق المكارم وتزعا على عادة المقصود بالاحسان

المقدس وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا ياجوج وماجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من اطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون باهلها ما ذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وارانية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدينة ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان والكزومن فى ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء واشد هذا مما لم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة فى الحوسنة ولم يبق أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها الا غير وأمادوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجل فاذا جاء الولد لا يعرف اباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله اقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين

كالجيب يعطر من نوافج
النـد والمعطرة * والجو
يذفر من روائح الحشوش
المقبرة * والمزن يسقط على
عرصة الروض * فتواليه
طهارة ونضارة * ويهبط على
فروة الكلب فتعديه نجاسة
وقذارة * والماء القراح
يسقى عروق الشجر *
فيقضى عليها باختلاف
الثمرة فيقبله كل منها على
ما كتب له من مرارة
وحلاوة * ومرارة
وحرافة * وكثافة ولطافة
* تسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض فى الاكل
* قدرة من البدىء الاول *
والابدى الموجود فى الازل
* ان شر خلق الله نفسا وشيمة *
وأخبثهم قدرا وقيمة * من
يضيفه صنع الله ريان من
ماء الطلاقة * نشوان من
صهباء اللباقة * فينان من

والذاب عن الاسلام مفعدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان هؤلاء التتر انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم الى البلاد

(ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه)

فى هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مسيرة على ستة أشهر وكان السبب فى ظهورهم ان ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بقوجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والفندر وغيرهما الى بلاد ماوراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوتار وهى آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتار رسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير ما معهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد ان ملك ماوراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بماوراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل فى سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ما هو وكم مقدار ما معه من الترك وما يريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون ما يحتاجون اليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم واخذ اموالهم وحصل عنده فكر زائد فاحضر الشهاب الخيوقى وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف ما يشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فأخذ رأيك فى الذى نفعله وذلك انه قد تحرك الينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لا تحصى فقال له فى عساكرك كثرة ونكاتب الاطراف وتجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام فنكون هناك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من ارباب المشورة فاستشارهم

غال الصباحه * ميسان فى حال الصباحه * حتى اذا حط رحله * وخالط بالبشر الخصيب أهله * قراه من بؤس الخصال * وعبوس الملال * وضرة الاستبدال * ما يطير واقعه * ويهيج وادعه * وينشز ودوده * ويعقر عليه ولوده * فرحل فى سواد الحداد شاكى السلاح * وخفرة الذمار * وذلة المقدار * وغلظة الاحماء والاصهار * ثانيا على ثنية الوداع صليفه متمثلا بقول القائل

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استقصت على أقوام

لا يليق الغنى بوجه أبى يعلى ولا نور بهجة الاسلام وسخ الثوب والعمامة والبرذون * والوجه والقفا والغلام

فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا نتركهم يعبرون سيحون الينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق فانهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا يفجو منهم أحد فبينما الاتراك كذلك اذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول تقتلون اصحابي وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فاني واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به وكان جنكزخان قد سار الى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الاولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة الى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك أنا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت باصحابك وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم فاد من السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فاوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا الى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بحفاظهم فجدوا السير فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ولم ينهزم أحد منهم اما المسلمون فانهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم ان انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وانهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الامر حتى ان أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فأحصى من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا واما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم سئم القتال فاما الكفار فعادوا الى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا الى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لان طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف اذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فامر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل في بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفي سمرقند خمسين الفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود الى خوارزم وخراسان واجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا الى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك وأما الكفار فانهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ماوراء النهر فوصلوا الى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين الى خراسان فلما أصبح اهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فارسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الامان للناس فاعطوهم

الامان

ولولا ان العقاب * تبع للخطاب * وان التأمر على الاعراض مجهول في حكم الاعتبار ونص الكتاب * وان مجازات الشعراء غير حقائق الكتاب * لادعيت غضب الله على نعمه حين ابتلاها بمجاورة الانذال * وزواها عن مظان الاستحقاق من كرام الرجال * غير ان المقصود فيها بالكرامة وقد قابلها بالاستخفاف * وكابر عقله في جوارها بغير الانصاف * أولى بأن يقهره عاجل الغضب * ويبهره آجل اللهب * فكم من وارد ماء أشرقه نميره * وقادح زند أحرقه سعيره * وشاحذ حد قطع به وريده * وراكب جواد قصم عليه جيده * وقد تختلف مواقع النعم من أربابها على شيء منها من

الامان وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما اجابهم جنكزخان الى الامان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا الى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى فى البلد بان لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل فخضروا جميعهم فامرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب وغير ذلك حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق فانا لله وانا اليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبورا حليما والا كان خسف بهم الارض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف الى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا اليهم ووصل النقابون الى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا فى القتال وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر ان يكتب له رؤس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم النقرة التى باعكم خوارزمشاه فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فاحضر كل من كان عنده شئ منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من اموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فامر أصحابه ان يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء ايضا وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن انفسهم شيأ مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل ومن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضى صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا اسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والاسارى والاثقال وراءهم حتى تقدموا شيأ فشيأ ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى اهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثانى وصل الاسارى والرجالة والاثقال ومع كل عشرة من الاسارى علم فظن أهل البلد ان الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله واهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء

صارت اليه * وبالها من مالت بسوء اختياره وقبح آثاره عليه * فالاحداث فيها أحسن حالا * وازين خصالا * من الكهول الطاعنين فى الاسنان * والشيوخ الحالبين أشطر الزمان * فليس من قرح وحنك * وسبر وسبك * وأخذ على وجه الاستبصار وترك كالغرام تلفه هواجر الامور * والغمر لم تردعه زواجر الدهور * والغفل لم تدربه الحادثات بأحوالها والمهر * لم ترضه الرجال بأكفالها * وقديما عذر النازى فى طول الجهالة بالشباب الذى هو طليعة الحماة * وشريعة الشهوات واللذات * وان سائس العقل لم يضرب عليه عقاله * وصيقل التجريب لم يحكم على متنيه

الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطعنون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين انشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد فقتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفا على ما قيل فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلونا فطلبوا الامان فاجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم وخرجوا الى الكفار باهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا اسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا اموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج اهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وانتضوا الابكار وعذبوا الناس بانواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا

﴿ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته﴾

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان امنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لانهم اسارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا في البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير سار واوقصدوا موضعا يسمى فنجاب ومعناه خمس مياه فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم والقوا الخيل في الماء وامسكوا اذنابها وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزمشاه الا وقد صاروا معه على ارض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا وقد اختلفوا فيما بينهم انهم كانوا يقاسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا ينهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم فلما سمع بقربهم منه رحل الى مازندران وهي له أيضا فرحل التتر المغربون في أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان تعرف بباب سكون وله هناك قلعة في البحر فلما نزل

صقاله * وان الرى برعومة
لا يفتقها الا كرا الجديدين
يدوريدور * وشمس تطلع ثم
تغور * وموسم زمان ينفق
فيه النور والنور * وان
الشباب شعبة من الجنون *
وان قلم التكليف مرفوع
عن المجنون * والحدث الغر
كالفجاءة جرحها جبار *
وعجمها دون جنايتها
اعتذار * فما بال من خلع
لباس الحداثة * ووضع عنه
جلباب الطراءة * واجتلى
نهار المشيب عيانا * وأفنى
ثلاث عمائم الوانا *
سوداء داجية وبعض مفرق
وأجدلونا بعد ذاك هجانا

هو وأصحابه فى السفن ووصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر ووقفوا على ساحل البحر فلما ايسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الرى وما بعدها على ما نذكره ان شاء الله هكذا ذكر لى بعض الفقهاء ممن كان بخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم ووصل الينا وذكر غيره من التجار أن خوارزمشاه سار من مازندران حتى وصل الى الرى ثم منها الى همذان والتتر فى اثره ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب فى البحر الى هذه القلعة وكان هذا هو الصحيح فان الفقيه كان حينئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ففارق همذان وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهارهم يخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاه الى هذه القلعة المذكورة توفى فيها

(ذكر صفة خوارزمشاه وشىء من سيرته)

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش وكان مدة ملكه احدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فانه ملك من حد العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الافاعيل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والاصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات انما همه فى الملك وتدبيره وحفظه ورعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم (حكى) لى بعض خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت الى خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فبينا حضرت اقبل فى انسان فقال ما حاجتك فقلت له أنا من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فامرنى بالجلوس وانصرف عنى ثم عاد الى وأخذنى وادخلنى الى دار السلطان فتسلمنى منه حاجب من حجاب السلطان وقال لى قد أعلمت السلطان خبرك فامر باحضارك عنده فدخلت اليه وهو جالس فى صدر ايوان كبير فحين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى الى بين يدى فاسرعت السير فلقيته فى وسط الايوان فاردت أن اقبل يده فمنعنى واعتنقنى وجلس واجلسنى الى جانبه وقال لى أنت تخدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت نعم فأخذ يدى وأمرها على وجهه وسألنى عن حالنا وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها واطال الحديث معى فلما خرجت من عنده قال لولا اننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك انما نريد أن نعبر جيحون الى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأيتنا من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ثم ودعنى وأرسل الى جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرق فى غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لطال

(ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران)

لما أيس التتر المغربة من ادراك خوارزمشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها الى

وحان له ان يصحو عن قهوة البطالة * وينزل عن صهوة الاستطالة * ويبكى لضحك المشيب برأسه * ونصول الانقاس عن قرطاسه * وتغشى الوهى فى عظامه * ووقود القوى به عند قيامه * واصباحه على خمار ندمه * وافتضاحه بعثار قدمه * ونداء برهان الله عليه باتساع محجته * وانقطاع حجته * واتلاع النار اعناقها لالتقاطه * واختطافه هاويا عن سراطه * يستجيز العمى عن سبيل الله * والصمم دون أمر الله * خبطا فى ليل الضلال * وحطبا فى حبل الضلال * ويجوعا فى حافرة النار * وولوعا بفاجرة الاثار * وخلاعة فى شطن الغى والغلو * واباء الاعلى

أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها واستناع قلاعها فانهم لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصى خراسان بقيت اعمال مازندران بأسرها خارجة منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى ان ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا الامر بيده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك ان والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت فغارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل الى اصفهان وهمذان وبلاد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الى الرى فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند

(ذكر وصول التتر الى الرى وهمذان)

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الرى في طلب خوارزمشاه محمد لانهم بلغهم انه مضى منهزما منهم نحو الرى فجدوا السير في اثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك ايضا من المفسدين من يريد النهب والشر فوصلوا الى الرى على حين غفلة من اهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الاطفال وفعلوا الافعال التي لم يسمع بمثلها ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارزمشاه فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها ونهبوا في الجميع اضعاف ما فعلوا في الرى واحرقوا وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شئ وتواعلى حالهم الى همذان وكان خوارزمشاه قد وصل اليها في نفر من اصحابه ففارقها وكان آخر العهد به فلا يدرى ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه وقيل غير ذلك وقد ذكرناه فلما فارقوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الامان لاهل البلد فامنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا في قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم واهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصى ثم فارقوا قزوين فعدد القتلى من أهل قزوين فزادوا على اربعين الف قتيل

(ذكر وصول التتر الى اذربيجان)

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلاد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى اذربيجان ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز وبها صاحب اذربيجان اوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق وانما ارسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الى

النفس الامارة بالسوء فلا درّ در الشيب * مشوبا بدنس الجيب * ولا نورت اقاحى القذال * الا على مكارم الافعال

فاقبح ما ابتلاه الطرف يوما * ضياء الشيب في حلك الخصال

نعوذ بالله من غضب الرحمن * وخفة العمر بطابع الخذلان * وتعريضه المشيب لما يهتك من أستاره * ويكشف من أسراره * ويمحق من نواره * ويحرق من نوره بناره * وعصم أقمار الكرام * واحرار الانام * عن مصرع الغوية أبي الحسن البغوي دلة الاحتيال * وسلة الاغتيال * وجراب المخاريق وجراب التخاليط وعقرب التضريب * وملمع

موقان وتطرفوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فجاءاليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج الى أوزبك صاحب اذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطلحوا ليجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك ارسلوا الى الملك الاشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون فى الشتاء الى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مماليك تركى من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فاجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وساروا فى مقدمة التتر الى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بجدها وحديدها اليهم فلقيهم أقوش أولا فمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وادركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا اقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك ان من يجىء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة يستكثرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر انا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى ازماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين اذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل ما دفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها وناهيك بها سبعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الى الرى وبلاد الجبل واذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمد اقد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل اطراف بلاد فارس ومات هناك واخفى موته لئلا يقصدها التتر فى اثره وتارة يقال عاد الى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هناك وبالجملة فقد عدم ثم صح موته بطبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على انهم لم يقووا على مدينة الا خربوها بكل ما مروا عليه من نهبوه وما لا يصلح لهم احرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا

الاكاذيب * وشبه التدليس وزئبق التمويه ومرآة التقريب * ومقراض المغيب * وآفة الجود * وخرافة الموعود * وحرباء الالحاد * وكيمياء العناد * ويربوع النفاق * ويعسوب الشقاق * وضبة العقوق * وفأرة الفسوق * وثعلب الخداع * وخنزير القصاع * وكلب الهنات * واسود التراث * وحرضة الانذال * وفرضة الخبث والخبال * وسكين الارحام * ويمين الدم الحرام * ولعل بعض من يتضمخ هذه الالفاظ منسوقه * والاجماع مجموعة ومفروقه * يظن بها ركوب البهت فى حلبة الاقتدار * وعصيان القصد فى طاعة الاجبار * ولا لا يضناض البلاغة *

ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الامتعة

(ذكر ملك التتر مراغة)

في صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من اذربيجان وسبب ذلك انا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة سارو من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فرصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهي مقيمة بقلعة ترويندز وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالاشقران تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الاسارى وهم بنجوة منه فاقاموا عليها عدة ايام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم ومالا يصلح لهم احرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الاسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (وبلغني) ان امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنون انها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض اهلها ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى افناهم ولم يد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة اربل ووصل الخبر الينا بذلك بالموصل فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جماعة طلبا من عسكره واراد ان يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة ورسله الى الموصل والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا الى الملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر الى الخليفة باخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها خرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للمسير الى الشام ليدخل مصر وكان ما ذكرناه من استنقاذ

واعما الاغراض السفاهة بالفصاحة * وحذوا على غرار الشعراء في استعمال المجاز * واغفال التحفظ والاحتراز * انكارا لانتقاء هذه المساوى السوء في شخص قد شرى على تصاريف الزمان وجرب * وأكل طعمي احواله وشرب * ولم يعلم ان الله تعالى اذا أخذ شخصا ممن شاء من عباده لم يبق منه الا حامدا ومحمودا * وجلدا على اختلاط الفساد مغبوطا * وعلى شك خاصرة الشك عن واضحة اليقين بالافصاح عما أبهم * والاصباح على ما أظلم * تحذيرا الغفلة الانام * وتيسيرا الشاكلة الاستعصام * وتنبيها على مزلة الاغترار بظواهر النعم * والانخداع

دمياط

دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء في نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر (وحكى مظفر الدين) قال لما ارسل الى الخليفة في معنى قصد التتر قلت له ان العدو قوى وليس لي من العسكر ما القاه به فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي فأقمت وما رأيت الخاطر بنفسي وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظننا منهم ان العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامي عندهم فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

(ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها)

لما تفرق العسكر الاسلامي عاد التتر الى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها فارسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شرينا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الاموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد افنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم اموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا الا ممانعتهم بالاموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار واغلظوا له في القول فقال أنا واحد منكم فامنعوا ما شئتم فاشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم وكانت الاقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر احد على الطعام الا قليلا واما التتر فلا يبالون لعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم ولا تأكل دوابهم الا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الارض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم اهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فقاتلوا اشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر اكثر من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب صنعه الى ظاهر البلد هو واهله الى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون الا انهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى ان يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلم يروا أحدا خرج اليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة

لز واهر الاحاظي والقسم * فكم من صفيح يروق العيون نوره * ويروع النفوس مشهوره * قد قطف عنا قيد رؤس وأراق أباريق عروق * وفر المنايا عن عسل من الانياب روق * ومن شهاب كما خط بالابرين كاتب * أوحل عن معقود اللواء راكب * يستوقف الابصار ضياء ممدودا * وبها يأفق السماء معقودا * قد رمد من طار بطواره * وهمد من رام النهوض في جواره * وكذلك الدقلي يغر الناظر بجرده * ويفتر عن عقيق الورد زبرجده * ثم هو الداء العجلوب لمن خبر * والسم المقشوب لمن فكر واعتبر * ولولا ان قصد الشريعة أن تسمح بخبرها على العموم * وتكافئ بين الكافة في فضلها المعلوم * اباحة للكتابة التي هي قيد العلوم * وصيد الحكم المبثوثة في الرقوم * لقلت لله در ساسة

واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصيه الا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين فافنوهم قتلا ولم يسلم الا من كان عمل له نفقا يختفى فيه وبقى القتل فى المسلمين عدة أيام ثم القوا النار فى البلد فاحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وقيل كان السبب فى ملكها ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهى اليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزى ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب ارسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك فارسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال فجمد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط فى أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى فى القتال كما ذكرنا

(ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم اردويل وغيرها)

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى اردويل فملكوها وقتلوا فيها واكثروا وخربوا أكثرها وساروا منها الى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها ازبك بن البهلوان وكان اميرا متخلفا لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهارا لا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر واذا سمع هيعة طار مجفلا لها وله بجميع اذربيجان وارّان وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الى خوى ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائى بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قارب التتر وسمعوا بما اهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة واصطفوا اسوارها وخندقها ارسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الى مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد ارّان فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من اهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى اهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله اهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى انهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمتد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا الى مدينة كنجة وهى أم بلاد ارّان فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة تدربهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

(ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج)

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين باذربيجان وارّان بعضه بالملك وبعضه بالصلح ساروا الى بلاد

الكرج

الهجم * ورفعة أقدار الدواة والقلم * حين عنسوها دون ذوى الاستحقاق * وختروها الا عن الكرام العتاق * لله در أنوشروان من رجل لما كان أعرفه بالدون والسفل نهاهم أن يعسوا بعده قلما وأن يذل بنوا الاحرار بالعمل فما كل نحيزة لها كفاءتفى مناكحة الآداب * وملاءة فى متاجرة الكتاب * ولا كل مسك يصلح للمسك وعاء * ولا كل ذرور يصلح للعين جلاء * وأضيع شئ عقد فى نحر خنزير * وحد بكف ضرير * وخطر بجنب قتير * ونفس على بنان فاجر شرير * هاان المذكور معيدى الاحرار بخراسان دناءة همة * وقماءة قيمة * وخساسة مفعول * وخصاصة معقول * نشأ فى بيت الفضل والنعمة * ونما على فرش اللين والنعمة * فرف عليه نعيم التشب * وعاق به نسيم الادب * فأصبح مخيلا لصوب

الكرج من هذه الاعمال ايضا وكان الكرج قد اعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كثيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا الترعنها فوصل اليهم الترفالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد ولقد بلغني انهم قتل منهم نحو ثلاثين الفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا اخرى وسيرهم الى الترأيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا الترقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فاخلوا البلاد ففعل الترفيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض اكابر الكرج وكان قدم رسولا انه قال من حسد تكم ان الترانهزموا واسروا فلا تصدقوه واذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا فان القوم لا يفرون ابدا ولقد اخذنا اسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة وضرب راسه بالحجر الى ان مات ولم يسلم نفسه للاسر

(ذكر وصولهم الى دربندشروان وما فعلوه)

لما عاد الترمن بلاد الكرج قصد وا دربندشروان فحصروا مدينة شماخى وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان الترتصعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم والقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فاشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فاشرفوا على ان يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه فالصبر أولى بنا نموت كراما فصبروا تلك الليلة فانتصف تلك الليلة وانهضمت فلم يبق للترعلى السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر اهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك الترالبلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربندشروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح فأرسل عشرة رجال من اعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان انتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الامان وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم

(ذكر ما فعلوه باللان وقبجاق)

لما عبر الترالدربند شروان سار وا فى تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفاروا وقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قبجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدى الطائفتين بالاخرى فأرسل الترالى قبجاق يقولون نحن وانتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم انا لا نعترض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقروا فارقهم قبجاق فأوقع الترباللان

الصواب فى افعاله * جديرا بحكم الانتجاب فى أمثاله *
يظن به وبعض الظن اثم ان * الفرع الى الاصل نازع *
والغيب للغيم مضارع * ولا علم يقضى بأن النار
تهفو على رمادما ثل * والخمر تطفو على عكر سافل *
حتى اذا أيفع وأينع * حلته نذالة الطباع *
وخبائة السنخ تحت يد * الطباع * على عقوق أبيه *
سعايته به الى السلطان فيما يحويه * وابقياعاله بأملاكه
واملاك ذويه * فامتلأ عليه قبل الاستحقاق ماله * وقصم
محاله وأحال حاله * وفجع به أمه وكانت عياله * واجره
دون ما اقتناه على كبر سنه * وضعف أساسه * واشتعال
المشيب براسه * ورسوب قذى العمر آخر كاسه *
فطفق يمرى الشؤن دموعا * ويقتضى أجل الكتاب
مخمصة وجوعا * ويزجى مطايا الاسحار بين برد
الياس * وحر الانفاس * بدعوات لم ترجع مجانيقها

بالليل فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول واخذوا منهم اضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيدا الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وابعدوا بعضهم اعتصم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي ارض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطامي والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان

(ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس)

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق اهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر ان قصدوهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليقاتلوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا انهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم فجدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثني عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من اعيان تجار الروس واغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا ان الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر فاخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

(ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم)

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغارا واخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من ولاعطوهم فبقوا في الوسط

واخذهم

الا بقاصمة الظهور * وحالقة الدين لا حالقة الشعور * وعطف بعد على من طلعت عليه شمس والده * ووقف عليه اغصان فوائده * فنجيهم نجب السلم * وقرضهم قرض الجلم * وعركهم عرك الادم * وقشرهم قشر القلم * فعادوا اعرى من الصخر معصورا * والسيف مشهورا * والغصن مخبوطا * والدجاج على السفود مربوطا * كل ذلك بين يديه * ونصب عينيه * حتى أضمرته الارض نديما للزفرات * كظيما بالحسرات * غريقا في العبرات * شرقا بماء الحياة * وعقد على مال خطته بكنج رستاق عقدا اشترى به آهلها وأخذ يطيبهم بما يريهم من سداد السيرة * ورعاية حق الجيرة * ذريعة الى استنكالهم واستئصالهم * دون حرائبهم وأموالهم * وسامح عدة من شيوخ تناثهم * ببعض ما لزمهم استمالة لهم على بؤساء معرورين

وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا الى سقسين عائدين الى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم الى بلادهم وكان الطريق منقطعا منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شئ من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا الى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الاصنعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

(ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند)

قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله الى خوارزمشاه وأما جنكزخان فانه بعد ان سير هذه الطائفة الى خوارزمشاه وبعد انهزام خوارزمشاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها الى ترمذ وسير قسما منها الى كلانة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد اولاده وسيره الى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان

(ذكر ملك التتر خراسان)

لما سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فامنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوى وقاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الى أهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة سنة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشئ فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين اسرى فامرهم بمباشرة القتال والاقتحام فقاتلوا معه واقام عليها اربعة اشهر اخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر ان يجمع له من الحطب والاخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي القلعة فاجتمع من بها وقصدوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع اهل البلاد التي اعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض اولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة

وضعفاء مضرورين وساموهم بعد الاحتكام عليهم في التراضي بزعامته * والتواصي بطاعته * عقد الوثائق عليهم بتصحيح مال من ضمانه بنكسر وجبران حق من عقده بخبير * حتى اذا استتب له ما أراد * واستوفى عليهم الحق وزاد * وضع عليهم يد الاستقصاء بعلة حاصل وباق وحاضر وآت وأخذ ما وجد من صامت وناطق وصاهل وناهق * حتى اذا أرب كل من ذي يديه * وباد غير اطلال الضياع والرباع عليه * رام استنزالهم عنها كراهية أو طواعيه * فمن اهتبل منهم فرصة الخلاص على التظلم عما دهاه * فأوهاه وعراه فعزاه * سبقه محضر العصبة القائمة بالافك في خفارة التوفير * وكفارة التزوير * فارتد على عقبيه

لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل الترالهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما الترفلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان الترير يقتلون فصدقوا وان قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر الترواقدامهم ولواانهزمين فقتل الترمنهم وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل الترالى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو وحصروها وجدوا في حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل الترالى الامير الذي بها متقدما على من فيها يقول له لاتهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أميرهذه البلدة ونرحل عنك فارسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى تنظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا الى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الاموال في جريدة واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى واعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج اهل البلد منه بأهليهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسي من ذهب وامر ان يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون واما العامة فانهم قسموا الرجال والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل واخذوا ارباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوباب في طلب الاموال فربما مات احدهم من شدة الضرب ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه ثم انهم احرقوا البلد واحرقوا تربة السلطان سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع امر بقتل اهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم اجمعين وامر باحصاء القتلى فكانوا المحوسبعمائة ألف قتيل فانا لله وانا اليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة ايام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامي فلم يكن لهم بالترقوة فملكوا المدينة واخرجوا اهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الاموال وكانوا لما قتلوا اهل مرو قيل لهم ان قتلاهم منهم كثير ونجوا الى بلاد الاسلام فأمروا باهل نيسابور ان تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل احد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا بها كذلك ايضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضى والرشيد حتى جعلوا الجميع خرابا ثم ساروا الى هراة وهي من احسن البلاد فحصروها عشرة ايام فملكوها وامنوا اهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عندهم من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فلقيهم جلال الدين ابن خوارزمشاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره ان شاء الله فوثب اهل هراة على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون اليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها واحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو

خزيان * قد سال به السيل وأسوان * طاف به الويل وناح عليه النهار والليل فاما ان يزول على كرب وقلق واما أن يؤل على غيظ وحنق * حتى استخلص الضاحية والضامنه واعتصر البادية والكامنه وغادر الضياع حشين وشرد عنها الزراع عزين وأخرس الثغاء والرغاء وأنطق الهام والاصداء وطمس المنابع والمشارع وحمى المراعي والمراتع * فلو ملك عصافير الهواء * وبعافير البيداء * لاستكرهها على طغوم القوانص * وحقوق الملاجئ والمفاحص * قد شصافاه للاطماع ولامداخل الكهوف * ومفاتح الولائج الجوف كالحوت لا يرويه شئ يلهمه يصبح ظمآن وفي البحر فيه وما به التخريب لولا اجتياح

بالطالقان يرسل السرايا الى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شئ من البلاد وكان جميع ما نعلوه بخراسان سنة سبع عشرة

(ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها)

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا ان القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كان يحميهم السور فارسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا فلم يقدروا على افراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم انهم فتحوا السكر الذي يمنع ما جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو واما اهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء وقتله الهدم فأصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها الا ان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

(ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور)

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من سلم من عساكر أبيه قيل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا الى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع ابن خوارزمشاه الى موضع يقال له بلق فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا الى جنكزخان يقول له في أي موضع تريد أن تكون الحرب حتى نأتي اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الى كابل فتوجه العسكر الاسلامي اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وخلصوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لاجل الغنيمة وسبب

المسالك بجوعه * واستطلال حرام الملك بربوعه * كأنما عقد على الدهر حلفا لا يخونه * واتخذ عنده عهدا يصونه * ويتحماه من دونه منونه * وهيهات انها مظالم حديدات الشفائر ومغارم ثقيلات الغرائر ومصايد طالما خفقت نفاخها وضربت عليها الشاه مات رخاخها * ومطاعم ظاهرها الاذى وباطنها السم وان من الربيع ما يقتل حبطا أو يلم * نعم وأقلم سوق الفسوق خاصة وعامه وأباح حمى الفجور بطانة وحامه * ملتزما سمة الشطاره ومستطرا بقية الخماره ومضاهيا ناموس المجوس في خبث الالحاد * وصلة الاخوات والاولاد * بلاغا نمته ثقات خدمه * وأدته على وجه الاكبار جيران حرمه * وربما أرادوا له

ذلك ان أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك الخلج كان شجاعا مقداما فاذا رأى في الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملتم منهم رعبا وهو الذي كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران في الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لاجل هذا السمت فغضب وفارق العسكر وسار الى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبيناهم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم من العسكر ولم يقدر على المقام فسار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان في التتر فاضطر المسلمون حينئذ الى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا في ذلك كالاشقر ان تأخر ينحر وان تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم ان كل ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال فاقتتلوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الامير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فابعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فارسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون ليقضي الله أمرا كان مفعولا فلما كان الغد عاد الكفار الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء الى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والحماة فقتلوا أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبق أحد وخربوها واحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك ونهبوا وقتلوا واحرقوا فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الانيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس

(ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازي)

وأواخر هذه السنة أقطع الملك الاشرف موسى بن العادل مدينة خلاط وجميع الاعمال الارمينية ومدينة ميافارقين من ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدين غازي بن العادل وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره الى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة وسبب ذلك ان الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها أرسلوا الى اوزبك صاحب اذربيجان واران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا الى الملك الاشرف في هذا المعنى وقالوا للجميع ان لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ودفعهم عن بلادنا وتحضروا بأنفسكم وعساكركم لهذا المهم والا صالحناهم عليكم فوصلت رسلهم الى الاشرف وهو يتجهز الى الديار المصرية لاجل الفرنج وكانوا عندهم أهم الوجوه لاسباب أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على ان تملك فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لاحد وثانيها ان الفرنج أشد شكيمة وطالبو ملك

في السر ملاما * وراموا من تحذيره حدودا لله وتخويفه عقاب الله مراما * فما زيدهم على ظاهرتين عاهرتين كحدق الجراد مالها أجفان تواريها * ولا أهداب تقيها تصلفا بركوب الآثام وتكلفا لحظور الحرام وانما أثبت لفظ التكلف قطعا على ما سمعته من بعض مشايخ الادب يحكي عن هذا أبا حاتم السجستاني عن قول رسول الله عليه السلام أبغض الناس الى الله شيخ زان وعائل متكبر وفقير فخور وزعم ان القياس يقتضي كون الشاب الشديد الفحلة القوي المنة أبغض اليه من الشيخ المضعوف والمعتصر المنزوف * فقال هو بناء على قوله عليه السلام أبغض الاشياء الى الله التكلف فأبغض الشيخ لان فعله تكلف * وتقدمه

فاذا ملكوا قرية لا يفارقونها الا بعد أن يجزوا عن حفظها يوما واحدا وثالثها ان الفرنج قد طمعوا فى كرسى مملكة البيت العادلى وهى مصر والتتر لم يصلوا اليها ولم يجاوزوا شيأ من بلادهم وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة فى الملك وما غرضهم الا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد الى آخر فلما أتاه رسل الكرج بما ذكرناه أجابهم يعتذر بالمسير الى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم انى قد أقطعت ولاية خلاط لاخى وسيرته اليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فتى احتجتم الى نصرته حضر لدفع التتر وسار هو الى مصر كما ذكرناه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل اعفر وفيها فى جمادى الاولى ملك الاشرف مدينة سنجار وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد اربل لقصد صاحبها فتردد الرسل بينهم فى الصلح فاصطلحوا فى شعبان وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمائة وفيها وصل التتار الى خلاطوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وسار واعنها فوصلوا الى همذان فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل فابقوا على أهلها وساروا الى اذربيجان فخربوا وحرقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا ما لم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا وفيها توفى نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الذى كان وزيرا الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد وفيها توفى صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجوينى شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل وردها رسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل وفيها عاد جمع بنى معروف الى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد سار وا الى الاجناو القطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه ان يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه الى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا

(ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى قتادة بن ادريس العلوى ثم الحسينى أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحى المدينة وكثر عسكره واستكثر من المماليك وخافه العرب فى تلك البلاد خوفا عظيما وكان فى أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين وحمى البلاد واحسن الى الحجاج واكرمهم وبقى كذلك مدة ثم انه بعد ذلك اساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج فى بعض السنين كما ذكرناه ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم فى العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه فى ملكه فلما سار حاج العراق كان الامير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقبال وكان حسن السيرة مع الحاج فى الطريق كثير الحماية فقصده راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه الى ذلك ووصلوا الى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم الى مكة مقاتلا لصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب

استكراه للطبع وهو تخلف كذلك هذا الخرف المتكلف والشره المتورد قد قضى شبيبته على اقتراف المحارم واختراف المآثم * حتى اذا وضح القتير * ورزح المسير وافحل المرير * وأفرغ ماءه الصبير * أبت عليه عادة السوء أن ترخيه من عقالها وتعريه عن سربالها * وتصميه عن وبالها * وتريه الاعلى شعب الاران يوم فصالها لا تتعودينا اخى عادة تحوى بها ضربا من الشين فعادة السوء اذا استحكمت شرّ على المرء من الدين هذا ولم يرض بالعقوق الذى وسمه * ووشمه وسخم وجهه وحممه * ورداه بالخزى وعممه حتى قطع على رؤس الاشهاد رحمه * وقتل فى الشائع المستفيض ولده وكان لهم

وغيرها فخرج اليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدى عسكره منفردا وصعد الجبل ادلالا بنفسه وانه لا يقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانهزم عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم فارسل اليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعادا أصحابه ولم ينهبوا منهم شيأ وسكن الناس وأذن لهم حسن فى دخول مكة وفعل ما يريد ونفه من الحج والبيع وغير ذلك وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا الى العراق سالمين وعظم الامر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب الى ذلك وقيل فى موت قتادة ان ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك ان قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فنزل بوادى الفرع وهو مريض وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدوا بلغ الحسن ان عمه قال لبعض الجند ان أخى مريض وهو ميت لا محالة وطلب منهم ان يحلفوا له ليكون هو الامير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عند عمه واجتمع اليه كثير من الاجناد والمماليك الذين لابيه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولا نمد أيدينا الى أحد كما فقال له غلامان لقتادة نحن عبيدك فمرنا بما شئت فأمرهما ان يجعلا عمامة عمه فى عنقه ففعلا ثم قتله فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ما ذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه الى الحسن يعرفه الحال ويقول له ابدأ بقتل ابنه قبل ان يقتلك فعاد الحسن الى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه فى نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيرا فأمرهم بالانصراف الى منازلهم فتفرقوا الدار وعادوا الى مساكنهم ودخل الحسن الى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ فى ذمه وتهديده فوثب اليه الحسن فخنقه لوقته وخرج الى الحرم الشريف وأحضر الاشراف وقال ان أبى قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لى أن أكون أنا اميركم فحلفوا له ثم انه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الامارة بمكة له ارسل الى أخيه الذى بقلعة ينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتم موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر امره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ما تقدم ذكره فارتكب عظيما قتل أباه وعمه وأخاه فى أيام يسيرة لاجرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى نزع ملكه وجعله طريدا شريدا خائفا يترقب وقيل ان قتادة كان يقول شعرا فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع فعوتب من بغداد فأجاب بأبيات شعر منها

ولى كف ضرغام أدل بطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الارض تلثم ظهرها * وفى وسطها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرغائم أبتغى * خلاصا لها انى اذا لرقيع
وما أنا الا المسك فى كل بلدة * يضوع واما عند كم فيضيع

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا وفيها فى صفر ملك التتر مدينة اغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها الى همذان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر

وقتلوا

ودمه * فلو كان كأحد أولاد السوقه * فى أخلاقه لهم بين الجنة والخلوقه لكنه الخمر بماء العهد والزبد بذوب الشهد * واللثم برشف الرضاب * والملك بشرخ الشباب * والأمن بطعم الوصال * والخلق بطيب الحلال * والعفو بنشر النوال والعيش بموت العذال وشمس الجنوب بروح الشمال * عشق الادب قبل أن عقدت عنه عمائمه وزينته دون الاحتضان روائمه * فجاء كالصرح هدى أوله النصل المطار * وحدا أسفله الريش الظهار وناهز عشرين من سنيه يرى الخليل فى جنب فضله خليلا * وسيبويه كليلا وعبد الحميد رديدا * وابن العميد عميدا * ان خط

وقتلوا منهم مالا يحصى ونهبوا البلد وساروا الى اذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا مابقى من البلاد ولم ينهبوه أولا ووصلوا الى بيلقان من بلاد اران فحصروها وملكوا وقتلوا أهلها حتى كادوا يفنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم واكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى وملكوها وقتلوا كثيرا من اهلها وساروا الى بلاد اللان واللكز ومن عندهم من الامم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق واجلوهم عنها واستولوا عليها وساحوا فى تلك الارض حتى وصلوا الى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى وانما اوردناه ههنا جملة ليعلم الذى كان فى هذه السنة من حوادثهم وفيها توفى صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلى ولم يكن فى زمانه من يكتب مايقاربه ولا من يؤذى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمة من علم الادب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا فى الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ولهم فيه اقوال كثيرة نظما ونثرا فمن ذلك ماقاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة يمدحه بها

جامع شارد العلوم ولولا * ه لكانت ام الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف سطوته الاسـ * ـد وتعنو له الكتائب ذلا
واذا افتر ثغره عن سواد * فى بياض فالبيض والسمر تخلى
انت بدر والكاتب بن هلال * كأبيه لا تخترفيمن تولى

ومنها

ان يكن أولا فانك بالتفـ * ـضيل اولى لقد سبقت وصلى

وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من ان يعرف وفيها توفى جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب ألموت وكردكوه وهو مقدم الاسماعيلية وقد ذكرنا انه كان قد أظهر شريعة الاسلام من الاذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد

(ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة)

(ذكر خروج طائفة من قفجاق الى اذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم)

لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق فطائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت فى جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وساروا الى دربند شروان واوصلوا الى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له ان التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم فى بلادك ونحن عمالیك لك ونفتح البلاد لك وأنت سلطاننا فمنعهم من ذلك وخافهم فأعادوا الرسالة اليه انا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك فلم يجبهم الى ماطلبوا فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فاذا اشتروا مايحتاجون اليه فارقوا بلاده فأجابهم الى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون مايريدون ويخرجون ثم ان بعض كبرائهم والمقدمين منهم جاء الى رشيد وقال انى كنت فى خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم والدين يحملنى على نصحك اعلم ان قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فأعطنى عسكرا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم اليه طائفة

فنقش العبد * على ايدى الكواعب الغيد * وان لفظ نحو الدر منظومه واقاحى البطاح مرهومه ولولا أن اياه احتبطه دون مداه تخلف من آثار بنانه وخلد من أنوار ابداعه واحسانه * مايفضح ماء الورد فى تصعيده * وعصير الخمر من عناقيده * لكنه لم يغن الاقدر ما لحته العيون حتى اختطفته المنون * فقامت نواعى المجد يندبه جميعا ويبكينه نجيعا * فظللت من بينهم صريعا * أنشدهم والله القلب وجيعا قد كان لى فى رأيه وذكائه أشراط صدق أن يموت سريعا ولقد ضمنى واياه مجلس لبعض أركان الدولة اليمينية فاتفقنا ثانى اثنين من بين الحضور فى تنافث الهموم

من عسكره واعطاهم مايحتاجون اليه من سلاح وغيره فسار وامعه فأوقعوا بطائفة من قفجاق
فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتعرّلك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه
رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجاقي ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم
ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم فسار وا ثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقي لرشيد أريد عسكرا اتبعهم
فأمر له من العسكر بما أراد فسار يقفو أثر القفجاق فأوقع بأواخرهم وغنم منهم وقصده جمع
كثير من قفجاق من الرجال والنساء يكون وقد جزواشعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به
يبكون حوله وقالوا له ان صديقك فلانا قد مات وقد أوصى ان نحمله اليك فتدفنه في أي موضع
شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضا وعاد الى شروان شاه رشيد وأعلمه
ان الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله ان يكونوا عنده في خدمته فأمر ان يدخلوا
البلد وانزلهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون
معه الى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معه هم ونساؤهم فأحب رشيد امرأة
ذلك الرجل الذي قيل له انه ميت ولم يكن مات وانما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذي
أظهروا موته معهم في المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمي قفجاق فبقوا كذلك عدة
أيام فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد
وملك بلاده فقطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى الى شروان وملك قفجاق
القلعة وقالوا لاهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقي أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح
الذي في البلد جميعه واستولوا على الاموال التي كانت لرشيد في القلعة ورحلوا عن القلعة
وقصدوا قبلة وهي للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمنازلتهم القلعة رجع اليها
وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فارسلوا طائفة منهم
الى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر الى القفجاق فعادوا الى دربند فلم يكن لهم في القلعة
طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل اليهم وقال لهم أنا أرسل الى ملك الكرج
حتى يرسل اليكم الخلع والاموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته
أياما ثم انهم مدّوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا الى قريب كنجة من
بلاد اران وهي للمسلمين فنزلوا هناك فأرسل اليهم الامير بكنجة وهو مملوك لاوزبك صاحب
اذربيجان اسمه كوشخرة عسكرا فمنعهم من الوصول الى بلاده وسير رسولا اليهم يقول لهم
غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعته وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده فما يليق بكم أحد
فأجابوا انا ما جئنا الا قصدا لخدمة سلطانكم فمنعنا شروان شاه عنكم فلهذا قصدنا بلاده
وأخذنا قلعته ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبلة فهو عدو لكم ولو أردنا ان نكون
عند الكرج لما كان جعلنا طريقنا على دربند شروان فانه اصعب وأشق وابعد وكنا جئنا الى
بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن اليكم فلما سمع هذا سار اليهم فسمع به قفجاق فركب
اميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير وجاؤا اليه ولقوه وخدموه وقالوا له قد أتينا لك بجريدة
في قلة من العدد لتعلم انا ما قصدنا الا الوفاء والخدمة لسلطانكم فأمرهم كوشخرة بالرحيل
والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل الى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم فأمر لهم

وتذاكر العلوم * وتناشد
أبيات الكرم واللوم * فما
كان الا أن حمي المجلس بنار
وعقر الشرب بعقاره * حتى
انحل عنه عقال اختياره
وانفضحت له أقفال أسراره
فغرق في بحر الدموع عينه
وألقى الى مادار بين أبيه
وبينه * يقترح ما نشأ عليه من
خدمة الادب * والاستغناء
بعصام النفس عن عظام
النسب * على طاعة من ولد
في حجره * والبروز على حكم
أمره وزجره * وانه حين
ملك أمره * وعرف من خلة
خبره * وانفرد بتدبير معاشه
وتوفير نعمته ورياشه * ناهض
بأمله معونة أبيه ببعض
ما يستحقه بررة الابناء على
الآباء فلم يزده على أن زاحمه
في ارثه عن أمه

بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوهم فوصل الخبر بذلك الى كوشخرة أمير كنجة فاخبر قبجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من أمراء قبجاق في جمع منهم الى الكرج فكبسهم وقتل كثيرا منهم وهزمهم وغنم ما معهم واكثر القتل فيهم والاسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قبجاق الى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الامير الآخر من أمراء قبجاق ان يؤثر في الكرج مثل ما فعل صاحبه فجمع كوشخرة فارسل اليه ينهاه عن الحركة الى ان يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار الى بلادهم في طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة فوضعوا السيف فيهم واكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة وارسلوا الى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج فيأخذوا بثارهم منهم فلم يفعل وأخافهم وقال انتم خالفتموني وعملتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فارسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم فاجتمعوا وأخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل البلاد وقاتلوهم فقتلوا منهم جماعة كثيرة فخافوا وساروا نحو شروان وجازوا الى بلد اللكز فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم فافنوهم قتلا ونهبا وأسرا وسبيا بحيث ان المملوك منهم كان يباع في دربند شروان بالثمن البخس

(ذكر ذهاب الكرج ببلقان)

في هذه السنة في شهر رمضان سار الكرج من بلادهم الى بلاد اران وقصدوا مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر الى بلاد قبجاق عاد من سلم من اهلها اليها وعمروا ما امكنهم عمارته من سورها فبينما هم كذلك اذ أتاهم الكرج ودخلوا البلد وملكوه وكان المسلمون في تلك البلاد ألفوا من الكرج انهم اذا ظفروا ببلد صانعوهم بشيء من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن الاعداء مقدرة فلما كان هذه الدفعة ظن المسلمون انهم يفعلون مثل ما تقدم فلم يبالغوا في الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر هذا جميعه يجري وصاحب بلاد اذربيجان اوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك في صلاح ولا يتجه منه خير بل قد قنع بالاكل والادمان الشرب والفساد فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمد وآله

(ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش)

في هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من أعمال الحميدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك انها كانت هي وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكي ابن اورسلانشاه وكان بينهما من الخلاف ما تقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكي الى اذربيجان ليخدم صاحبها اوزبك بن البهلوان فاتصل به وصار معه واقطعه اقطاعات وأقام عنده فسار بدر الدين الى قلعة شوش فحاصرها وضيق عليها وهي على رأس جبل عال فطال

وحال بينه وبين ما كتب الله له من حقه مطاوعة لرقيق اعتقده * فذاق عسيلته * وأذاقه ذيلته * فخلاه وتهما ترتيب دانيته وقاصيته وولاه تدبير حاشيته وغاشيته * وحكمه في عرض ولده * وسائر ما ملكت يده * فاجر ذلك الفاضل دون نعمته * وأقعده دون الاستمتاع بلمته * وجعل كل من يعتزى اليه منقوما ومقدوعا * ومن يعتريه ملطوما وموقوعا * حتى اضطره صراخ الباس والداح الافلاس * الى قصد شمس الكفاة لاستماحته * واقتباع ندى راحته * فحين علم أبوه المعتوه تخييبه على شاطئ الاقبال * واستقلاله على مواطئ الآمال * ندب الفكر لاغتياله * أو سهر الليل لاقتناصه باحدى حبائله وحباله * فدس اليه على ماشاع وذاع * وشحن

مقامه عليها لحصانتها فعاد الى الموصل وترك عسكره محاصرا لها فلما طال الامر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلموها على قاعدة استقرت بينهم من اقطاع وخلع وغير ذلك فتسلمها نوابه في التاريخ ورتبوا امورها وعادوا الى الموصل

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في العشرين من شعبان ظهر كوكب في السماء في الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقي كذلك عشرة أيام ثم انه ظهر أول الليل في الغرب مما يلي الشمال فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضا ثم صار غربا مائلا الى الجنوب بعدان كان غربا مما يلي الشمال فبقي كذلك الى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب وفيها توفي ناصر الدين محمود بن محمد قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وآمد وكان ظالما قبيح السيرة في رعيته قيل انه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في ان الاجساد لا تحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك ابنه الملك المسعود

(ثم دخلت سنة عشرين وستمائة)

(ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى)

في هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة وصاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن ادريس العلوي الحسيني قد ملكها بعد أبيه كما ذكرناه وكان حسن قد أساء الى الاشراف والمماليك الذين كانوا لابيه وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير اخواله من غيره فوصل صاحب اليمن الى مكة ونهبها عسكره الى العصر فحدثني بعض المجاورين المتأهلين انهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون اليه فلم يروا فيه شيأ فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سرا وانه لم يجعل في التابوت شيأ وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لاجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

(ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية)

في هذه السنة في شعبان سار صاحب قلعة سرماري وهي من اعمال ارمينية الى خلاط لانه كان في طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب فحضر عنده واستخلف ببلده أميرا من أمرائه فجمع هذا الامير جمعا وسار الى بلاد الكرج فنهب منها عدة قرى وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوة وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار الى سرماري فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرماري الخبر فعاد الى سرماري فوصل اليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها فأخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم ان صاحب دوين جمع عسكره وسار الى سرماري ليحصرها فوصل الخبر الى صاحبها بذلك فحصنها وجمع الذخائر وما يحتاج اليه فأتاه من أخبره ان الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرماري وهو واد ضيق فسار بجميع عسكره بريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل الى الوادي الذي هم فيه وقت السحر

المسامع والبقاع * من ذعف له نقيعا * غادره على فراش المنون صريعا * وانتقل غير بعيد الى جوار ربه ودار كرامته * مشبكا يديه فوق هامته * ومستصرخا ولي العدل ومالك الخلق على ظلامته * ومحتصما حول العرش الى يوم قيامته * وحدث عن قهرمان بيته وقد عاد الى أبيه السفيه بما كان استفضله عن رواتب نفقاته * واقتطعه دون عوارض حاجاته * استظهارا على حوادث النوب * أو استنفادا على معالي الرتب * أنه وآخر من رفقائه أنفقا من جملة المال قدر ما قطعا به المسافة اليه * ووضعاه في اكياسه يختمونها بين يديه * فكان جزاؤهما منه ان وضع الدهق عليهما * حتى استغرق ملكيهما * وانتزف صليب العظام ثم

فقرق عسكره فرقتين فرقة من أعلى الوادى وفرقة من أسفله وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان فى جملة الاسرى شلوة أمير دوين فى جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد الى بلدهم على حال سيئة ثم ان ملك الكرج أرسل الى الملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذى أعطى خلاط واعمالها الامير شهاب الدين يقول له كنا نظن انا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرمارى هذا العمل فان كنا على الصلح فنريد اطلاق أصحابنا من الاسر وان كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا فارسل الاشرف الى صاحب سرمارى يأمره باطلاق الاسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الاسرى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة انهزم ايغان طائسى وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى واصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك ان خاله ايغان طائسى كان معه وفى خدمته وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين الا عن رأيه والحكم اليه فى جميع المملكة فلما عظم شأنه حدثته نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه قيل ان الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أو زبك وصار فى البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف اليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه ايلك الشامى كانا متفقين على العصيان فقوى بهما وسارا بجميعهم الى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحى

(٣) واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وعاد المنهزمون الى اذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين فى بلاده وثبت قدمه

(حادثة غريبة لم يوجد مثلها)

كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك اليها قولايته وقامت بالامر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الامر وكان صاحب ارزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان بن مسعود قلج ارسلان وبيته مشهور من أكابر ملوك الاسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فارسل الى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من اجابته وقالوا لا نفعل هذا لانا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم ان ابنى يتنصر ويتزوجها فأجابوه الى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل اليها وأقام عندها الكرج حاكما فى بلادهم واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم انه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها فى فراش فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت ان رضيت بهذا والا

قصدهما فى روحها اشفاقا على صورة الحال * ومستورة المآل * من هتكة الاذاعة * وفضيحة الكشف والاشاعة * لولا انه اعتصم بالاستنار دون صاحبه مرعدا بما قصاماه * ومبرقا باستبرازما واراه * ولم يرض بالارث وقد حازه دون مستحقيه * من قرابته وذويه * حتى قطع سياط المطالبة على وكلائه ومواليه * وهلم جرا الى شقيقة له معجزة فى الحجاب * معنتة دون الخطاب * خلافا على الله فى حكمه * واجتراء عليه فى فرض الاسلام وحقه * واستحقاقا لواغ الالسن فى دينه المجروح * وعرضه المفضوح * وعقده المحلول * وسره المجهون بالفلول * فعراهم ذكرا ناوانا ثاعما البسوه من بال وجديد * وطارف وتليد * اعتلالا عليهم

(٣) بياض بأصله

فأنت أخبر فقال انى لا أرضى بهذا فنقلته الى بلد آخر ووكلت به من يمنعه من الحركة وحجرت عليه وأرسلت الى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما فبقى معها يسيرا ثم انها فارقته وأحضرت انسانا آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه ان يتنصر ليتزوجها فلم يفعل فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الامراء ومعهم ابوانى وهو متقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم وهذا لا يمكن منه أبدا والامر بينهم متردد والرجل الكنجى عندهم لم يجبهم الى الدخول فى النصرانية وهى تهواه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كان الجراد فى أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها وفيها فى رمضان توفى عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعى الدمشقى بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله وفيها تجمع العرب فى خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الامير على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فمنعهم بالرغبة والرهبة ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم ويرجع الى دين متين

(ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة)

(ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما)

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر أولا فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما والحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبوا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا الى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى اذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وارسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون ان كنت موافقنا فسلم الينا من عندك من الخوارزمية والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الاسرى والرؤس الى التتر وأنفذ معها من الاموال والثياب والدواب شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليس فى كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للاسلام

والمسلمين

بقايا أخرجه للمتوفى على ضياعه وهى تحت استغلاله * وفى ضمان من زراعيه وعماله * ولم يستبق أحدا من جملة الداخلين كانوا عليه رحمه الله لتسلمه * غير موسوم بجريمة * ومكدوم بهضيمة * ومنقوض عن ذخيرة وكريمة * ومغلوب على ماحواه من تبعة وتيمة * فزارته المقصورة المهجورة * تشكو اليه بلابلها خضوعا * وتمرى عليه مكاحلها دموعا * ضيقا بما دهاها من اضاقه * وأقعدها على مس التسبيب من فاقه * وتسأله سؤال المضطر أن يملك عليها ماملكته من أخيها ارثا * ويحوى ماحوته عتقا وحدثا * مصانعة له دون ما أطلقه عليها من أيدى الجنود * وأخياف الترك والهنود * فهو فى وجوهها ضجرا بما تشوفته من نظره وقلقا لما خصفته عليها من

والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقدموا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

(ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس)

قد ذكرنا ان غياث الدين بن خوارزمشاه محمد كان بالري وله معها اصفهان وهمذان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع باصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا الى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمر ما أمكنه منها وأقام بها الى أواخر سنة عشرين وستمائة وجرى له ما ذكرناه في آخر سنة عشرين سار الى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا الا وقد وصل غياث الدين الى أطراف بلاده فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتمى بها وسار غياث الدين الى مدينة شيراز وهي كرسي مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير قتال أول سنة احدى وعشرين وستمائة وبقي غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين الا الحصون المنيعة فلما طال الامر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقي وأقام غياث الدين بشيراز وازداد اقامة وعزما على ذلك لما سمع ان التتر قد عادوا الى الري والبلاد التي له وخربوها

(ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه)

كان الملك الاشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع اعمال ارمينية وأضاف اليها ميافارقين وحاني وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها وحلف له جميع النواب والعساكر في البلاد فلما سلم اليه ارمينية سار اليها كما ذكرناه وأقام بها الى آخر سنة عشرين وستمائة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الاشرف والتجني عليه والعصيان والخروج عن طاعته فراسله الاشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل فلم يرعو ولا تزلزل عما هو عليه بل أصر على ذلك واتفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل على الخلاف للاشرف والاجتماع على محاربته وأظهروا ذلك وعلم الاشرف فارسل الى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدة فجهز العساكر وارسل الى أخيه صاحب دمشق يقول له ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته وكان قد سار بحو ديار الجزيرة للميعاد الذي بينهم فلما وصلت اليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد الى دمشق وأما صاحب اربل فانه جمع العساكر وسار الى الموصل فكان منه ما نذكره ان شاء الله وأما الاشرف فانه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار الى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازي ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره في البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب اربل الى ما يجاوره من الموصل ونصيبين وأن يسير أخوه صاحب دمشق الى بلاد الاشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الاشرف حينئذ الى العود عن خلاط فسار الاشرف اليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازي فلما حصرها سلمها أهلها اليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وبقي غازي في القلعة ممتنعا فلما جنه الليل نزل

ورف الصيانة عن شجره * وجعل يرميها في جواب التلطف والتألف بأحد من مؤللة القراع * وأشد من ململة القلاع * فعل من لا تكفه حرمه * ولا تكنفه رحمه * ولا ترف عليه رافه * ولا تخف اليه في ذات الله مخافه * ولا يثنيه عن وجوه الناس حياء في درة تذال * وعورة تنالها الايدي العوال * فلما آيسها الاعراض * أدبرها الامتعاض * وآلت حلفة مصبورة ان لم يثنه عما يقصد بمثله والذات خدر * وكريمة وراء ستر * لتهتكن الحجاب * ولتطرحن الجلباب * وتحتين على قرونها التراب * منطلقة الى حضرة السلطان في ايضاح ما وارته الجدر منه * وطرحته المجاملة عنه وكتمته ضمائر الاشفاق فيه وطمسته ذيول الهوادة دونه فقال المجنون لاخيه

الى أخيه معتذرا ومتنصلا فعاتبه الاشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين

(ذكر حصار صاحب اربل الموصل)

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب اربل وشهاب الدين غازى صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الاشرف فأما صاحب دمشق فانه سار عنهما مرحلا يسيرة وعاد اليها الان أخاه صاحب مصر أرسل اليه يتهدده ان سار عن دمشق انه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازى فانه استحصر فى خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب اربل فانه جمع عسكره وسار الى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظنا منه ان الملك الاشرف اذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازى فى طلبه فتنخبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على المجئ اليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم امورها من استخدام الجند على الاسوار واظهار آلة الحصار واخراج الذخائر وانما قوى طمع صاحب اربل على حصر الموصل لان أكثر عسكرها كان قد سار الى الملك الاشرف الى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديدا فى البلاد جميعها والسعر فى الموصل كل ثلاث مكاكى بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله انه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير ووصل اليه خبر الملك الاشرف انه ملك خلاط فانفسح عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقى وحده متلبسا بالامر فلما وصلت الاخبار اليه بذلك سقط فى يده ورأى انه قد أخطأ الصواب فرحل عائدا الى بلاده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها انما كان فى بعض الاوقات يجئ بعض التركمان الذين له يقاتلون البلد فيخرج اليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة فيجرى بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة الى صاحبها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والحربية وكذلك بالمحول بحيث ان الناس كانوا يخوضون فى الماء والوحل بالمحول وفيها سار صاحب المخزن الى بعقوبا فى ذى القعدة فعسف أهلها فنقل اليه عن انسان منها انه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبنى فقال له أنتم تسبون أبا بكر وعمر لاجل أخذهما فدك وهى عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون منى ألف نخلة ولا أتكلم فعفا عنه وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنية والشيعة على جارى عادتهم وفيها قلت الامطار فى البلاد فلم يجئ منها شئ الى سباط ثم انها كانت تجئ فى الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرى للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن فى الارض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها الا القليل وكان كثيرا خارجا عن الحد فغلت الاسعار فى العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الاقوات الا ان أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة

(ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة)

*(ذكر

وهو معه فى ناديه * اغلق على هذه القعبة الورهاء
فقد أبطرتها الفضول * وأنطقتها الة الاحتمال فما
تدرى ما تقول * هذه والله حجة الابطال فى حماية
الذمار * ورعاية حقوق الجار الابكار * ورحم الله
أبا الفتح البستى حيث يقول
لى جار فيه حيره
عرسه تلعن أبره
خلق الله اله السخ
لق للغيرة غيره

ولما فرغ هذا الفاضل من هلاك ولده * ووراثة ما كان تحت يده * واعتصار المطلومة عن بلالة حالها * وعلالة مالها * ندب أخاها وهو هجرة أولاده * ومن يرجوه مثله لمعاشه ومعاده * للتقبل بما ملأت ناحيته احتيالا عليه فى الحاقه بأخيه * واقتطاعه دون كفاف يتصرف فيه * فتلطف واعتذره واعترف بالعجز

(ذكر حصر الكرج مدينة كنجة)

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها الى مدينة كنجة من بلاد ارّان فحصروها واعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لان أهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج فلما وصلوا اليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من اهلها أحد ثم في بعض الايام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا انهم لا طاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد ان أثخن أهل كنجة فيهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا

(ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق)

في أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش الى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لانه كان وصل اليها لما قصد التتر غزنة وقد ذكرنا ذلك جميعه فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل الى اصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها الى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه فأعاد ما كان أخوه أخذه منها الى أتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده الى خوزستان فحصر مدينة تستر في المحرم وبها الامير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله حافظا لها وأميرا عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجه السبع وبالغ في الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم الى ناحية البصرة فنهبوا هنالك فسار اليهم شحنة البصرة وهو الامير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار الى أن وصل الى بعقوبا وهي قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر الى بغداد تجهز والحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسي والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة الى بغداد وأما عساكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها وكان قد وصل هو وعسكره الى خوزستان في ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب والذي معهم فهو من الضعف الى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا واكثروا من أخذ الخيل والبغال فانهم كانوا في غاية الحاجة اليها وسار من بعقوبا الى دقوقا فحصرها فصعد أهلها الى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فعظم ذلك عنده وشق عليه وجد في قتالهم فقصها عنوة وقهرا ونهبها عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد ولما كان الخوارزمية على دقوقا سارت سرية منهم الى البيت والراذان فهرب أهلها الى تكريت فتبعهم الخوارزمية فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا الى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشيء يسير من المال فسير ما سلم معه الى الشام مع الولدين لينجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على

ما قدر * حتى اذا اعياه التلطف * ولم يقنعه الا التصرف * مدرقبته لريقة التقليد * وكبر سنه على طارف الملك والتليد فزال بحي كل ولود ونزور * ويمرى كل بكي وثرور * حتى نضب المال الا قليلا * وعصب ريقه الا بليلا * فطفق يعسره بعجزه وتضييعه * ويكته على خرقه وتضييعه * فأمر المحاسبين بحسابه فجمع عليه ما لم يثبته سمع ولا بصر * ولا ينبته نجم ولا شجر * ولم يطلع عليه شمس ولا قمر * وسبب عليه لا علاج الهنود * وغلاظ كفارهم السود * مالا أوهى متن طاقته * وأتى من وراء فاقته * وحرشهم على اينه بتطميع في عاجل موزون * وترغيب في آجل مضمون * حتى أوهنوه شدا وايثاقا وأثخنوه ضربا وارهاقا ووضعوا عليه في بعض

مامعهم فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لايعلمها الا الله يقول أخذت الاملاك وقتل بعض الاهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير أردنا نكتفي به وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار الى دمشق ليأخذ ماسلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد الى الموصل فلم يبق غير شهر حتى توفي * ان الشقي بكل حبل يخنق * وأما جلال الدين فانه لما فعل بأهل دقوقا مافعل خافه أهل البوازيج وهي لصاحب الموصل فارسلوا اليه يطلبون منه ارسال شحنة اليهم يحميهم وبذلوا له شيأ من المال فأجابهم الى ذلك وسير اليهم من يحميهم قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين في بعض حروبه مع التتر فأكرمه فحماهم وأقام بمكانه الى أواخر بيع الآخر والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب اربل فاصطلحوا فسار جلال الدين الى اذربيجان وفي مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فنال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهم شيء البتة

(ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك)

في هذه السنة في صفر توفي الملك الافضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بغتة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه وانتقل الى سميساط وأقام بها ولم يزل بها الى الآن فتوفي بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن في الملوك مثله كان خيرا عادلا فاضلا حليما كريما قل ان عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ماتفرق في كثير من الملوك لاجرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر ومات بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضي عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة فمما بقي على خاطري منها انه كتب الى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتابا من فصوله وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك اني أي صديق سألت عنه ففي الذل وتحت الخمول والوطن وأي ضد سألت عن حاله سمعت مالا تحبه أذني فتركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة في الاعتذار عن ترك السؤال عنهم ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى ولم يقو أحد منهم على الباقين ليستبد بالامر ومات في هذه السنة صاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان وهو الذي سير ولده الى الكرج وتنصر وتزوج ملكة الكرج ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك ارزنكان وتوفي فيها عز الدين الخضر بن ابراهيم بن أبي بكر بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين ارتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن

(ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج)

في هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب

لما لم يبق منه غير ناقر الطائر * حتى اذا علموا انه مظلوم وان الاضعاء عليه في دينهم المدخول وشركهم المخذول * قزم ولؤم فنفضوا أيديهم عنه لاعين أباه * ومن أرضعه ورباه * وأطعمه بعد الله وسقاه * وما ظن الافاضل الكرام بمن يوفي رحمة الكافر الفاجر على قساوته * وطبع قلبه وغشاوته * وبمن يزعم انه والد يحنو على ولده * ويعتده فلذة من كبده * وبضعة من روحه وجسده * كل ذلك طمعا في استزادة مال * واستضافة حال * فصار اها الى تمزق وزوال * فلا رحم الله كل جاف العقيده * خافي المكيده * قاسي الفؤاده * حامي

دلك

ذلك ان شروان شاه كان شيئ السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض الى أموال الرعايا وأملاكهم وقيل أيضا انه كان يتعرض الى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الابن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية وأرسل الولد الى أبيه يقول له انى أردت أن أتركك فى بعض القلاع وأجرى لك الجرايات الكثيرة ولكل من تحب ان يكون عندك والذى حملنى على ما فعلت معك سوء سيرتك وظلمك لاهل البلاد وكراهيتهم لك ولد ولتك فلما رأى الاب ذلك سار الى الكرج واستنصرهم وقرر معهم ان يرسلوا معه عسكرا يعيدونه الى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسيروا معه عسكرا كثيرا فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال ان الكرج متى حصرونا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقى أبى على أحد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم اتانا سير اليهم جريدة ونلقاهم فان ظفرنا بهم فالحمد لله وان ظفروا بنا فالحصن بين أيدينا فأجابوه الى ذلك فخرج فى عسكره وهم قليل نحو ألف فارس والقوا الكرج وهم فى ثلاثة آلاف مقاتل فاتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهزم الكرج فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوأ حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدمو الكرج انا لم نلق بسببك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا فغادرهم وبقى متردد لا يأوى الى أحد واستقر ولده فى الملك وأحسن الى البلد والرعية وأعاد الى الناس أملاكهم ومصادراتهم فاغتبطوا بولايته

(ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا)

وفى هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون اذربيجان والبلاد التى بيد أوزبك فنزلوا وراء مضيق فى الجبال لا يسلك الا الفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وانه لا طريق اليهم وركب طائفة من العساكر الاسلامية وقصدوا الكرج فوصلوا الى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج الا وقد غشيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا وولى الباقون منهزمين لا يلوى والد على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الامر عليهم وعزموا على الاخذ بثارهم والجد فى قصد اذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم فبينما هم فى ذلك اذ وصل اليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى مراغة على ما نذكره ان شاء الله فتركوا ذلك وارسلوا الى أوزبك صاحب اذربيجان يدعونه الى الموافقة على رد جلال الدين وخوفوه منه ان لم نتفق نحن وأنت والا أخذك ثم أخذنا فعاجلهم جلال الدين قبل اتفاقهم واجتماعهم فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك جلال الدين اذربيجان)

فى هذه السنة استولى جلال الدين على اذربيجان وسبب ذلك انه لما سار من دقوقا كما ذكرناه قصد مراغة فملكها وأقام بها وشرع فى عمارة البلد فاستحسنه فلما وصل اليها أتاه الخبر ان الامير ايغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين وكان ايغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس وذهب كثيرا من

دماء الاولاد * ان للآباء فروضا على الابناء * وللابناء حقوقا على الآباء * فان لم يكن من فرض الوالد أن لا يقتص منه ان قتل ولده * وقطع يده يده * فمن حق الولد أن يطاع الله فى صلة رحمه * وتقوى الاقدام على روحه ودمه * نعم ولما أن خف عن البائس كربه * وانجلى عنه وصبه * أسرى الى جانب الامير أرسلان الجاذب فتى السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * فى زحفة السهو المارق * والرجم المقذوف على المارد السارق * متقيا به عارض البأس * ومستبقيا روحا معلقة بخيط اليأس * فآواه وقبله ونشر عليه جناحه رحمة له وكتب الى أركان الدولة فى بابه بما أطل عليه سعاية أبيه * وغل دونه نكاية قصده وتجنيه * وحاذر الفاسق المارق افتضاحه

من فى البلد وعن غيرهما من المقدمين انهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين واعادة البلد الى اوزبك وقالوا ان جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع اوزبك والكرج ويقصدونه فينحل نظام امره وتتم عليه الهزيمة فبنوا امرهم على ان جلال الدين يسير الهوينا الى بلاد الكرج ويتريث فى الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر الى الوزير فارسل الى جلال الدين يعرفه الحال فاتاه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر من ذلك شيأ وسار نحو الكرج مجدا فلقيهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لامراء عسكره انى قد بلغنى من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم فى البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب ما أمكنكم من بلادهم فانى خفت ان اعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف فاقاموا على حالهم وعاد هو الى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائى وغيرهما فاما الرئيس فامر ان يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس بذلك ثم قتله وأما الباقون فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل وانما صح له نكاحها لانه ثبت عن أوزبك انه حلف بطلاقها انه لا يقتل مملوكا له اسمه ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام بتبريز مدة وسير منها جيشا الى مدينة كنجة فملكوها وفارقها اوزبك الى قلعة كنجة فتحصن فيها فبلغنى ان عساكر جلال الدين تعرضوا الى أعمال هذه القلعة بالنهب والاخذ فارسل أوزبك الى جلال الدين يشكو ويقول كنت لا أرضى بهذا الحال لبعض أصحابى فانا أسأل ان تكف الايدى المتطرقة الى هذه الاعمال عنها فارسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه وغيرهم

(ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله)

فى هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضى بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة وانما كان ولى عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولى عهد المعتمد على الله وكان المتوكل على الله ابن المعتصم بالله أبى اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله أبى جعفر العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم

نسب كان عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

فكان فى آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقون غير خلفاء وكان فيهم من ولى العهد محمد بن القاسم والموفق بن المتوكل وأما باقى الخلفاء من بنى العباس فلم يكونوا من آبائه فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولى قبله وكان موسى أخا الرشيد ولى قبله وكان محمد الامين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد اخوى المعتصم وليا قبله وكان محمد المنتصر بن المتوكل

النهار الجاشر * مقرطة بصحائح الاقوال * مشنفة بفضائح الافعال * فلولا كرم غذى بلبانه * وحجن على مسكه وبانه * لرجمه رجم العفريت * وضربه بالنقط والكبريت * لكنه رأى أن يضم عليه طرفى بساطه * ويستبقى مختوم سره بين خرزه ورباطه * تقديما لشفاعة المشيب * وتفويضا الى ماوراءه من الاجل القريب * واقناعا ان سمع أو نظر * وروى واخبر * بما تناهبه الآفاق من ذكر شيخ معاييه احداث * واثوه مكتسب وفضله ميراث * ولما تسامع اهل عمله بمباركه من ريعه * وظهر من رغوة صريحه * تبادروا الى مفصل الظلامات صارخين كانفاق فى الجوبات الاعداد * وجهور فى الشعب جميع البلاد * واختلفوا فى المظالم فمن قائل هتكت

ولى بعده ثم ولى بعده المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وولى بعده المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولى بعد المعتز المهتدى بالله محمد بن الواثق ثم ولى بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد اخوة الموفق والمهتدى ابن عمه والموفق من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى المعتضد بعد المعتمد وولى بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله وهو أخو المقتدر بالله وولى بعد المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وولى بعد القاهر الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولى بعده المقتفى لله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر ثم ولى بعده المكتفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد ثم ولى بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضى والمقتفى والمطيع بنوه والمستكفى ابن أخيه المكتفى ثم ولى الطائع لله بن المقتدر ثم ولى بعد الطائع القادر بالله وهو من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى بعده المستظهر بالله ثم ولى بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور وولى بعد المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر فالمسترشد أخو المقتفى والراشد ابن أخيه فجميع من ولى الخلافة ممن ليس فى سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة وكانت أم الناصر أم ولد تركية اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه الا ماقيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فانه ولى ستين سنة ولا اعتبار به فانه ولى وله سبع سنين فلا تصح ولايته وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفى آخر الامر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق فى طول مرضه شيأ كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما لمن قرب فى ايامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشئ وضده فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد بجمعها الامن يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره الا مايؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الامن ينتمى اليه فاجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك الا انسانا واحدا يقال له ابن السقت من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام فارسل اليه يرغبه فى المال الجزيل ليرمى عنده ويقسب فى الرمى اليه فلم يفعل فبلغنى ان بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفينى فخرا انه ليس فى الدنيا أحد الا يرمى للخليفة الا انا فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من أعجب الامور وكان سبب ما غلب به العجم اليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التترفى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم

(ذكر خلافة الظاهر بأمر الله)

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للامير ابى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله

حرمته * وآخر انتهكت نعمته * وثالث انتهبت ثلته * ورابع طلقت عليه طلته * وخامس قتيل على التعصب اخوه وابوه * وسادس خدشت على المعروف بشرته وفض فوه * فمنهم من وصل فعد بالانصاف * ومنهم من حذر فشقى على يأس الانصراف * فرأى شمس الكفاة ان يسلك به شعب المجاملة فطم يصرفه على نبائث مساويه * وصد عن مسامع السلطان خبائث أفعاله ودواهيه * وأصم صدى التظلم عن شريف ناديه * فعاد المذكور وراءه مخذولا مفلولا * وأراد الله أن يقضى فيه أمرا كان مفعولا * ولما رأى أن قد ضجت عليه أفعاله * وضحكت منه حيله وادغاله * وان الالسن قد مضغته حين أطاع عبدا مملوكا له فى معصية خالقه * ووصل شهوة

بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد وارسل الى البلاد فى قطع الخطبة له وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الصغير على فاتفق ان الولد الصغير توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غيره ولى العهد فاضطر الى اعادته الا انه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف فى شئ فلما توفى ابوه ولى الخلافة واحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى ان اباه وجميع أصحابه اراد واصرف الامر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا يسمى من احد ولما ولى الخلافة اظهر من العدل والاحسان ما اعاده بسنة العمرين فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه اعاد من الاموال المغصوبة فى ايام ابيه وقبله شيأ كثيرا واطلق المكوس فى البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كثيرا لا يحصى فمن ذلك ان قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون الف دينار فحضر اهلها واستغاثوا وذكروا ان املاكهم اخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فامر ان يؤخذ الخراج الاول وهو عشرة آلاف دينار فقيل له ان هذا المبلغ يصل الى المخزن فمن اين يكون العوض فاقام لهم العوض من جهات اخرى فاذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين الف دينار فما الظن بباقى البلاد ومن افعاله الجميلة انه امر بأخذ الخراج الاول من باقى البلاد جميعها فحضر كثير من اهل العراق وذكروا ان الاملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس اكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الاول لا يبقى دخل الباقى بالخراج فامر ان لا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة واما الذاهب فلا يؤخذ منه شئ وهذا عظيم جدا ومن ذلك ايضا ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم قد بلغنا ان الامر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار فاعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو انه ثلثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة وتقدم الى القاضى ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذن وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبليا فقال انى من مذهبى ان أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين ان أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه ومنها ان العادة كانت ببغداد ان الحارس يكل درب يكبر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى بحر عظيم فلما ولى هذا الخليفة جزاه الله خيرا أتته المطالعات على العادة فامر بقطعها وقال اى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك

الفجور فى قطيعة ولده وعمر اطلال ضيعته * بخراب آخرته * وثب به وثوب الثائر الموتور * والجائش المسعور * يرتجع منه ما حلاه على الفسوق * ووفاه من ثمن الاستلذاذ بلعقة تلك السوق ويرى ان صنيعه ذلك يحميه سمة الالامة * ويقيه نبال الالسنة الذامة * فاسترد ما تحمله من صداق * ورجع عليه بقيمة ما أشربه من مجاجة اشداق * وعزاه عما أعطاه * بعد ان عراه وامتطاه * وبطنه للسياط * بعد ان بطنه لوطاء اللواط * مبتذلا منه جردة طال ما امتصها بثغره * وكنسها بعارضيه * وفداها بنفسه وأبويه * ودفن عليها أحد ولديه * هذا والله هو الجنود لا ما نبئ عنه حاتم العرب * وروى عن سادات بنى عبد المطلب * فطوبى لله من رضى بها لنفسه سيرة * وحباها عن تناسخ

ويعظم شرها فقال نحن ندعوالله فى أن يصطلمهم ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الاموال فاصعد ومعه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الامر فى حمله فاعاد الجواب بأن يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فاعيد عليهم ومنها انه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ما اخذ منهم وارسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس ان الاسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية فرخصت الاسعار واطلق حمل الاطعمة اليها وان يبيع كل من اراد البيع للغلة فحمل منها الكثير الذى لا يحصى فقيل له ان السعر قد غلا شيأ والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر فى امر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لاولئك وامر ان يباع من الاهراء التى له طعام ارخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الاسعار عندهم ايضا اكثر مما كانت اولا وكان السعر فى الموصل لما ولى كل مكوكين بدينار وثلثى قيراط فصار كل اربعة مكاكيك بدينار فى ايام قليلة وكذلك باقى الاشياء من التمر والدبس والارز والسمسم وغيرها فالله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه فانه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سمعت عنه كلمة اعجبتنى جدا وهى انه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الاموال التى لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم انا فتحت الدكان بعد العصر فاتركونى افعل الخير فكم اعيش وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة وفرق فى العلماء واهل الدين مائة الف دينار

(ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور)

فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من اعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان اهلها عليه سنة خمس عشرة وستمائة وتسليمها الى عماد الدين زنكى ثم عودهم الى طاعة بدر الدين وخلافهم على عماد الدين فلما عادوا الى بدر الدين أحسن اليهم وأعطاهم الاقطاع الكثير وملكهم القرى ووصلهم بالاموال الجزيلة واخلع السنية فبقوا كذلك مدة يسيرة ثم شرعوا يراسلون عماد الدين زنكى ومظفر الدين صاحب اربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز اليه والطاعة له وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يظنونه فكانوا لا يمكنون ان يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين الا من يريدونه ويمنعون من كرهوه فطال الامر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون الا طمعا وخروجا عن الطاعة وكانوا جماعة فاختلفوا وافقوى بعضهم وهم أولاد خواجه ابراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين فاخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق فلما كان هذه السنة سار بدر الدين اليهم فى عساكره فاتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون وأحصنها لا يوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة فاتاهم العسكر وحصروهم وهم فى قلة من الذخيرة فحصروها أياما فقضى ما فى القلعة فاضطر أهلها الى التسليم فسلموها ونزلوا منها وعاد العسكر الى العمادية فاقاموا عليها مع بدر الدين فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد الى الموصل وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع

الاحقاب كنزا وذخيرة * ا
وذات الاستار بيطن مكـ
لا نزل من والغ فى جيفـ
مقلوب * وأنذل من طامـ
فى شريطة مصلوب * ان
كان ما أتاه انتقاما فهـ
ذلك والولدحى * وفى البدـ
ملك الخيار شئ * آلا ك
وقد سبق السيف العذل * و
فعل القضاء ما فعل * أورد
وقد نضب الماء * وشيما وقـ
أصحت السماء * وغبرة وقد
سقط الجدار * وسترة وقد
ظهر الشوار * هيهات هيهات
لظن حائل * ورأى فائل *
وظل زائل * وورد سائل *
أيتها النفس اجملى جزعا
ان الذى تحذرين قد وقعا
واحتمال مفترش لذته *
ومعتصر شهوته * للانقطاع

فاجابه امين الدين لؤلؤ فبقي الحصار الى اول ذي القعدة فارسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلموها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحكمون فيها واقطاع ومال وغير ذلك فاجابهم بدر الدين الى ما طلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فبينما هو يريد ان يحلف لهم وقد احضر من يشهد اليمين اذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من امين الدين لؤلؤ يخبر انه قد ملك العمادية قهرا وعنوة واسر بني خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع بدر الدين من اليمين واما سبب غلبة امين الدين عليها فانه كان قد ولاه بدر الدين عليها لما عاد اهلها الى طاعته فبقي فيها مدة فاحسن اليهم واحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحزب الذين عصوا اولا فمضى الخبر اليهم فاساؤا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم ففارقهم الى الموصل وكان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه فلما حصرهم كانوا ايضا يكاتبونه في النشاب يخبرونه بكل ما يفعله اولاد خواجه من انفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من الذخائر الا انهم لم يكونوا في الكثرة الى انهم يقهرون أولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم ليذكروا اولاد خواجه احدا من جند القلعة في نسخة اليمين بمال ولا غيره من امان واقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لانفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن قد خربت بيوتنا لاجلكم فلم تذكرونا فاهانوهم ولم يلتفتوا اليهم فحضر عند امين الدين رجلان منهم ليلا وطلبوا منه ان يرسل اليهم جماعة يصعدونهم الى القلعة ويثبون بأولئك ويأخذونهم فامتنع وقال اخاف ان لا يتم هذا الامر وينفسد علينا كل ما فعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم غدا بكرة وتكون انت والعسكر على ظهر فاذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون الينا فاجابهم الى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة واما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على اولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين فبينما العسكر قيام اذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين فصعدوا اليها وملكوها وتسلم أمين الدين اولاد خواجه فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض وكان يريد ان يغرم مالا جليلا واقطاعا كثيرة وحصنا منيعا فتوفر الجميع عليه وأخذ منهم كل ما احتقبوه واذخروه واذا أراد الله أمرا فلا مرد له

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ليلة الاحد والعشرين من صفر زلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فاكل الناس الميتة والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد ان كانوا كثيرا ولقد دخلت يوما الى داري فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنورا ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس بين المرتين كثير وغلا مع الطعام كل شئ فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف قيراط قبل الغلاء وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب ان السلق والجزر والسلجم بيع كل خمسة ارطال بدرهم وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع في بعض الاوقات كل سبعة ارطال بدرهم وهذا ما لم يسمع بمثله ولقد رأينا ما لم نر ولا سمعنا بمثله فان الدنيا

الى بعض كبراء الامراء فقبله وآواه * وانتزعه من قبضة مولاه * مراغمة كونه بنار أضغانه * وشوته على حرارة غمومه وأشجانه * فلا حميم ولا قريب * ولا ولي ولا حبيب * ولا والد ولا مولود * ولا عابد ولا معبود * واما الشرع وطريقه * والدين وتحقيقه * فحيهلا به * ان في وضوح هذه الخلال على شوه احكامها * وسفه احلامها * لغنية دون شرح الحال وتشريحها * وتبليغ لسان المقال وتفصيحها * غير ان التقرب الى الرسول المصطفى * الابطحي المجتبى * صلى الله عليه وعلى آله بقوله اذكروا الفاسق بما فيه * يقتضي التنبيه على محازيه * تلخيصا لخفايا نكره وخباياه * وتشكيلا لاضلاع خبثه وزواياه

مازالت قديما وحديثا اذا غلت الاسعار متى جاء المطر رخصت الا هذه السنة فان الامطار مازالت متتابعة من اول الشتاء الى آخر الربيع وكلما جاء المطر غلت الاسعار وهذا لم يسمع بمثله فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة واربعين رطلا دقيقا بالبغدادي وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الارز مكوك باثني عشر درهما فصار المكوك بخمسين درهما وكان التمر كل اربعة ارطال وخمسة ارطال بقيراط فصار كل رطلين بقيراط ومن عجيب ما يحكى ان السكر النادر الاسم كان كل رطل بدرهم وكان السكر الابلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين فصار السكر الاسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها والابلوج بارد يقويها وتبعهن الاطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فغلا الاسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط ومازالت الاشياء هكذا الى اول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض في الناس وكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى فمن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي خطيب الموصل وكان من صالحي المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر وفيها هرب امير حج العراق وهو حسام الدين ابو فراس الحلي الكردي الورامي وهو ابن اخي الشيخ ورام كان عمه من صالحي المسلمين وخيارهم من اهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار الى مصر حكى لي بعض اصدقائه انه انما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فامن الله خوفهم ولم يرعهم ذاعر في جميع الطريق ووصلوا آمنين الا ان كثيرا من الجمال هلك أصابها اعدة عظيمة لم يسلم الا القليل وفيها في آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الاودية وامتلأت الطرق بالوحل ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر انه كان عندهم مثله ولم يصل الينا أحد الا وأخبار المطر كان عندهم في ذلك التاريخ وفيها كان في الشتاء ثلج كثير ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل في جميع العراق حتى في البصرة اما الى واسط فلا شك فيه وأما البصرة فان الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها وفيها خربت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهي حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من نرشابور وفيها أيضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضا وأضيف عملها وقراها الى العمادية وفيها في ذي الحجة سار جلال الدين بن خوارزمشاه من تبريز الى بلد الكرج قاصدا الاخذ بلادهم واستئصالهم وخربت السنة ولم يبلغنا ان فعل بهم شيأ ونحن نذكر ما فعل بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ان شاء الله وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء بردا شديدا وقوي البرد حتى مات به جماعة من الفقراء وفيها في ربيع الاول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الاولة ثم نقص الماء واستبشر الناس

(ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة)

(ذكر ملك جلال الدين تفليس)

لبعلم الافاضل أني جاورته على البريد قريبا من سنتين فلا والله ان تغيب الاحداق به في المسجد الجامع الا يوما واحدا كبيضة العقر * أو كقضة البكر * فأدري أخطأت به خطاه * أم اتجاه عذر تخوف عثباه * وتجاذبنا حديث الصلاة فقال مما زحا وما صدقا الامازح أو سكران قام بعضهم وهو يسعى يوم جمعة للفرض وقد نودي للصلاة فقال له صاحبه مكانك ان أربعة من خير

في هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفليس من الكرج وسبب ذلك انا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهزامهم منه وعوده الى تبريز بسبب الخلاف الواقع فيها فلما استقر الامر في اذربيجان عاد الى بلد الكرج في ذي الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الامم المجاورة لهم اللان والكزوقبجاق وغيرهم فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنتهم أنفسهم الاباطيل ووعدهم الشيطان الظفر وما يعدهم الشيطان الا غرورا فاقيهم وجعل لهم الكمين في عدة مواضع والتقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوي الاخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد اهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم الا اليسير الشاذ الذي لا يعبأ به وأمر جلال الدين عسكره ان لا يقفوا على أحد وان يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم واشار عليه اصحابه بقصد تفليس دار ملكهم فقال لا حاجة لنا الى ان نقتل رجالنا تحت الاسوار انما اذا أفضيت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصي في طلبهم الى ان كادوا يفنونهم فحينئذ قصد تفليس ونزل بالقرب منها وسار في بعض الايام في طائفة من العسكر وقصدها لينظر اليها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قارب بها كان أكثر العسكر الذي معه في عدة مواضع ثم تقدم اليها في نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه ولم يعلموا ما معهم فظهروا اليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوي طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل اكثرهم وانهزم الباقون الى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من اهلها بشعار الاسلام وباسم جلال الدين فالقى الكرج بايديهم واستسلموا لانهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة فقل عددهم وملئت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنوة وقهرا بغير امان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير الا من أذعن بالاسلام وأقر بكلمتي الشهادة فانهم أبقي عليهم وامرهم فتختنوا وتركهم ونهب المسلمون الاموال وسبوا النساء واسترقوا الاولاد ووصل الى المسلمين الذين بها بعض الاذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفليس من احصن البلاد وأمنعها وهي على جانبي نهر الكر وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد الاسلام وعند المسلمين فان الكرج كانوا قد استطالوا على غيرهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أي بلاد اذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا ارزن الروم حتى ان صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه في أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشر عنه وقد تقدمت القصة وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم الى حد أن ركن الدين بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التي للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثر وقصد ارزن الروم وهي لاخيه طغرل شاه بن قلج ارسلان فأتاه الكرج وهزموه وفعلوا به وبعسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم في الضنك والشدة وأما ارمينية فان الكرج دخلوا مدينة ارجيش وملكوا قرس وغيرها وحصروا خلاط فلولا أن الله سبحانه منّ على المسلمين بامر

البيوت فلم يرمن الثنين من حمل السوق وقد كان من طريق التجوز مساغ للتأويل على وجه التسلم ولكن من هذا قيل * وترك العبادات سبيله * فلا عبد يعتاده ولا فرض كما يقضيه العباد * محال به غير اليقين بالالحاد * وتلقي أوامر الشرع بالعناد * وأظن قول الغلام الواصف مولاه انه ليعرب في الشتم ويلحن في الاعراب ويصلي من قعود ويفيك من قيام يحكي الى صورة حاله *

ويأوى الى مقصورة خبثه وضلاله * بخل أحواله عيوب * ومعظم أفعاله ذنوب
يصلى فيخفض أركانه
ويشهى فينصب سيقانه
يخاطب بالكاف اخوانه
ويشتم بالزاى غلمانه
ويكفت للشرا كمامه
ويصحب للاثم أردانه
ومن نادرة البلد * اعتقاده الاعتزال على وعيد الابد * ثم لا يبقى محظورا ومحجورا ولا يستبقى عملا موزورا * ومنكرا من القول وزورا

ابو ألى مقدم عساكر الكرج لملكوها فاضطر أهلها الى ان بنوا لهم بيعة فى القلعة يضرب فيها الناقوس فرحلوا عنهم وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على المجاورين من الفرس قبل الاسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الاسلام الى الآن ولم يقدم أحد عليهم هذا الاقدام ولا فعل بهم هذه الافاعيل فان الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساكر فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فانه كان له الرى وأعمالها وبلاد الجبل واصفهان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان وارّان وارمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وماوراء النهر فكان أكثر بلاد الاسلام بايديهم ومع هذا فانه جمع عساكر مسنة تسع عشرة وخمسمائة وسار اليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود فكذلك وملك الدكز بلاد الجبل والرى واذربيجان وارّان وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاراه أن يتخلص منهم ثم ابنه البهلوان بعده وكانت البلاد فى أيام أولئك كثيرة الاموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهم ولا حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلتها التتر لعنهم الله على ما ذكرنا ففعل بهم هذه الافاعيل فسبحان من اذا أراد أمرا قال له كن فيكون

(ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل الى أعمال الموصل قاصدا اليها وكان السبب فى ذلك انه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقصدوا البلاد التى بيد الاشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين الى الموصل وأما جلال الدين فانه سار من تفليس يريد خلاط فأتاه الخبر ان نائبه ببلاد كرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على ما نذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها الا ان عسكره نهب بعض بلدها وخربوا كثيرا منه وسار مجدا الى كرمان فنفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه الا أن مظفر الدين سار من اربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور الى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل الى الاشرف وهو بالرقة يستنجده ويطلب منه ان يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها الى حران ومن حران الى نصيبين فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبا وأما المعظم صاحب دمشق فانه قصد بلد حمص وحماة وأرسل الى اخيه الاشرف يقول ان رحلت عن ماردين وحلب وأنا عن حمص وحماة وارسلت الى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الاشرف عن ماردين وعاد كل منهم الى بلده وخربت اعمال الموصل واعمال ماردين بهذه الحركة فانها كانت قد اجدبت بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلا اكثر أهلها فأتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا

(ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها)

في هذه السنة في جمادى الآخرة وصل الخبر الى جلال الدين ان نائبه بكرمان وهو امير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع في البلاد أن يتملكها ويستبد بها بعد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وانه أرسل الى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيرا من البلاد وان أخذ الباقي عظمت مملكته وكثرت عساكره وسار اليكم وأخذ ما بايديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار الى كرمان يطوي المراحل أرسل بين يديه رسولا الى صاحب كرمان ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم ان ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فأخذ ما يعز عليه وصعد الى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق اليه من أصحابه في الحصون يمتنعون بها وأرسل الى جلال الدين يقول اني أنا العبد والمملوك ولما سمعت بسيرك الى هذه البلاد أخليتها لانها بلادك ولو علمت انك تبقى على لحضرت بابك ولكني أخاف هذا جميعه والرسول يحلف له ان جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت الى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين انه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لانه يحتاج أن يحصرها مدة طويلة فوقف بالقرب من اصفهان وأرسل اليه الخلع وأقره على ولايته فبينما الرسل تتردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين اليه من تفليس يعرفه ان عسكر الملك الاشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره واوقعوا بهم ويحثه على العود الى تفليس فعاد اليها مسرعا

(ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين)

لما سار جلال الدين الى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم المرة فساروا الى أعمال ارزن الروم فوصلوا اليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيأ كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الاشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين علي الموصل بجمع العسكر وسار اليهم فأوقع بهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فارسل الى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول اليه ويخوفه عاقبة التواني والاهمال فرجع فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله)

في هذه السنة في الرابع عشر من رجب توفي الامام الظاهر بامر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بامر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضي الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فرضي الله عنه وأرضاه وأحسن متقلبه ومثواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا واذكر من الاحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز رسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال فقرؤه فاذا في أوله بعد البسملة اعلموا انه ليس امهالنا اهمالا

هاهو طمع يشهدي في مال رجل كان انقطاع اليه منذ زمان بأمان فاغرى به ربيبه كقضيب من الآس بأمه اذ هو رضيع * وعلى جدالة الجزصريع * ولقنه استعداء الامير الاجل أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة عليه * وتنجز الامر في معنى الاتصاف اليه * فتنبه ذلك الامير الالمعي * والسيد الارذعي * على غامض كيده * وباطن ختله في صدره * فأمر بالكتاب

ولا أغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وانياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الامن اصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في ارضه واصفائه على خلقه والا هلكتم والسلام ولما توفي وجدوا في بيت في داره الرف رقاع كلها مختومة لم يفضها فقيل له ليفضها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات ولم ازل علم الله سبحانه مدولي الخلافة اخاف عليه قصر المدة تلعب الزمان وفساد اهله واقول الكثير من اصدقائنا وما اخوفني ان تقصر مدة خلافته لان زماننا واهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك

(ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله)

لما توفي الظاهر بامر الله بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الخير والاحسان الى الناس سيرة ابيه رضي الله عنه وامر فنودي ببغداد بافاضة العدل وان من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان اول جمعة اتت على خلافته أراد ان يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء فقيل له ان الطابق الذي يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص ابيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشي معه من اصحابه بالصلاة الى الموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى اصلح له الطابق وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بامر الله رضي الله عنه فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا فامر أن تباع الغلات التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الاسعار واستقامت الامور

(ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد)

في هذه السنة في شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ملك بلاد الروم الى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ما ذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الاشرف فلما رأى الاشرف ذلك ارسل الى كيقباذ ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الاشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم الى ملطية وهي له فنزل عندها وسير العساكر الى ولاية صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكار اد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الاشرف وعاد الى موافقته فأرسل الاشرف الى كيقباذ يعرفه ذلك ويقول له ليعد الى صاحب آمد ما اخذ منه فلم يفعل وقال لم اكن نائبا للاشرف

الى في تعرف الحال * وتجنب جانب الاحتيال * والاستدابة لاعداء الشاكي على خصمه * وايقافه حكم الله في أمره * فلما أحس أخو دلة المحتالة ان حديثه قد فال * وظنه استحال * وسعيه الى الشبور قد مال منع شهود الزور أن يصدعوا بالحق فيما بذلوا من خطوطهم ترغيبا * وترهيبا * فرضوا القول * واذعنوا على مسئلتهم العول * ومال المزور والمزور الى التوسط عن ارش المستباح دمها على ما تقى

يأمرني وينهاني فاتفق ان الاشرف سار الى دمشق ليصلح اخاه الملك المعظم وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد ان أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الاشرف الى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن يسلاده ممن يصلح للحرب وسار الى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هنالك في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهي من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا الى صاحبهم

(ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس)

في هذه السنة في رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه الى تفليس وسار منها الى مدينة آني وهي للكرج وبها ابو الى مقدم عساكر الكرج فيمن بقي معه من اعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر الى مدينة قرس وهي للكرج أيضا وكلاهما من احصن البلاد وامنعها فنازلهما وحصرهما وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد في القتال عليهما وحفظتهما الكرج وبالغوا في الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل باشياعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما الى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد الى تفليس وسار من تفليس مجدا الى بلاد ابخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فنهب وقتل وسبى وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها الى تفليس

(ذكر حصر جلال الدين خلاط)

قد ذكرنا ان جلال الدين عاد من مدينة آني الى تفليس ودخل بلاد ابخاز وكان رحيله مكيدة لانه بلغه ان النائب عن الملك الاشرف وهو الحاجب حسام الدين علي بمدينة خلاط قد احتاط واهتم بالامر وحفظ البلد لقربه منه فعاد الى تفليس ليطمئن أهل خلاط وتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلم يكن عنده من يراسل نواب الاشرف بالاخبار فجئهم على حين غفلة منهم وانما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يحذرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة ثم رحل عنها فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشره فلم ينزل حتى زحف اليها وقاتل اهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف اليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكاية العسكر في أهل خلاط ووصلوا الى سور البلد ودخلوا الربض الذي له ومدوا أيديهم في النهب وسبي الحريم فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا وحرض بعضهم بعضا فعادوا الى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمي من امراء خلاط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب علي ووقف في نحر العدو وابلى بلاء عظيما ثم ان جلال الدين استراح عدة أيام وعاود الزحف مثل اول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلاط مجدين في القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ثم أقام عليها الى أن اشتد البرد ونزل شئ من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء

درهم قيمتها خمسة دنانير فلم أر دية محلة وقفت بأن ديات الامهات على هذين العقدين فما في الاسلام له ذكر معلوم * ولا في الفقه باب مرقوم * ولا عند أهل الكتاب أمر محتوم ولا في ديار أهل الشرك رسم مرسوم * ولا في فطر النفوس أن تنزل عن أمهاتها مقتولة بهذا الوكس * والثمن البخس ولا الخنانيص أو القرود لو نطقت ترضى عن واضعاتها بمثله وكم قد قلت وأقول

اسبع بقين من ذى الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الايوانية من الفساد ببلاد

(ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوانية)

كان التركمان الايوانية قد تغلبوا على مدينة اشتروأرمية من نواحى اذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعدهم بخلاط وازداد طمعهم وانبسطوا باذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والاخبار تأتى الى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم انهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيأ كثيرا ومن جملة ذلك انهم اشتروا غنما من اوزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقيهم الايوانية قبل وصولهم الى تبريز فأخذوا جميع ما معهم ومن جملته عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه فى البلاد اليه يستغيثون ويعرفونه ان البلاد قد خربها الايوانية وانه ان لم يلحقها والا هلكت بالمرة فاتفق هذا الى خوف الثلج فرحل عن خلاط وجد السير الى الايوانية وهم آمنون مطمئنون لعلمهم ان خوارزمشاه على خلاط وظنوا انه لا يفارقها فلو لا هذا الاعتقاد لصعدوا الى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى اليها الا بمشقة وعناء فانهم كانوا اذا خافوا صعدوا اليها وامتنعوا بها فلم يرعهم الا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبى واسترقوا الحريم والاولاد وأخذوا من عندهم مالا يدخل تحت الحصر فرأوا كثيرا من الامتعة التى أخذوها من التجار بحالها فى الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حملوه وفصلوه فلما فرغ عاد الى تبريز

(ذكر الصلح بين المعظم والاشرف)

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد والملك الاشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الامر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم انه عاد من مصر وسار الى أخيه الاشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار الى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل الى بلده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الاشرف الى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك ان المعظم سار الى مدينة حماة وحصرها فأرسل اليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارهها فازداد نفورا وقيل انه نقل اليه عنهما انهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف الى ذلك ان الخليفة الناصر لدين الله رضى الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقى فأعرض

انها ليست دية تؤدى أو ذمة * بل هى دية نسمة مسلمة * قد حقن الله دمها الا باحدى ثلاث نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل يستجيز الترخص فى هذه الاحكام الا المستخف بدين الاسلام * اما ان المحكوم عليه لم يلتزمها الا بقوة قومت مائة وعشرة * فتال المجوع * المخدوع * تالله لا رضيت بهذا الغبن ولا شربت الدم الحرام باللبن * وهم بالرحيل * فى أمر القتيل فاغتيل * فلم يدر

عنه وعن أخيه الاشرف لاتفاقهما وقاطعهما وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين علي صاحب اربل لعلمه بانحرافه عن الاشرف واستمالته واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم الامر عليه فمال اليهما وانحرف عن اخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد الامر على الاشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ولان المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل اليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الاشرف أن يسير الى أخيه المعظم بدمشق فسار اليه في شوال واستمالته وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظن ان اتفاقهما عليه ثم انهما راسلاه واعلماه بنزول جلال الدين على خلاط وعظما الامر عليه واعلماه ان هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي وانقضت السنة والاشرف بدمشق والناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء مايكون من الخوارزميين وسنذكر مايكون سنة أربع وعشرين وستمائة ان شاء الله تعالى

﴿ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن﴾

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب انطاكية جموعا كثيرة وقصد الارمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك ان ابن ليون الارمني صاحب الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا انما خلف بنتا فملكها الارمن عليهم ثم علموا ان الملك لايقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل الى بلدهم واستقر في الملك نحو سنة ثم ندموا على ذلك وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه فأرسل ابوه يطلب ان يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل الى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا ملك رومية امره عند الفرنج لايخالف فمنعه عنهم وقال انهم اهل ملتنا ولايجوز قصد بلادهم فخالفه وارسل الى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدها فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عساكره ليسير الى بلاد الارمن فخالف عليه الداوية والاستبارية وهما جرة الفرنج فقالوا ان ملك رومية نهانا عن ذلك لانه اطاعه غيرهم فدخل اطراف بلاد الارمن وهي مضايق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل ماير يدوا ما كيقباذ فانه قصد بلاد الارمن من جهته وهي اسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة فنهبها واحرقها وحصر عدة حصون ففتح اربعة حصون وادركه الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية ارسل الى الفرنج بالشام يعلمهم انه قد حرم البرنس فكان الداوية والاستبارية وكثير من الفرنج لايحضرون معه ولايسمعون قوله وكان اهل بلاده وهي انطاكية وطرابلس اذا جاءهم عيد يخرج من عندهم فاذا فرغوا من عيدهم دخل البلد ثم انه أرسل الى ملك رومية يشكو من الارمن وانهم لم يطلقوا ولده فأرسل الى الارمن يأمرهم باطلاق ابنه واعادته الى الملك فان فعلوا والا فقد أذن له في قصد بلادهم فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده فجمع البرنس وقصد بلاد الارمن فأرسل الارمن الى الاتابك شهاب الدين بحلب يستنجدونه ويخوفونه من البرنس ان استولى على بلادهم لانها تجاور أعمال حلب فأمدهم بجند وسلاح فلما سمع البرنس ذلك صمم العزم على قصد بلادهم فسار اليهم وحاربهم فلم يحصل على غرض

فعاد

أأكلته النار أم شربه الماء * أو التقطته الارض أو اختطفته السماء * فلله هما من دمين * ذهبا بطرا وبضعين * فقد اغيلة وسخرا * هذا والله الدين السليم أو العقد الحكيم * والامر القويم * والسمت المستقيم * والملا قبما وراء الجحيم * وعما يزيده أدام الله عز المشايخ نفوحا * ويفيد من هذه المقدمات وضوحا * ما كانت الاخبار تتشاهد به من استهلاله عند الاشفاق من لواحق

فعاد عنهم حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وانكر البعض

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة انخسف القمر مرتين أولاهما ليلة رابع عشر صفر وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين سمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا الى غيرها وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات فقتل كثيرا فلقد بلغني ان ذئبا دخل الموصل فقتل فيها (وحدثني) صديق لنا به بستان بظاهر الموصل انه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيتين وقتل هذه السنة الى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط الى ثاني عشر نيسان ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى فجاءت الغلات قليلة ثم خرج الجراد الكثير فازدادت الناس اذى وكانت الاسعار قد صلحت شيأ فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل أيضا في كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلفت أقاويل الناس في اكبره كان وزن بردة مائتي درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك الا انه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل وفيها اصطاد صديق لنا أرنب فرآه وله انثيان وذكر وفرج أنثى فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه وقالوا ما زلنا نسمع ان الارنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى ولا نصدق بذلك فلما رأيناها هذا علمنا انه قد حمل وهو أنثى وانقضت السنة فصار ذكرا فان كان كذلك فيكون في الارانب كالخنثى من بني آدم يكون لاحدهم فرج الرجل وفرج الانثى فاني كنت بالجزيرة ولنا جارية بنت اسمها صفية فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة واذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل وفيها ذبح انسان عند نار أس غنم فوجد لحمه مر اشديد المرارة حتى رأسه واكارعه ومعلاقه وجميع اجزائه وهذا لم يسمع بمثله وفيها يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزلت الارض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية وكان اكثرها بشهرزور فانها خرب أكثرها لاسيما القلعة فانها انجفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما ثم كشفها الله عنهم واما القرى بتلك الناحية فخرب اكثرها وفيها في رجب توفي القاضي حجة الدين ابو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد اضر قبل وفاته بنحو سنتين وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلات دارة للقيم والوارد رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر

﴿ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها﴾

جنايا به على سلطان زمانه * ورعايا عمله وسكانه * حبس ما نسب اليه من ضياع * وعقار ورباع * ودار ليتناهب ذكره الاسماع * ويتقاصر دونه الاطماع * حتى اذا ما خلا جوه * واستقام على ايقاع المراد شدوه * ندم على ما فعل * ورجع فيما بذل وفصل بالفسخ كل ما اجمل * فكان هذا البلاغ يقرب تارة من الامكان * ويبعد أخرى حتى أغنى شخص العيان * عن الخبر * وناب شمس البيان * عن القمر *

في هذه السنة في ربيع الاول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الاسلامي من يقوم بحمايتها وسبب ذلك ان جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرنا قبل وأوقع بالاوانية فرق عساكره الى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها وكان عسكره قد أساؤا السيرة في رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فكاتبوا الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم البلد فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد اليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بضعة عشر ألفا وآتى وغيرهما من الحصون وساروا الى تفليس وكانت خالية كما ذكرناه ولان جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فملكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله وعلموا انهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فانه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم يرمنهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها

وذلك حين بعث السلطان يمين الدولة وأمين الملة قاضي قضاته أبا محمد عبد الله بن محمد الناصحي الى ديار خراسان لتدارك أمور الاوقاف * وانتزاع ما اقتسمته أيدي التسلط والاختطاف * فرفع اليه خليفته وأنا حاضر * والى حقائق ما يرد ويصدر ناظر * ما تقرر عنده من احتجانه ما يقارب مائة ألف دينار عن أوقاف وضع عليها سمت القلك وسومة التغلب والتحجين كما عما فيها أفواه أربابها

﴿ذكر ذهاب جلال الدين بلد الاسماعيلية﴾

في هذه السنة قتل الاسماعيلية أميرا كبيرا من امراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الامير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الامير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية من حدود أملوت الى كردكوه بخراسان فخرب الجميع وقتل أهلها ونهب الاموال وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وعمل بهم الاعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا منذ خرج التتر الى بلاد الاسلام الى الآن فكف عاديتهم وقمعهم ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾

لما فرغ جلال الدين من الاسماعيلية بلغه الخبر أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل ويأسر فبيناهو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بان كثيرا منهم واصلون اليه فاقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة

﴿ذكر دخول العساكر الاشرفية الى اذربيجان وملك بعضها﴾

في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين وهو النائب عن الملك الاشرف بخلاط والمقدم على عساكرها الى بلاد اذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك ان سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة في الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي وهي التي كانت زوجة أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها اليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت اليها لخفاقته مع ما حرمته من الحكم والامر والنهي فأرسلت هي وأهل شوى الى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له فسار ودخل البلاد بلاد اذربيجان فملك مدينة خوى وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وملك مرند

وكاتبه أهل مدينة نقجوان فمضى اليهم فسلموها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا الملكوها جميعها انما عادوا الى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل الى خلاط وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده﴾

في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذي القعدة وكان مرضه دوسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها الفقه على مذهب أبي حنيفة فانه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو فانه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهري ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للازهري والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بان يرتب مسند أحمد بن حنبل على الابواب ويرد كل حديث الى الباب الذي يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق العلم في سوقه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم وكان يرجع الى علم وصبر على سماع ما يكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا ان اعتقادي في الاصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي ووصى عند موته بان يكفن في البياض ولا يجعل في اكفانه ثوب فيه ذهب وأن يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء ويقول في مرضه لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به ولما توفي ولي بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قد قارب عشرين سنة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة ودامت الاسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصلي بدينار وقيراطين بالموصل والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلي بدينار وقيراطين أيضا وكل شئ بهذه النسبة في الغلاء وفيها في الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحبتين بالصنجة وربما زاد في بعض الايام على هذا الثمن وحكي لي من يتولى بيع الغنم بالموصل انهم باعوا خروفا واحدا لاغير وفي بعضها خمسة أرؤس وفي بعضها ستة وأقل وأكثر وهذا ما لم يسمع بمثله ولا رأيناه في جميع أعمارنا ولا حكي لنا مثله لان الربيع مظنة رخص اللحم لان التركمان والاكراد والكيلكان ينتقلون من الامكنة التي شتوا بها الى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة أرطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين وفيها عاشر اذاروهو العشرون من ربيع الاول سقط الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فأهلك الازهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش

دون التظلم بوعد دونه
وفراق السراب * ووعيد
عنده فراق الرقاب * حتى
درج عليها قرن بعد قرن
آيسين عن الانتصاف *
وخلف من بعدهم خلف
قانعين من دونه بالكفاف *
فأوحى القاضي اليه بانعام
الاستقصاء على حكم أمانة
القضاء * فقام فيه وقعد *
وأبرق وأرعد * وانتزع مالا
عظيما من تحت أضراسه *
وحذره الافتضاح أن
تعرض لمراسه * وكان
قصاراه ان سكت وسكت *

والاجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الاخبار من العراق جميعه بمثل ذلك فهلكت به ازهار الثمار ايضا وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فانه أشد حرا من جميعها وفيها ظفر جمع من التركمان كانوا باطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بانطاكية فقتلوه فعلم الداوية بذلك فصاروا وكبسوا التركمان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ الى اتابك شهاب الدين المتولى لامور حلب فراسل الفرنج وتهددهم بقصد بلادهم واتفق ان عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فاذعنوا بالصلح وردوا الى التركمان كثيرا من أموالهم وحريمهم وأسراهم وفيها فى رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وارادوا الاغارة على جزيرة ابن عمر وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلاد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلاد الجزيرة اسمها سلكون ولقوهم من ضحوة النهار الى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الاكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين

﴿ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر الخلاف بين جلال الدين وأخيه﴾

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أبيه أخاه وخافه معه جماعة من الامراء واستشعروا منه وأرادوا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك الى أن خرجت التتر واشتغل بهم جلال الدين فهرب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهى من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول الى البلد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الامر فارق خوزستان وقصد بلاد الاسماعيلية فوصل اليهم واحتمى بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد الى تبريز فاتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة ان أخاه قد قصد اصفهان فالقى الجوكان من يده وسار مجدا فسمع ان أخاه قد قصد الاسماعيلية ملتجئا اليهم ولم يقصد اصفهان فعاد الى بلاد الاسماعيلية لينهب بلادهم ان لم يسلموا اليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الاسماعيلية فاعاد الجواب يقول ان أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نترك عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيأ من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ما تكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد عنهم وقصد خلاط على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾

فى هذه السنة عاود التتر الخروج الى الرى وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها كان أكثرها عليه وفى الاخير كان الظفر له وكانت فى أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه واخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها خرابا فقصد الرى ليتغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاود ثم انهزم وقصد اصفهان وأقام بينها وبين الرى وجمع عساكره ومن فى طاعته فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس وهو ابن اتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه كما ذكرناه وعاد جلال الدين الى التتر فلقيهم فبيناهم مصطفون كل

وخشى اسوة أمثاله العنت * وأحضر الرجل طواغيت الشهود * وعفاريت الفسوق والمرود * وعقد بمشهدهم على شهاداتهم وثائق بوقفه كل ماملك * واطلاقه على وجه الله جميع ما أمسك * يرى بما نعل ان التسمح بما تحت يده من قليل أو كثير * وزهيد وغفير * براءه عن الطمع فى مال لغيره موقوف * وعرض الى وجه القربات مصروف * فلم يتراخ الامد على هذا العقد الوثيق *

طائفة مقابل الاخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الامراء على مفارقة جلال الدين واعتزلوا وقصدوا جهة ساروا اليها فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فانه لما رأى مفارقة أخيه اياه ومن معه من الامراء ظن ان التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل اصفهان لئلا يحصروه ومضى الى سعيدم وأما صاحب فارس فلما أبعد في أثر التتر ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا في آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا ثم عادوا الى اصفهان فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم فوصلوا الى اصفهان فحصروها وأهلها يظنون ان جلال الدين قد عدم فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم اذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته ويقول الى متعوق أو يجتمع الى من سلم من العسكر واقصدكم ونتفق أنا وأنتم على ازعاج التتر ونرحلهم عنكم فارسلوا اليه يستدعونه اليهم ويعدونه النصرة والخروج معه الى عدوه وفيهم شجاعة عظيمة فسار اليهم واجتمع بهم وخرج أهل اصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر أقبح هزيمة وتبعهم جلال الدين الى الري يقتل ويأسر فلما أبعدوا عن الري أقام بها وأرسل اليه ابن جنكزخان يقول ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن ابعدناهم عنا فلما أمن جانب جنكزخان امن وعاد الى اذربيجان

﴿ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا﴾

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضا الا انهم لم تمكنهم الحركة والشروع في امر الحرب لاجل ان ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الالمان ولقبه انبرور قيل معناه ملك الامراء ولان المعظم كان حيا وكان شهما شجاعا مقداما فلما توفي المعظم كما ذكرناه وولي بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسوروها خراب فعمروها واستولوا عليها وازالوا عنها حكم المسلمين وانما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى فعظمت شوكة الفرنج وقوي طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وملكها وسار منها الى عكا فارتاع المسلمون لذلك والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم ان ملكهم انبرور وصل الى الشام

﴿ذكر ملك كيقباذ ارزنكان﴾

وفي هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان وهو صاحب قونية واقصرا وملطية وغيرها من بلاد الروم ارزنكان وسبب ملكه اياها ان صاحبها بهرام شاه وكان قد طال ملكه لها وجاوز ستين سنة توفي ولم يزل في طاعة قلج ارسلان واولاده بعده فلما توفي ملك بعد ولده علاء الدين داود شاه فأرسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكرا ليسير معه الى مدينة ارزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار في عسكره اليه فلما وصل قبض عليه واخذ

والخذلان المشبه بالتوفيق * حتى قال لي وهو يشكو الوزير شمس الكفاه * وسماعه اباطيل السعاه * ماهو الا ان احل عقود املاكي هذه على طفرة الى العراق سالما عن خراسان واهلها وقالبا قرارة البلاد * ومباءة الطارف والتلاد * منها فقلت انا لله وانا اليه راجعون من شيخ هذه تقيته * وما لفظ به على وجه

مدينة ارزنكان منه وله حصن من امنع الحصون اسمه كماخ وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل اليه ملك الروم يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داود شاه ان لم يسلم كماخ فأرسل الى نائبه في التسليم فسلم القلعة الى كيقباذ وارادكيقباذ المسير الى ارزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج ارسلان فلما سمع صاحبها بذلك ارسل الى الامير حسام الدين علي النائب عن الملك الاشرف بخلاط يستنجده واظهر طاعة الاشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا انه اذا ملك ارزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين الى ارزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر اليها لم يقدم على قصدها فسار من ارزنكان الى بلاد سوكان قد اتاه الخبر ان الروم الكفار المجاورين لبلاد قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من احصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل الى بلاده سير العسكر اليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار الى انطاكية ليشتي بها على عادته

الاستحلال وغيظ العجز
عن املاك الرجال بقيته *
هذا ومن فضل سماحته *
واساحة فيض راحته *
أن كل من ساكنه في حلته *
على عمل يليه * أو مال
يجبيه * كاله ماشاء جزافا *
ووزنه تبذيرا واسرافا *
استخفافا بشهاداتهم له
بجوده * وتخرقه حذو
الكرام بوجوده * حتى
اذا قضى الوطر منهم *
وملك بسطة الاستغناء
عنهم * تتبع عليهم صبابات

﴿ذكر خروج الملك الكامل﴾

في هذه السنة في شوال سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل صاحب مصر الى الشام فوصل الى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الاسلام أبدا ثم سار عنه وولى بعدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو الى الملك المعظم فخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فارسل الى عمه الملك الاشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وارسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق الا طاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فاعاد الكامل الجواب يقول اني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الاعصار وممر الايام فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا اعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني اني قاتلت أخي أو حصرته حاشى الله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل كل المحمول فخاف الاشرف والناس قاطبة بالشام وعلموا انه ان عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه فتردد للرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الاضحية وسنعه من العود الى حصر فاقاما بمكانهما

﴿ذكر نهب جلال الدين بلاد ارمينية﴾

في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه الى بلاد خلاط وتعدى خلاط الى صحراء موش وجبل جور ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد الى

بلاده ولما وصل الخبر الى البلاد الجزرية حران وسروج وغيرهما انه قد جاز خلاط الى جور وانه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجيء اليهم لان الزمان كان شتاء وظنوا انه يقصد الجزيرة ليشتي بها لان البرد بها اليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم الى الشام ووصل بعض أهل سروج الى منبج من أرض الشام فاتاهم الخبر انه قد ذهب البلاد وعاد فاقاموا وكان سبب عوده ان الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا لم يعهد مثله فاسرع العود

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة رخصت الاسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات التي لهم من الحنطة والشعير جيدا الا ان الرخص لم يبلغ الاول الذي كان قبل الغلاء انما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلي بدينار

﴿ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج﴾

في هذه السنة اوائل ربيع الآخر تسلم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس صلحا أعاده الله الى الاسلام سريعا وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الانبرور ملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر الى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق ولما وصل الانبرور الى الساحل نزل بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة اخيه المعظم وهو نازل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم وهو صاحبها يومئذ وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له قد أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار الى دمشق وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل واجتمع به فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الانبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ولا يسلم الى الفرنج الا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه وكان سور البيت المقدس خرابا قد خربه الملك المعظم وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك واكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده الى المسلمين بمنه وكرمه آمين

﴿ذكر ملك الملك الاشرف مدينة دمشق﴾

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الاشرف بن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ما ذكرناه ان صاحب دمشق لما خاف من عمه الملك الكامل أرسل الى عمه الاشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار اليه من

القدور * وخلالات
الثغور * وقامات
الاطراف * وصواحات
الاصواف * وجعل المطعوم
في زنة الذهب المصون *
والمشروب في قيمة الجوهر
المخزون * والدرهم الواحد
قنطارا * وحديثا في دواوين
الشرق مطارا * سمابة من
خيث أرومته * ورست
على دمنة اللؤم جرثومته *
فصدر عنه العامل *
والجاور الآمل * مغبونا
مدة مقامه موضوعا *
وشرابه في طعامه مغبوعا *

البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار فلم يزالوا ذلك وتركوا ما عزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق انه معهما في الصلح وسار الاشرف الى أخيه الكامل واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد وسار صاحب دمشق الى بيسان وأقام بها وعاد الملك الاشرف من عند أخيه واجتمع هو وصاحب دمشق ولم يكن الاشرف في كثرة من العسكر فبيتاهما جالسان في خيمة لهما واذا قد دخل عز الدين ايبك مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق وهو اكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج والا قبضت الساعة فاخرجه ولم يمكن الاشرف منعه لان ايبك كان قد اركب العسكر الذي له جميعه وكانوا اكثر من الذين مع الاشرف فخرج داود وسار هو وعسكره الى دمشق وكان سبب ذلك ان ايبك قيل له ان الاشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل الى الاشرف وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها الى أن وصل اليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الامور على صاحبها ان المال عنده قليل لان أمواله بالكرك ولو توفه بعمه الاشرف لم يحضر منها شيأ فاحتاج الى أن باع حلي نسائه وملبوسهم وضاقت الامور عليه فخرج الى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشوبك والغور ونابلس وتلك الاعمال وان يبقى على ايبك قلعة صرخد وأعمالها وتسلم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة الى أن سلم اليه أخوه الاشرف حران والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق الى أخيه الاشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل الى الديار الجزرية فاقام بها الى أن استدعى أخاه الاشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل الى ديار مصر وأما الاشرف فكان منه ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر القبض على الحاجب علي وقتله﴾

وفي هذه السنة أرسل الملك الاشرف مملوكه عز الدين ايبك وهو أمير كبير في دولته الى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين علي بن حماد وهو المتولي لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الاشرف ولم نعلم شيأ يوجب القبض عليه لانه كان مشفقا عليه ناصحا له حافظا لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فان الناس يقولون بعض غلمان الملك الاشرف يقاوم خوارزمشاه وكان رحمه الله كثير الخير والاحسان لا يمكن أحدا من ظلم وعمل كثيرا من أعمال البر من الخانات في الطرق والمساجد في البلاد وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق وأصلحها كان يشق سلوكها فلما وصل ايبك الى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لانه كان عدوه ولما قتل ظهر أثر كفايته فان جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ما نذكره ان شاء

بما اقتناه غابر آثامه * مخدوعا *
عن شهادة خفت صحيفة *
آثامه * فتخطف فرجيه
بكفاتا يديه * يباري في عدوه
السليك * وينادي لبيك
اللهم لبيك * وليست هذه
من آثاره * بأعجب من كمون
أخباره * وسدول الاستار
دون اسراره * وتصويد
الانتقام من معقد أزراره *
غير ان لكل شيء أمدا *
ويأبى الله أن يفلح الظالم

الله ولم يمهل الله ايبك بل انتقم منه سريعا فان جلال الدين أخذ ايبك أسيرا لما ملك خلاط مع غيره من الأمراء فلما اصطلح الاشرف وجلال الدين اطلق الجميع وذكر ان ايبك قتل وكان سبب قتله ان مملوكا للحاجب علي كان قد هرب الى جلال الدين فلما أسر ايبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب علي فسلمه اليه فقتله وبلغني ان الملك الاشرف رأى في المنام كأن الحاجب علي قد دخل الى مجلس فيه ايبك فاخذ منديلا وجعله في رقبة ايبك وأخذه وخرج فأصبح الملك الاشرف وقال قد مات ايبك فاني رأيت في المنام كذا وكذا

﴿ذكر ملك الكامل مدينة حماة﴾

وفي هذه السنة أو اخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك ان الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر وهو صاحب حماة توفي على ما ذكره ولما حضرته الوفاة حلف الجند واكابر البلد لولده الاكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه الى الملك الكامل صاحب مصر لانه كان قد تزوج بابنته وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج ارسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر الى مدينة حماة فسلمت اليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فارسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد الى أخيه الاكبر فان أباه اوصى له به فلم يفعل وترددت الرسل في ذلك الى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الاجابة فلما توفي المعظم وخرج الكامل الى الشام وملك دمشق سير جيشا الى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حصن وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقي الدين الذي كان عند الكامل فبقي الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور الى البلاد الجزرية حران وغيرها فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين ونزل اليه من قلعته ولم يكن لذلك سبب الا أمر الله تعالى فان صلاح الدين قال لاصحابه أريد النزول الى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر مالا حد له فلا أي شيء تنزل اليه ليس هذا برأي فأصر على النزول وأصروا على منعه فقال في آخر الامر اتركوني انزل والا ألقيت نفسي من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل في نفر يسير ووصل الى الكامل فاعتقله الى أن سلم مدينة حماة وقلعتها الى أخيه الاكبر الملك المظفر وبقي بيده قلعة بارين حسب فانها كانت له وكان هو كالباحث بظلفه على حتفه

﴿ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها﴾

وفي هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهي للملك الاشرف وبها عسكره فامتنعوا بها وأعانهم اهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته واسرفوا في الشتم والسفه فاخذه اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فان خلاط من اشد البلاد بردا واكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوي وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة مجانيق ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فاعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصابرهم وملازمهم الى أواخر جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين فزحف اليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الاحد الثامن والعشرين من جمادى الاولى ساقها اليه بعض الامرا

ابدا * الا ان المال يفسد الملا * ويحقن الدماء * ويجمع الاهواء * ويدفع القضاء * ويستر العوار والعوراء * ولقد بالغ أبو الفتح البستي حيث يقول

اشفق على الدرهم والعين
فسلم من العينة والدين
فقوة العين بانسانها
وقوة الانسان بالعين

غير ان المال متى سلب الجمال * وأورث الهزال * والقتال * فهو وبال * ولا الدين مطلوبا * والذنب مكتوبا * والانف مجدوعا * والبنان مقطوعا * فقبح الله الاعراض * متى تدنست الاعراض * والاموال * متى لطخت السربال * والاعمال * متى أعرت الاوزار * والحرائب * متى أبدت المعائب * فأما فوائده ومطاعمه فخذوها مني اليكم باسنا كما انقضت الاصابع * واتسقت الكعوب الذوارع * انه يفيد ومع صغير العصافير

غدرا فملك البلد صعد من فيه من الامراء الى القلعة التي لها وامتنعوا بها وهو متنازلهم ووضع السيف في اهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قلوا فان بعضهم فارقوه خوفا وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القلة وعدم القوت فان الناس في خلاط اكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعت انهم كانوا يصطادون الفار ويأكلونه وصبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد ولم يملك من بلاد خلاط غيرها وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط واكثروا القتل فيها ومن سلم هرب في البلاد وسبوا الحريم واسترقوا الاولاد وباعوا الجميع فتفرقوا كل ممزق وتفرقوا في البلاد ونهبوا الاموال وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله لاجرم لم يمهله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده وأعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فاخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ والله أعلم

﴿ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف﴾

في هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه من علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس وملطية وغيرها ومن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك ان جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط وأعانه على حصرها فخافه هناك علاء الدين فارسل الى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر أخاه الاشرف من دمشق فانه كان مقيما بها بعد أن ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين فاحضر الملك الكامل اخاه الاشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين اليهما متتابعة يحثهما على المجيء اليه والاجتماع به حتى قيل انه في يوم واحد وصل الى الكامل والاشرف من علاء الدين خمسة رسل يطلب مع الجميع وصول الاشرف اليه ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار الى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسار نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار اليهما مجدا في السير فوصل اليهما بمكان يعرف بياسي جمار (٣) وهو من أعمال ارزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الاشرف نحو خمسة آلاف الا انهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن علي وهو من الاكراد الهكارية ومن الشجاعة في الدرجة العليا وله الاوصاف الجميلة والاخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لا سيما لما رأى عسكر الشام فانه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ

على أطعمة يرتو عليها احشاه
كاحشي الدقيق جرابا *
واثقل الرصاص كعابا * فما
هو الا أن يذر ورس الشمس
على صلايات الجدران *
حتى كان اولاد البقر تطس
فؤاده * وكأن الظليم يدعى
فيه ميلاده * فيتغدى
بالفول سنة وعاده * وبما
يجانسه من عمل السوق
شهوة واراده * حتى اذا
طفح كالدلو لمن متح كف *
وقبض الكف * على قرم
لا يطير اجنحه * ولا تثنى
دون الجذب محاجنه * فاذا
انتصف النهار أو كاد *
والتحف الحرباء الاحاد *
عاد بطعام اليوم وهو
المتكلف * وما يقيم رسمه
التصلف * فاحتشى من
كل حلو وحامض * وامتلأ
من كل بكر وفارض *
حتى يخشى عليه في
السفاق * من الانشقاق *
وفي العروق * من
البثوق * فيظل باقي النهار

صدره زعبا فانشب عز الدين بن علي القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوي الاخ على أخيه وتفرقت اصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد الى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وعادوا الى اذربيجان فنزلوا عند مدينة خوي ولم يكونوا قد استولوا على شئ من اعمال خلاط سوى خلاط ووصل الملك الاشرف الى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل

﴿ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم﴾

قد ذكرنا ان صاحب ارزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب ارزن الروم أسيرا فاحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه فاخذه وقصد ارزن الروم فسلمها صاحبها اليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فكان كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين وهكذا هذا المسكين جاء الى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشئ من بلاد علاء الدين فأخذ ماله وما بيديه من البلاد وبقي أسيرا فسبحان من لا يزول ملكه

﴿ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين﴾

لما عاد الاشرف الى خلاط ومضى جلال الدين منهزما الى خوي تردد الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الايمان عاد الاشرف الى سنجار وسار منها الى دمشق فاقام جلال الدين ببلاده من اذربيجان الى أن خرج عليه التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن﴾

كان حسام الدين صاحب مدينة ارزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الاشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وحوادثه وينفق أمواله في طاعته ويبذل نفسه وعساكره في مساعدته فهو يعادي أعداءه ويوالي أولياءه ومن جملة موافقته انه كان في خلاط لما حصرها جلال الدين ولقي من الشدة والخوف ما لقيه بها الى أن ملكها جلال الدين فأسره جلال الدين وأراد ان يأخذ منه مدينة ارزن فقيل له ان هذا من بيت قديم عريق في الملك وانه ورث هذه ارزن من اسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهود والمواثيق انه لا يقاتله فعاد الى بلاده وأقام به فلما جاء الملك الاشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازي بن الملك العادل وهو أخو الاشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حاني وهو بمدينة ارزن فحصره بها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لا يخلو بابه من جماعة يردون اليه يستمنحونه وسيرته جميلة في ولايته ورعيته وهو من بيت قديم يقال لهم بيت طغان ارسلان كان لهم مع ارزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الاحدب وهذه البلاد منهم من أيام ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي فأخذ بكمر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لانه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصده بكمر لذلك وبقيت ارزن بيده هذا الى الآن فاخذت منه ولكل اول آخر فسبحان

يشكو مي معاويه * وخلاء خالية خاويه * حتى اذا جفت الشمس للاصيل * وهم الطفل على الليل بالتطفيل * أعيد عليه الطبائخ والغروف * وحشر اليه القراطف والقروف * ثم يؤتى لمبيته بالقناديل الاضابير مطوية * والطوامير مختومة مسجية * وربما تعار بعض ساعات الليل فينادي بالجوع * ويلاقي الطهاة بالقنوع * فيحاش عليه بحالة الوقت من مستودعات البسائين * ومطبخات الطيور والفرانيق * فيتهجد عليها من غير قيام * ويتسحر منها بغير صيام * طعاما لا يشركه فيه غير الملائكة حاضرة * والكواكب من محاجر الظلماء ناظرة * فما الارض وهي الغاية * في الالتقام والالتهام * ولا الدعص وهو النهاية * في الاشتفاف والارتشاف * بأبلع منيه

من لا اول له ولا آخر لبقائه

﴿ذكر ملك صونج قشيالوا قلعة رويندز﴾

وفى هذه السنة ظهر أمير من امراء التركمان اسمه صونج ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قنيالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين اربل وهمذان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون فى الارض ثم انه تعدى الى قلعة منيعة اسمها سارو وهى لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدى فجمع مظفر الدين واراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها والكثرة الجموع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة رويندز وهى من قلاع اذربيجان من أحصن القلاع وأمنعها لا يوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم فارسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلمها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد الى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستذلهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيأ من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا الى صونج يطلبونه ليسلموا اليه القلعة فسار اليهم فى أصحابه فسلموها اليه فسبحان من اذا أراد أمرا سهله هذه قلعة رويندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة اكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحصانتها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الامور فملكها بغير قتال ولا تعب وزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذى كل ملوك الارض تهابه وتخافه وكان اصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد فلما ملكها صونج طمع فى غيرها لاسيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجىء التتر فنزل من القلعة الى مراغة وهى قريب منها فحصرها فاتاه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك رويندز اخوه ثم ان هذا الاخ الثانى نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد الى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخته وكان هذا جميعه فى مدة سنتين فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة وكل حسنة بسيئة

﴿ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم﴾

فى اول هذه السنة وصل التتر من بلاد ماوراء النهر الى اذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ماوراء النهر وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ماوراء النهر التى عمرت وعمرت مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها واما التتر فكانوا تغرب كل قليل طائفة منهم يغيرون ما يرونه بها فالبلاد خاوية على عروشها فلم يزالوا كذلك الى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه وبقوا كذلك فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الاشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين ارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه

ويحثهم

لولا قضاء زاده ولا بأجرع
لولا قضاء فاده * ومن نادر
أمره فى المعاقرة انه يكتب
ضمنا فى التنقل من الصبوح
الى الغبوق * والتردد بين
الفجور والفسوق * فان
نشط للتنزه تبوأ مقاعد
الاكناف * كما تعود مقاعد
الاحقاف * فيهادى بين
اثنين حرضا فى جلدة شيطان *
وجيفة فى صورة أفعوان *
قد تجم بينهما تنوخ الفحل
للرمال * بل صنيع الداهيتين
بالضحال * وربما بقى فى
التمارض سنة أو اكثر
شفقا من تكلف الخدمة *
لولى النعمة * وتجشم المسير *
الى باب الوزير * فيرشو على
التعليل مالا * ويحلو وجوه
الاطباء * وأصحاب الانواء *
فرها خفافا وبدرا ثقالا *
وليس هذا الاحتيال بأغرب
من اكتئابه الزمانة على
امتناع الطباع وشموس
النفوس دون الاصغاء
اليها * فضلا عن القرار عليها *

ويحثهم على قصده عقيبا لضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن الذى صاروا اليه وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته فمن ذلك انه اول ماظهر فى اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها وسار الى دقوقا فنهبها وقتل فيها فاكثر وهى للخليفة ايضا ثم ملك اذربيجان وهى لاوزبك فملكها وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الاشرف صاحب خلاط ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فاكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر يستدعيهم الى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قد ملئ رعبا وخوفا وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أن غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين مالم يسمع بمثله وذلك انه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق ان الخادم مات فاظهر من الهلع والجزع عليه مالم يسمع بمثله ولا بمجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز بعدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى بعض الطريق راجلا فالزمه امراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل الى تبريز أرسل الى اهل البلد فامرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فانكر عليهم حيث لم يعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء اكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم امراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكى فامتنع من الاكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل له ذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقول انى الآن أصلح مما كنت فطلق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لا يدرى مايصنع لاسيما لما خرج التتر فحينئذ دفن الغلام الخصى وراسل الوزير واستقاله وخدعه الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها

(ذكر ملك التتر مراغة)

وفى هذه السنة حصر التتر مراغة من اذربيجان فامتنع اهلها ثم أذعن اهلها بالتسليم على امان طلبوه فبذلوا لهم الامان وتسلموا البلد وقتلوا فيه الا انهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة وعظم حينئذ شأن التتر واشتد خوف الناس منهم باذربيجان فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

(ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عنها وما كان منه)

فسبحان من خلق النفوس أطوارا * وجعل من الهموم أقدارا * هذه الجبال أوتادا وأغوارا * هذه من اعيان مساوئ هذا الفاضل * العاطل * ولو سردت أمثالها لطال الكلام * وعال الابرام * ووراءها من دقائق الظلم المذموم * والدغل المكتوم * وثقل الحيزوم * والذل المبلول بلعاب اللوم مايربى على دقائق الابراج * وأجزاء جواهر الامشاج * والصغائر على الاصرار كبائر * كما زعب الشعور على الايام غدائر * ولقد أحسن ابن المعتز حيث يقول

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
لا تحقرن صغيرة
ان الجبال من الحصى

ومما اقتضى التنبيه على معايب المذكور ومساويه * والفلى عن شمط عقائصه وذوائبه * مقابلته صنائع

لما رأى جلال الدين ما يفعله التتر فى بلاد اذربيجان وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الاموال وهم عازمون على قصده ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فارق اذربيجان الى بلاد خلاط وأرسل الى النائب بها عن الملك الاشرف يقول له ما جئنا للحرب ولا للاذى انما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر ويطلب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبة اهمالهم فوصل الى خلاط فبلغه ان التتر يطلبونه وهم مجدون فى أثره فسار الى آمد وجعل البرك فى عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا اليه على غير الطريق الذى فيه البرك فاوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر فى كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فأوقع بهم الامير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار واربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردى والبدوى وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم فى خلاط وغيرها وبما سعوا فى الارض فسادا والله لا يحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا الى ضعفه ووهنا الى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر فى طلبه لانهم لم يعلموا أين قصد ولا اى طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء

(ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه فى البلاد من الفساد)

لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد ذهب التتر سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم اهلها فبذل لهم التتر الامان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ما هم (حكى) لى بعض التجار وكان قد وصل آمد انهم لما رأوا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن أخ للام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة ايام ثم سار وامنها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وسار وامن طنزة الى وادى القرب من طنزة يقال له وادى القريشية فيه طائفة من الاكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق اليه ضيق فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وسار وا فى البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل نصيبين بقلعة ماردين وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها أيضا ثم وصلوا الى نصيبين الجزيرة فاقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى بلد سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور فوصلوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا وعادوا ومضى

طائفة

لى عنده ايام آل سامان
وبعدها فى حق قضيته *
وعهد رعيته * وعيب
طويته * وسر أخفيته *
وشغل كفيته * وبر أوليته *
بأن كاشفنى لمودة جمعتنى
وولده المعتبط أبا المظفر
رحمه الله بعدا ولم يرج
لعظيم سيلها صفاء * ولا
لهيم ليلها انقضاء * وذلك
ان شمس الكفاة تدنى
لمحاورته * وتقمص لى خيرا
بمعاشرته * مكافأة على
خدمتى دولة السلطان
يمين الدولة * وأمين الملة *
اليمينى فى شرح أخباره *
ومدح مقاماته فى عديده
وأنصاره * فما زال يسرى
اليه عنى بنميمة * كقطار
دية * وقيعه * كسراب
بقيعه * على غفلتى دون
ما ينصبه لى من شرك *
ويهيجه من معترك * تمويها
له أنى لحقه كافر * وعن
فرض محبته نافر * والى
هروق بعين الكفاة *

طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة وهى على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل فنهبوها واحتمى اهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه (وحكى) لى عن رجل منهم انه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بى وكنت أراهم من نافذة فى البيت فكانوا اذا أرادوا قتل انسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول لا بالله ومضى طائفة منهم الى نصيبين الروم وهى على الفرات وهى من أعمال آمد فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بلد بدليس فحصن اهلها القلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) انسان من أهلها قال لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم سار وامن بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة اوجيش من أعمال خلاط وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا فى ذى الحجة واقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى القاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس واقد بلغنى ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به (وحكى) لى رجل قال كنت أنا وهى سبعة عشر رجلا فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فاخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير

﴿ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة وصل طائفة من اذربيجان الى أعمال اربل فقتلوا من على طريقهم من التركمان الايواتية والاكراد بجوزقان وغيرهم الى أن دخلوا بلد اربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الاعمال وعملوا الاعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم وبرز ظفر الدين صاحب اربل فى عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا اليه فلما بلغه عود التتر الى اذربيجان أقام فى بلاده ولم يتبعهم فوصلوا الى بلد الكرخينى وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه مايقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخربت هذه السنة ولم تتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها والله أعلم

﴿ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر﴾

فى اول هذه السنة أطاع اهل بلاد اذربيجان جميعها للتتر وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائى والخوبى والعتابى وغير ذلك وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على آمد من

فى اسحقاق صدر الوزارة
ماثل * وفى شعب الاختصاص
به والانقطاع اليه سائل *
اكذوبة لم يخلق الله
لها رأسا ولا ذنبا * ولم يضرب
لها وتدا ولا طنبا * ودمنة لم
يهتد دمنة لسور حوافرها *
ومصفوف كلاها وأباهرها *
حتى هاجه على كالليث
موتورا * والنمر محسورا
ومضرورا * فكم كدحت
حتى استنزلته عن حران
وشماس * وجهدت حتى
نجوت منه رأسا برأس *
وطفقت انشد وقد فارقته سالما
اذا المحن أبناء سالمين بأنفس
كرام رجت امر انخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنيمة انها
ثؤب وفيها ماؤها وحياؤها
وأغرى بى بدر الملك بن شمسه
عين الدولة فى عظيمة لولا ان
ألهمه الله الاناة * وأشعره
الحصاة * فنقر ونقب *
واستشف اعطاف البلاغ
فعل من جرب ودرب *
لثارت على منه داهية لا تبقى

التتر وتفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة واربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الاسلام منحجرون فى الانقاب وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ولا علموا له حالا سقط فى أيديهم واذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ماطلبوا منهم من الاموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد اذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل فى عساكره بالقرب منها وأرسل الى اهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان امتنعوا عليه فارسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شئ حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فاعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة من أعيان اهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع اليه الا انه لا يظهر شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا انه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائى وغيرها ليستعمل لملكهم الاعظم فان هذا هو من اتباع ذلك الملك فاحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أراد واووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاة لملكهم ايضا فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الاطلس الجيد الزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك وتردد رسلهم الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم انهم لا ينصرون خوارزمشاه واقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الى الموصل واقام بها هو ورفقاء له ثم سافر الى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر الى الرى وأطاعهم أهلها وساروا الى اذربيجان سار هو معهم الى تبريز فكتب الى أصحابه بالموصل يقول ان الكافر لعنه الله ما نقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فان الامر عظيم ولا تظنون ان هذه الطائفة [illegible] وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التى وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدها انما أرادوا أن يعلموا اهل فى البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام الا ان كان فى بلاد المغرب فان عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأما جلال الدين فانه فى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال والله المستعان

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلت الامطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فانها كانت قليلة بالمرة وغلت الاسعار بالبلاد وكان أشدها غلاء حلب الا انه لم يكن بالشديد مثل ما تقدم فى السنين الماضية فاخرج أتابك شهاب الدين وهو والى الامر بحلب والمرجع الى أمره ونهيه وهو المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربى له من المال والغلات كثيرا وتصدق صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجزاه الله خيرا وفيها بنى أسد

الدين

ولا تذر * ولا استطارت عباقية يفنى عليها الشعر والبشر * فمن الله تعالى بأن فضح القاضى فيما زوره * وكسف وجهه وكوره وأهواه فيما حفره * وخنقه بقوى ما ضفره * وسخم وجهه بثؤور الافتعال * وكشف عورته لفحول الرجال * وجعله عبرة للعابرين بشرح هذه الاحوال * فمن قرأ هذه الفصول * فليحمد الله تعالى على السلامة من مثلها * والبراءة من قوادح الاوزار * وقوادح النار بها * وليعلم ان الاساءة تعقب على مرور الايام عباً ثقيلا * وغباوبيلا * وخطباً جليلا * وأسانا كالحسام صقيلا * وقبح الله من نقص عمره على زيادة الآثام * ومساءة الانام * وحيازة الملام * ويرحم الله عبدا قال آمينا

(هذا آخر الكتاب المرسوم باليمينى لابى نصر العتبى رضى الله عنه وارضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه)

الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها سميس وكان الملك الكامل لما خرج من مصر الى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه فاقطعه مدينة سلمية فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهى على تل عال وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهى بين جملة المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وأخذوا منها غنيمة واسرى فسيرا تابك شهاب الدين اليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم كثيرا واستردّ الاسرى والغنيمة وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى الشيخ الصالح وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمه فلو قال قائل انه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا فرضى الله عنه وأرضاه فانه من جملة شيوخنا سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الاول توفى صديقنا أبو القاسم عبد المجيد ابن الحمى الحلبى وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا ذا مروأة غزيرة وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة يحب اطعام الطعام وأحب الناس اليه من يأكل طعامه ويقبل بره وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن ايصال راحة وقضاء حاجة فرحمه الله رحمة واسعة

(ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة)

(خاتمة)

باسمك اللهم خير الاسماء وشكرك الجالب لمزيد النعماء والصلاة والسلام على خاتم الرسل الكرام وعلى آله أولى الفضل والاحتشام والسير المستقيمة والمناهج القويمة يقول المتوسل الى مولاه بالنبى المختار ابراهيم الدسوقى الملقب بعبد الغفار خادم تصحيح كتب العلوم والفنون بدار الطباعة ذات الطبع السليم المصون

تم بعون مبدع الاوائل والاواخر والاوائل طبع كتاب التاريخ المعروف بالكامل للعلم الشهير الماهر النحرير العلامة أبى الحسن على المعروف بابن الاثير الذى ابتدأه من اول الزمان الى انتهاء سنة ستمائة وعشرين وثمان ثم اخترمته المنية فأدركت الناس فيه الرزية محرر الجمل والاساليب مصونا عن التحريف والتصحيف فى الكلمات والتراكيب على يد عصابة تشهد لهم عباراته بالاصابة اذا قابله على أصله المطبوع المحرف أريب كشف الله عن بصيرته فأنصف وكان طبعه بالمطبعة الكبرى العامره ذات التحريرات الباهره المشهورة بكمال الضبط ودقة الانظار فى سائر المدن والنواحى والاقطار المتوفرة دواعى مجدها المشرقة كواكب سعدها فى ظل من تعطرت بطيب ذكره الاندية وتضوعت بعاطر مدائحه الاثنية رب المآثر التى لا تحصى والمحاسن التى لا تستقصى حسنة الليالى والايام بدر الولاة والملوك والحكام سلالة السراة الصناديد وارث الملوك الاماجيد الراقى بهممه الى كل مقام معتلى عزيز مصر اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لازالت الايام منيرة بطلعة وجوده والانام ممتنعة بكرمه وجوده ولا برح قرير العين منتعش الروح والعين بانجاله الكرام وأشباله الفخام لاسيما الوزير الشهير النبيل الاصيل رب المعارف المشهوره

والعوارف المشكوره والرأى والاصابه والدولة والنجابه من هو باحسن الثناء حقيق
سعادة محمد باشا توفيق رئيس المجلس الخصوصى ومن له بولاية العهد أوصى ثم سعادة الوزير
ضنو الكمال ومظهر الجلال والجمال أسد العرين أشم العرنين مشير المعالى بدر الليالى
جوهرى الفطنة والرويه سعادة حسين باشا ناظر الجهاديه ثم حضرة ثالث الانجال من له
فى ميدان الفضل أفسح مجال المعدود فى كفة ميزان الرجحان من فحول الرجال العلية
الاذهان حسن الصفات والاسم ومن له من حسن الصيت أوفر قسم من انتعش به البهاء
انتعاشا دولتلو حسن باشا وكان طبعه الموثق وتمثيله المرونق مشمولا بادارة من
خاطبته المعالى بياك أعنى حضرة حسين بك حسنى ونظارة وكيله السالك جادة
سبيله من علمه أحاسن اخلاقه تثنى حضرة محمد أفندى حسنى وملاحظة
ذى الرأى المسدد حضرة أبى العينين افندى احمد وكان تمام تمثيله
وكمال تصويره وتشكيله فى أوائل ذى الحجة الحرام
من سنة ألف وماتتين وتسعين من هجرة خاتم
الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليه
وآله وصحبه وكل منتسب اليه
ماناح حمام وفاح
مسك ختام
آمين